الفصلية

حاسب بستان الخميسي

الكتاب : الفصلية (رواية)

المؤلف : حاسب بستان الخميسي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع: ٧٢٦٨ / ٢٠١٧

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 266 - 3

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور. الهضبة الوسطى. المقطم. القاهرة

ت فاكس: ٢٧٢٣٨٠٠٤ (٠٢)، ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



سلسلة روايات

رغبات صامتة

①

الفصلية

رواية

حاسب بستان الخميسي

شكر وتقدير

- إلى زوجتي الحبيبة سناء صلاح

للتشجيع المستمر وخدماتها الجليلة بجهود استثنائية في تقديم المساعده وتوفير أجواء وظروف بيتيه صحيحة مناسبة .

- إلى السيدين : رائد ساري و أكمل مصطفى

لتعاونهما المستمر وبدون ملل في مجالات الإنترنت والطباعة والمراسلات .

إهــداء

سيدتي... لنخرج معًا من بين الأنقاض القديمة

والعادات والتقاليد البالية والأعراف العشائرية

ونسعى معًا لنؤكد أهمية نجاح النصف الآخر...

في مجتمع متكامل ناجح...

أكتب لكِ سيدتي العربية

مقدمة

المرأة الفصليّة نوعٌ من الرَقِ يُخفي وجهه القبيح خلف قناع مزوق جميل لذا فهو الأسوأ... أكدته العادات والتقاليد والأعراف ، غضت الطرف عنه قوانين الحكومات المتعاقبة في الدولة الحديثة ، نسته الثقافة والآداب ، سكتت عنه الأخلاق، لذا ما زال قائمًا موجودًا.

أغلب ما في الرواية من نسج الخيال... لكنها تستند وبقوة إلى الكثير من الحقائق، لذا نحن نجمع بين الحقيقة والخيال.

بطلة الرواية {عزيزة} شخصية حقيقية روت للمؤلف فصولاً عن حياتها... لكن؛ ليس بالضرورة أنها قالت كل ما هو مكتوب.

(١)

أنا عزيزة... اسمي عزيزة حميد سباهي ، تمَّ تغييره بعد الأحداث التي سأرويها إلى عزيزة الفُصليّة ، سأروي لكم حكايتي انتبهوا لها جيدًا وتابعوا أحداثها باهتمام.

لابد أن أقول كل شيء... في داخلي رغبات صامتة تأمرني حيث لا يجب أن تبقى هكذا وتستمر صامتة، تشدني انفعالات وأحاسيس لا أستطيع تهدئتها والسيطرة عليها، لابد أن أفضي بكل ما عندي وما اختزَنَته ذاكرتي، أتكلم لأزيح عن نفسي كل ما يشاطرها من ذكريات أليمة... وسعيدة على حد سواء.

لكن... مهلاً أرجو منكم سادتي الكرام... سيداتي المحترمات إلقاء نظرة فاحصة عميقة قليلاً على البيئة حيث كنت أعيش، والأوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وبعض العادات والتقاليد والعلاقات الإنسانية المحيطة، معلومات بسيطة ليمكنكم بعد ذلك متابعة الأحداث والإلمام بها إلمامًا تامًا.

جغرافيًا[1]... قرية هنا ، وقرية هناك... قرى متناثرة متباعدة في ريف جنوب العراق ، بعيدة عن سلطة الوالي وهيمنة الملوك وعظمة الأباطرة وهيبة السلطان ورهبة الخلفاء على مرِّ القرون والأزمنة ، بعيدة عن مراكز القرى وتبعية المدن الكبيرة غاب عنها القانون غيابًا تامًا ، وفرض العرف العشائري وجوده بقوة كبديل شرعي بلا منازع.

والعرف ، وتُجمع على أعراف... كل ما تعارف عليه الناس بالممارسة من قوانين غير مكتوبة ، مستنبطة من الواقع الحضاري ، مشتقة من التجربة ، مستمدة بالوراثة من جيل إلى

---

(١) توسعت القبائل العربية في سكن هذه المناطق بعد الفتح الإسلامي للعراق أعقاب معركة القادسية ١٥ هـ مع من التحق بهم وانضم إليهم من سكان جنوب العراق الأصليين الذين اتبعوا الإسلام، قبل هذا التاريخ كانت مأهولة بأكثرية من الصابئة المندائية وأقلية مسيحية وبقايا من سومر وبابل، الآن ٩٨% من سكانها من العرب الشيعة. يتشكل الجزء الأعظم من السهل الرسوبي من المسطحات المائية وما يحيط بها من أراض طينية رخوة بقيت عصية صعبة الإدارة وباستمرار على عمال وولاة الدول القائمة : الفارسية الساسانية وبعدها الخلافة الراشدية، الأموية، العباسية وما رافقها، وجاء بعدها من سلاطين وملوك، ومن ثم سلاطين بني عثمان، وسلطات الاحتلال البريطاني أعقاب الحرب العالمية الأولى، قبل أن تشهد الكثير من الهدوء والاستقرار انصياعًا لسلطات الدولة العراقية الفتية الجديدة في العهد الملكي بداية عشرينات القرن العشرين. مناطق دائمة العصيان كثيرة التمرد على الحكومات المتوالية، ثورة العشرين أهم ثوراتهم في العصر الحديث انطلقت منها شرارة الثورة الأولى لتعم العراق بأجمعه، والانتفاضة الشعبانية الشيعية عام ١٩٩١ أعقاب حرب الخليج الثانية، وثورات وانتفاضات أخرى كثيرة لا مجال لذكرها هنا... وتعد من أغنى مناطق العالم بالثروات النفطية والمعدنية والحيوانية والزراعية.

جيل ، يجري تطبيقها يوميًا كدستور عملي لتسوية النزاعات وفض المشاكل الواقعة داخل العشيرة الواحدة بين أبناءها أو بين أبناء العشيرة والعشائر الأخرى ، تقع الحوادث وتتقاطع المصالح ، حوادث القتل أو محاولة القتل ، والسطو لغرض السرقة ، وما يمس الشرف والأعراض ، وملكية الأراضي وحدودها ، وحقوق المياه والسقي ، هذه هي الأسباب المباشرة لمشاكل ليست بالقليلة.

المدن الصغيرة والقرى العشوائية المتناثرة هنا وهناك على أسس عشائرية وقبلية بحتة، فهذه الأراضي تعود ملكيتها لشيخ هذه العشيرة ، وهذا السلف [١] تسكنه العشيرة الفلانية وهذا مضيف[٢] الشيخ فلان... وهكذا.

---

(١) السلف للمفرد والجمع في آنٍ واحد : مجموعة صغيرة من بيوت القصب والبردي المتباعدة وأفضلها حالاً مبنيًا من الطين ومسقوف بجذوع النخل ومغطى بالسعف، تسمى الواحدة "صريفة" تجمع "صرائف" تقوم على أطراف أو حافات مياه الأهوار أو على جزر صغيرة يُدعم جرفها بالقصب والبردي منعًا لتآكلها.

(٢) المضيف : دار ضيافة شيخ العشيرة ينتصب من القصب الجاف بشكل هندسي بديع وجميل لا مثيل له في أي مكان في العالم، ينفذه عمال مهرة متخصصون ذوو خبرة، وبالسُخرة غالبًا.

قرى يفصلها عن بعضها أراض زراعية واسعة جدًا ، تقدر بعشرات الآلاف من الدونمات[١] ، إقطاعيات[٢] يملكها شيوخ العشائر والطبقة الأرستقراطية المتنفذة يعمل بها الفلاح بالسخرة، أو بما شح من ناتج الأرض وخير خراجها، لا يسد عوزًا ولا يغني عن حاجة، وهكذا هو الحال حتى لو امتلك الفلاح أرضًا صغيرة خاصة به فإن لائحة الديون الثقيلة تلاحقه موسم الحصاد!

كذلك تفصلها عن بعضها مساحات مائية واسعة وهي الأهوار والمستنقعات ، تمتاز بضحالة مياهها الثقيلة الآسنة[٣] وبطء جريانها ، لحملها بالغرين وانتشار نبات القصب والبردي ، وهذه أهم ميزاتها. غنية بأسماك المياه العذبة، تستمد عذوبتها من مياه نهري دجلة والفرات حيث يلتقيان هنا في هذه الأرض الطيبة ، في عناق روحي أبدي[٤] ، أسماك البني والشبوط

---

(١) الدونم ٢٥٠٠ متر مربع، اصطلاح رسمي وشعبي في العراق لقياس مساحة الأراضي الزراعية.

(٢) استمر الحال هكذا حتى حركة ١٤ تموز ١٩٥٨ حين صدر قانون الإصلاح الزراعي أعيد بموجبه توزيع الأراضي الزراعية على الفلاحين بالعدل والإنصاف وبذلك انتهى عهد الإقطاع.

(٣) ميسان من المحافظات المهمة في جنوب العراق اشتق اسمها من العبارة المندائية "مي سيان" وتعني مياه آسنة، وكذلك البصرة أكبر مدن العراق بعد العاصمة بغداد ذات تسمية مندائية وتعني "الحصى الأبيض".

(٤) شط العرب يتكون من اتحاد نهري دجلة والفرات في القرنة شمال البصرة.

وكطان وأنواع أخرى بما لا عد ولا حصر له، غنية بأنواع الطيور المائية... الأوز ، البط بأنواعه وأحجامه وأشكاله ، الزريجي ، الحذاف ، دجاج الماء (أبو غرة) ، كلها طيور موسمية مهاجرة في فصل الشتاء فقط قادمة من شمال أوروبا حين يحل موسم البرد وتساقط الثلوج.

أغنى مناطق ومنابع نفط في العالم، وإذا رغب أحدكم في التأكد من ذلك فليسأل فقط عن غرب القرنة ونفط البصرة وحقول نفط مجنون وميسان وما حولها ، وسيجد الإجابة الشافية والكافية حتمًا.

أرض زراعية خصبة، أكثر مناطق الأرض خصوبة، إنها القلب النابض لسهول العراق الرسوبية كثيرة المياه، وهل يمكن إخفاء قرص الشمس بغربال، هل من أحد لم يتعرف بعد على نهري دجلة والفرات وروافدهما وفروعهما... ذات مراع خضراء مترعة بالثروة الحيوانية الهائلة، وفوق كل هذا وذاك وجود الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف المزدحمة بالزوار المسلمين من جميع أنحاء العالم حجًا لأضرحة الأئمة الأطهار والصحابة الأبرار. ضريح الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وولداه الحسين والعباس عليهما السلام، وعشرات غيرهم مما لا يمكن حصره وعده، وبما يسمى حديثًا بالسياحة الدينية التي تدر أموالاً هائلة على مدار السنة، وكذلك السياحة

التاريخية ، حيث آثار بابل وأكد وسومر ، وبذلك نستطيع أن نقول؛ لا بل نستطيع أن نؤمن إيمانًا عميقًا لا يتزعزع إن هذه المناطق هي أغنى أرض في العالم[١] ، ومع ذلك فالناس فيها من أفقر شعوب الدنيا على الإطلاق!! نعم... هكذا كانوا وما زالوا إلى يومنا هذا.

أناس بسطاء تنتشر الأمية فيهم بشكل يكاد يكون مطلقًا[٢] يصل إلى ذروته ، يعتمدون في كسب أرزاقهم على صيد الأسماك وخاصة في فصل الصيف ، وصيد الطيور في فصل الشتاء ، بالإضافة إلى رعي المواشي، الجاموس بالدرجة الأولى والتي تساعد الظروف الطبيعية وتوفر المياه على مدار السنة في تربيتها ، بالإضافة إلى الأغنام والماعز والدواجن وكذلك الزراعة، خاصة زراعة الحبوب؛ الرُز والشعير والقمح حسب أهميتها [٣] ، والفلاح يعمل بالسخرة تلبية لرغبة الشيخ أو

---

(١) هناك أخبار تدور حول اكتشاف وجود اليورانيوم والزئبق في هذه المناطق وبكميات كبيرة.

(٢) انخفضت نسبة الأمية بينهم نهاية السبعينات من شبه المطلقة إلى ٧٥% وعادت منذ بداية التسعينات لترتفع مرة أخرى وتتجاوز ٨٥% عند الغزو الأمريكي للعراق في ٣ شباط ٢٠٠٣.

(٣) كان ذلك أكثر وضوحًا قبل العهد الجمهوري الذي جاء نتيجة لحركة ١٤ تموز ١٩٥٨.

السركال[١]. كانت الزراعة حتى عهود قريبة تعتمد على جهد الفلاح البدني والعضلي أكثر من الآلات والأدوات الزراعية، حيث يوجد المحراث البسيط الذي تجره الحيوانات والكرك والمسحاة[٢] في حرث الأرض، والناعور والساقية في ريها، والمنجل اليدوي عند الحصاد، وتغيب عنه تمامًا الساحبات الزراعية "التراكتر" والمحاريث والحادلات الحديثة، ومكائن سحب المياه من الأنهار "الخنزيرة أو الشافطة" والحاصدات الزراعية[٣].

ومع ذلك فلهم تراثهم الأدبي الغني الخاص بهم، حيث الشعر الشعبي الرائع اللطيف الذي يخرج من قلب الشاعر ليحاكي قلب المستمع... "من القلب إلى القلب". وتعد الأبوذية من أهم أنواع الشعر المسموع والمغنى شيوعًا وأكثرها رُقِّيًا، ويتكون من ثلاثة أشطر تنتهي بكلمة ذات لفظ واحد ومعاني مختلفة، قبل أن تقفل بالشطر الرابع، والدارمي أيضًا نوع آخر من

---

(١) السركال : وكيل الشيخ ومساعده، يناظره الوكيل أو وكيل الأعمال في التسميات الحديثة.

(٢) الكرك والمسحاة من الأدوات الزراعية البسيطة وتستخدم باستعمال القدم والذراع حسب قاعدة العتلات حيث يكون نقطة الارتكاز عند المقبض في قمة الخشبة ثم القوة حيث تدوس القدم وتضغط وبعد ذلك المقاومة عند حافة السن الحديدي الذي يشبه السكين المحدبة وهي تلامس الأرض.

(٣) تحسنت الأساليب الزراعية في العشرين سنة الأخيرة من القرن العشرين.

أنواع الشعر الشعبي؛ يشرح فيها الشاعر الشعبي في بيت واحد أو بيتين على الأكثر خلجات قلبه وشجون روحه وآهات نفسه وما يعانيه ويكابده، لتمتد بعد ذلك لتسجل وتسطر ملاحم الحب والشجاعة والحياة في صراعاتها اليومية.

الغناء الريفي في العراق هو أرقى أنواع الغناء الشعبي، وشعر الأبوذية المغناة عموده الفقري ، وتغنى بأطوار وتسميات مختلفة، فهذا طور الصبي أو المحمداوي والحياوي والغافلي وتسميات أخرى مختلفة ، حسب الشخص الذي ابتدع نوع الأبوذية وغناها لأول مرة وأبدع بها، أو المدينة التي يعيش فيها ، أو العشيرة التي ينتسب إليها ، أو الطائفة الدينية التي ينتمي لها، وتسجل له بالاسم كما تسجل براءة الاختراع، هكذا كانت منذ بدأت، ومازالت، وستستمر إلى أبد الدهر. ومازالت تغنى وتمارس إلى يومنا هذا من قِبل أشهر الفنانين والمغنين للأغنية العراقية... وأعلاهم كعبًا في فنون الغناء.

(٢)

يُعتبر عرف "الفَصّل" أهم هذه الأعراف وضوحًا وثباتًا في مجتمعات جنوب العراق ووسطه، والذي تدور حوله الأعراف الأخرى ، فهو ثابت رصين في مكانه وتدور حوله أعرافٌ كثيرة متعددة ومتشعبة ، وعلاقات عشائرية معقدة لا يمكن شرحها بسهولة ، إنما تعوّد الناس على ممارستها وأصبحت عندهم مفهومة كالغرائز ، ومكانة الفصل كعُرف بين الأعراف كمكانة الشمس بين الكواكب ، فهي ثابتة رصينة في مكانها لا تتزحزح ، بينما تتحرك الكواكب الأخرى في مدارات حولها لترى وتتعرف على فصولها الأربعة في السنة الكاملة ، كذلك تدور حول نفسها لترى وتتعرف على ضوء نهارها وظلمة ليلها في زمن يسمى اليوم الواحد.

الفصّل تقابله "الديّة" عند العرب وهو في الغالب ذو طابع مادي عبارة عن مبلغ من المال ، وأحيانًا بعض الحيوانات من الماشية والجمال ، وفي مرات قليلة بعض الغلال الزراعية توهب من أهل أو عشيرة المعتدِي؛ إلى أهل أو عشيرة المعتدَى عليه أو الضحية أو من أصابه الضرر الأكبر ، وهما المدعي والمدعى عليه في القوانين المدنية الحديثة ، ويقدر حسب نوع الاعتداء وحجم الحدث ومدى الضرر الناتج ، فهو يتدرج من

المصالحة المعنوية بين الأطراف والاكتفاء بها كحد أدنى إلى التعويض بسبع نساء باكرات كحد أقصى أو كسقف أعلى في حادث القتل لشخص واحد فقط.

هذا له محاسنه في حفظ وتثبيت نوع العلاقة بين الأطراف المتنازعة بعد الحدث ، ويحد من امتداد المشكلة الصغيرة وتوسعها إلى مشكلة كبيرة ، وتمنع النزاعات المسلحة الدامية والتي تجر إلى العنف والعنف المقابل ، وإلى الثأر والثأر المضاد بين الأفراد والجماعات المتنازعة وتحد منها.

وله مساوئ كبيرة أيضًا حين يصبح حافزًا أو دافعًا للطامعين لرغبات كامنة صامتة في نفوسهم الضعيفة ، من أجل إثارة المشاكل ، ربما بدون سبب وجيه أو مقبول أحيانًا ؛ طمعًا في الحصول على بعض المكاسب المادية في الكثير من الأحيان أو لإثبات الوجود في بعض الأحيان القليلة، حين يطمح أحدهم في الظهور في الواجهة أو في وسط الصورة ، وهذا ما اشتهرت به القرية العراقية الصغيرة والمدينة الكبيرة على حد سواء منذ أوائل الثمانينات من القرن العشرين ، إنه عصر المادة ، بل هو العصر الذهبي للمادة وحب الظهور في آنٍ واحد.

كل الأمور هينة ومقدور عليها ، إلا إن أسوأ ما فيها هو منح البنات الصغيرات الباكرات غير المتزوجات قبلاً "كفصّل" بدلاً عن المبالغ المادية والعينية الأخرى! حين يعجز الجاني أو

المعتدي وعشيرته عن توفير وتأمين المبالغ المالية والعينية الكافية لدفع الديّة ، وقد يصل عدد البنات "الفصليات" في حوادث القتل لشخص واحد مثلاً إلى سبع بنات! وعبارة "فصل سبع نسوان" عبارة شائعة في وسط وجنوب العراق ، يقولها الشخص ، أي شخص إلى نده متحديًا له في الشارع وفي المجالس والدواوين والمضايف.

ولا يوجد عمر محدد بعينه للفتاة الفصلية، فقد تُعقد راية العباس أبو فاضل(١) على فتيات كاملات ناضجات، أو رضع صغيرات لم تتجاوز أعمارهن الشهور القليلة، وتظل هذه البنت الصغيرة طيلة ما بقى من عمرها مربوطة معينة ، هكذا... وقف... فصلية من بيت فلان إلى بيت فلان حتى تكبر وتنضج وتصبح

---

(١) العباس أبو فاضل : هو العباس بن علي بن أبي طالب عليهما السلام من زوجته الثانية فاطمة أم البنين. وهو ليس من الأئمة الاثني عشرة المعصومين لدى الشيعة، ولكنه يُجل وله قدسيته ومكانته الخاصة العظيمة عندهم لأنه قاتل وقتل مع أخيه الحسين بن علي في وقعة الطف في كربلاء المقدسة وقبرة اليوم يزار بالقرب من قبر الحسين. وحلف اليمين والقسم بالعباس أبو فاضل أبو راس الحار وسيفه البتار لا يرد وليس في سبيل لرفضه ولا يوازيه أو ينافسه أي قسم أو يمين أخر؛ حتى بالله سبحانه وأنبيائه ورسله وكتبه المقدسة... فقد يرواد الشك وعدم الثقة بعضهم أو حتى جلهم، لكن أمرًا كهذا لا يحدث في القسم واليمين بالعباس. وقد سمعت أكثر من مرة - بل مرات لا تحصى - سمعت أحدهم يطلب من غريمه استبدال القسمة لأنه خلى من اليمين بالعباس وذكر اسمه، ويلقب بقمر بني هاشم لجماله وحسن صورته.

مؤهلة للزواج من عمر ثلاثة عشر عامًا فما فوق ، حينها تنفصل عن بيت أبيها وأهلها وعشيرتها وتنتقل إلى بيت آخر كالسبايا الأسيرات والإماء... لا حقوق لهن أبدًا، لا مهر مدفوع أو مؤجل، ولا زفة عرس شرقية صاخبة، ولا يتمتعن بالحب والاحترام، ولا يحظين به في بيوتهن الجديدة، يقاسين شظف العيش والحرمان والذل والهوان في ظل حياة زوجية صحيحة، ليس هناك من يحميهن ويدافع عنهن، حتى أهلهن وذويهن لا يسمح لهم، بل وحتى زيارتهن ممنوعة في الغالب(١).

والرجال الأزواج المتلقين للفصليات بالعادة رجال لا يمكن تزويجهم بصورة اعتيادية أو طبيعية وتقليدية، بسبب مرض كامن أو عيب خلقي أو نقص فيهم أو كبر وعجز ووهن أصابهم، ترفضهم البنات وأهل البنات في الظروف الطبيعية العادية، حتى شاع المثل العراقي القائل "فصلية" مثل قصير جدًا من كلمة واحدة فقط، ولعله أقصر مثل في العالم، وتقوله المرأة الحرة لزوجها المتجبر ، المتكبر الذي يحاول إيذائها وظلمها، هل أنا فصليتك لتظلمني؟!!.

---

(١) يتبع إلى ذمة وضمير الزوج وأدبه وحسن خلقه وحسب درجة قربه من أهل زوجته الفصلية قد تكون من ذات العشيرة أو حتى بنت العم أحيانًا، ليس بالبعيد، ومادامت المشاكل تقع بين أولاد العم أيضًا ويحتاج أحدهم لأن يفصل الأخر ... والشواهد الملموسة كثيرة على حوادث كهذه.

(٣)

الأنواء الجوية ليست طبيعية في القرية صباح هذا اليوم ؛ السابع من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥١ ، ومع الجو يبدو كل شيء غير طبيعي... قلبي يحدثني أن حدثًا جللاً سيقع حتمًا اليوم أو خلال الأيام القليلة القادمة ، فالجو بارد... بارد جدًا وفيه ريح متوسطة السرعة، تتحول إلى عنيفة وقوية بين الحين والآخر ، تأذن منذرة باقتراب العاصفة الكبرى ، لقد انخفضت درجات الحرارة حتى تجمد الماء في الأواني المنزلية والسواقي والجدوال الصغيرة ، وها هي السماء تتلبد بالغيوم السوداء التي لم يكتمل نصابها بعد ، نعم في السماء سحاب أسود يتجمع ويتكدس تدريجيًا ، يتحرك ببطء متأنيًا كالسلحفاة في سيرها ، ومازالت أشعة الشمس وحرارتها تتباطأ في الوصول إلى الأرض ، ناشرة ضوء شعاعها الفضي بخجل وتردد من خلال ثغرات الغيوم على أديم الأرض الخضراء المزروعة بالحبوب والأرض البيضاء السبخة الجرداء والتي لم يتم إصلاحها وزراعتها بعد والقليلة نسبيًا.

الأرض الخضراء المزروعة بالعمبر الشتال[١] والشعير والقمح والمسورة بأشجار النخيل العالية التي تعانق السماء بقاماتها الطويلة، ورؤوسها الكبيرة ذوات السعف المتدلي منها في نسق وتوازن كأنها جنود بلا سلاح تحرس أرضًا لا أعداء لها، هل ستمطر هذه المرة أم هي غيوم كاذبة كالمرات السابقة، أنا أخاف من الرقم سبعة والغيوم السوداء وأتشاءم منهما كثيرًا أعتبرهما شرًّا وشؤمًا دائمًا، حين اسودت السماء من الغيوم في شتاء العام الماضي وقعت معركة حامية في القرية بين عشيرتين؛ السواعد وكنانه، زهقت فيها الأرواح وسالت الدماء حتى ارتوت الأرض منها، ولم تمطر السماء كأن الأرض استعاضت عن مطر السماء بالدم، لقد ذهبت الغيوم السوداء أدراج الرياح بدون مطر واليوم فقط عادت من جديد.

تمر الأيام بطيئة وثقيلة وليس فيها من جديد، نحن الآن في بداية كانون الأول/ ديسمير ولم تمطر السماء، لقد تأخر هطول الأمطار لهذا العام أيضًا كالعامين السابقين، فكانت مواسم زراعية سيئة للغاية، وللعام الثالث على التوالي سواء للمراعي

---

(١) العمبر تسمية لنوع مميز من الرز العراقي، سمي بالعمبر لطيب رائحته فهو أخضر أو جاف على السنابل قبل الحصاد وطيب لذيذ الطعم عند طهيه وهو من أجود أنواع الرز في العالم ويمتاز بشهرة واسعة.

الطبيعية خارج القرية أو للأراضي الزراعية الديم[1] والتي لا يمكن سقيها بسهولة بالطرق التقليدية المتبعة في السقي حينذاك لبعدها عن مجريات الأنهار وخاصة نهر دجلة وفرعة الكحلاء وارتفاعها عن مستويات مياه الأنهار.

البرد شديد جدًا ، لم نعتد عليه في مناطقنا الحارة نسبيًا ، لقد جفت ثمار البرتقال والحمضيات على قلتها وهي معلقة على الأغصان.

قريتنا صغيرة... صغيرة جدًا بعدد بيوتها والناس الذين يعيشون فيها ، لكنها كبيرة... كبيرة جدًا بالأراضي الزراعية المحيطة بها من جميع الجهات ، كما يحيط ماء البحر بأرض الجزيرة ، في قريتنا نزرع الرُز والقمح والشعير في المساحات الكبيرة ، ونزرع الخضروات حسب الحاجة الموسمية لها في المساحات الصغيرة ، أما بساتين الفاكهة فهي قليلة جدًا ، نحن لا نعول عليها كثيرًا وتزرع تحت أشجار النخيل لحمايتها من برد الشتاء وشمس الصيف الحارقة.

الشيخ علوان الحمد شيخ عشيرتنا يمتلك معظم الأراضي الزراعية في القرية، إنه رجل مرابي فاحش بالربا ظلوم غشوم قاسي لا رحمة في قلبه... يأخذ الفلاحين للعمل في مزراعه

---

(١) الديم : الأراضي التي تُسقى بالمطر.

سُخرة، والويل لمن لا يخضع لرغباته، يقطع عن أرضه الماء ليترك زرعه يموت عطشًا ويمنعه من دخول المضيف، ولا يقف معه ويعينه في مشاكله وأزماته، ويغض النظر عن سياط سركاله ووكلاءه وهي تلهب ظهور الفلاحين وترسم خطوطًا غير متوازية عشوائية في تقاطعاتها.

إنه يصوم ويصلي ويحج بيت الله! والغريب في تصرفاته إلى حد الشذوذ إنه رجل مزواج، كثير من الزوجات... لكنه يتصرف بطريقة عجيبة وغريبة نوعًا ما... يحتفظ بأربع نساء دائمًا بعصمته وعلى ذمته، وإذا رغب بالتزوج من الخامسة فإنه يُطلّق أكبر نسائه وأقدمهن معه، وهكذا تباعًا... عرفت زوجاته طبعه الخبيث هذا، فكانت من يأتي دورها تلملم نفسها وتجمع أشيائها وتغادر حال علمها إنه مقدم على زيجة جديدة قبل طردها بصورة رسمية!.

لكنه لا يخلو من المحاسن... وأهمها إنه يقف دائمًا مع أبناء عشيرته بقوة في مشاكلهم مع العشائر الأخرى، تجده صعب المراس متشدد، لا يلين له جانب، متصلب في مواقفه طمعًا بالمكاسب المادية، إنه لا يشبع أبدًا... كأنه سيأخذ ما يجمعه من مال إلى آخرته!.

لهذا السبب يتجنب شيوخ العشائر الأخرى المشاكل معه ومزاحمته في الحوار والمجادلة والنقاش، لكنه على العكس من

ذلك تمامًا؛ يقف وقفة رجل حقيقي في المشاكل التي تقع داخل عشيرته، تراة لينًا... سلسًا... طيعًا في مواقفه، سباقًا لإبداء المشورة الهادفة والنصح البين، متطوعًا يبذل الجهد والوقت، حتى التبرع ببعض المال ورؤوس الماشية أحيانًا ليسد ثغرات لا يمكن لغيره سدها، إنه يأخذ الكثير بيدٍ ويُعطي النزر اليسير بالأخرى، لذا فهو مهم في مجتمعه، الرجل مطلوب دائمًا، وحضوره لا بد منه، وليس هناك من حل توافقي بين أطراف النزاع ما لم يوافق عليه الشيخ علوان الحمد، وعلى الجميع الموافقة على ما يوافق، ورفض ما يرفض... إنه صاحب كلمة نافذة قوية، فيها وعندها الملتقى ولا يمكن لأي اثنين الاختلاف عليها أو الافتراق عنها.

• • • •

ودعنا ساعات الصباح الأولى وعقارب الزمن تجري مسرعة لتقترب من فترة الضحى... مازالت الغيوم السوداء تتجمع لتبدو كأنها جدارًا سميكًا مبني كالسقف مع الأفق، وعلى امتداد البصر من جميع الجهات، إنه سقف آخر للسماء معلق بلا أعمدة ولا ركائز يستند عليها.

مازال الفلاحين في حقولهم، إنهم في منتصف الموسم الزراعي ومازالت السنابل ضعيفة لم يكتمل نموها بعد.

أسمع أصواتًا ، أصوات ضجيج وجلبة تطرق أبواب أذنيّ ، يا إلهي ما هذا الضجيج ، ما هذه الفوضى ؟! أسمع أصوات صراخ وأشاهد أفرادًا يركضون مسرعين في اتجاهات متعاكسة ، تبدو الأوضاع غير طبيعية في قريتنا هذه الساعة ، ربما وقع حادث مؤسف ، عندي رغبة صامتة لأعرف كل شيء ، ها... ها... هذا هو ابن خالتي الصغير أحمد قادم يجري لاهثًا ، لأسأله:

- أحمد... أحمد... تعال يا أحمد...

- نعم يا عزيزة ماذا تريدين مني هذه الساعة؟

- ماذا يجري... أخبرني ما الأمر يا أحمد؟

- ألا تدرين ؟! هل يعقل هذا ؟! لم يعد أحد في القرية لا يدري بالحدث ويعلم به...

- لا تكن دهريًا... صار عمرك ثلاثة عشر سنة ولا تريد أن تكبر ، هيا أخبرني بسرعة هيا...

نكس أحمد رأسه وأشاح بوجهه عني وقال آسفًا بهدوء كأنه شيخ وقور:

- لقد مات خلف الصياد...

صحت برعب واضح:

- خـ... خـ... خلف...؟ مـ... مـ... مــ... كيف...؟!

- قتله ابن عمك وخطيبك حسن... تنازعا على مياه السقي ، اشتد الخلاف بينهما وضرب أحدهما الآخر ، فجاءت ضربة حسن على رأس خلف قوية وقاتلة.

وقع الخبر على سمعي كالصاعقة ، فأذهلني وأفقدني رشدي وصوابي وأصابني الكثير من الدوار ، وسقطتً متهاوية على البارية[1].

كيف لا تستولي هذه المشاعر والأحاسيس على عزيزة وتحتل روحها وجسدها أسوأ احتلال، وتُشتت عقلها وتبعثر أفكارها، هذا ومازالت الأحداث في أولها، فماذا عن نهايتها.

أنا من دم ولحم ولست من حجر ، وحسن ليس ابن عمي وخطيبي فقط، حيث يجب عليَّ الوقوف إلى جانبه والتضافر معه كما تقتضي الأعراف العشائرية التزامًا بضرورات الروابط الأسرية في مجتمعاتنا الشرقية... بل هو توأم عمري ورفيق طفولتي البائسة وصديق صبايا ، وحبيب قلبي الذي يجلس متربعًا على عرشه متوجًا كالأباطرة والملوك ، قلبي الذي لا ينبض إلا باسمه، كل نبضة تقول حسن، حسن، حسن. هو الذي ازدهرت حياتي في وجوده وأصبح لها ألف معنى، ومع كل معنى ألف أمل وأمل، وروت مياه نهر حبه الدافقة حديقة حياتي وبددت عطشها وأزهرت ورودها وازدهرت... ليس من صورة جميلة في عيني ما لم يكن حسن أحد أركانها،

---

(١) البارية : بساط يصنع من القصب القوي الغليظ والجاف ، استعماله شائع حتى وقت قريب في القرى والأرياف والمدن الشعبية في وسط وجنوب العراق.

وما ألطف تلك النسائم التي تعطر ربيع عمري وقد مرت رياحها أولاً بمنزل حسن حيث يقيم، وحملت بعضًا من عطره، ولسان حالي ينشد بهذا الدارمي :

هذا الهوه من هواي   حيل أرد أشمه
بلكن يمـر بجـروح   كلبـي و يلمـه

منذ متى أحببت حسن ، وهل هي مجرد رغبات صامتة في داخلي لا ينبض الصدق فيها ومجردة من الحياة؟!.

أعرف أنني شربت ماء حبه وارتويت منه منذ طفولتي ، يسعدني ويسرني محياه وأفرح لحضوره ، وإذا ابتعد وغاب عني استقصي أخباره وأتابعها بشغف ولهفة ، أشتاق لرؤياه ، وبدونه تبدو حياتي مظلمة مقفرة موحشة، وكم يطربني حديثه ويسكرني... إنه أملي وحلمي الوحيد في زحمة هذه الدنيا الواسعة المضطربة، وقد ازداد حبي له وتعاظم بعد أن أنقذني من الغرق في دوامة النهر التي كادت تبتلعني، علمت فيما بعد أن حسن هو الملاك صاحب اليد الرحيمة التي انتشلتني وأنا في الحادية عشر من عمري.

قلت بعدها متسائلة بدلال كأنني أعاتبه:

- كيف تعرض نفسك للخطر المميت من أجلي؟ كدت أن تغرق معي لولا لطف الله بنا...

فأجاب بكلام كله عذوبة ورقة وحنان:

- كيف لي أن أعيش بدونك... قلت لنفسي وأنا أقفز خلفك إلى ماء النهر إما أن أنقذ عزيزة ونعيش معًا تجمعنا حياة واحدة، أو أغرق معها ونموت معًا يجمعنا قبر واحد. الموت معك أرحم من العيش بدونك، فليس للحياة طعم ومعنى بدونك يا عزيزة.

- آآآآآآآآآآه يا حسن... ما ألطف حديثك وما أعذبه، لم أكن أعرف أن لك قلب شاعر...

وما زلت أحتفظ بقطعة قماش اقتطعتها من طرف ثوبي حتى افترقنا وأنا أسعى جاهدة لإيقاف نزف دم سال من قدمه نتيجة جرح عميق أصابها وهو يعمل بالأرض يحصد من خيراتها... كنت آراه حاملاً منجله كأنه فارس يحمل سيفه، يخترق صفوف الكماة المدججين بالسلاح ويجندل الفرسان، لا سنابل القمح المدججة بنعمائها وبركاتها وكنت قد كبرت وأصبح عمري أربعة عشر عامًا... قال لي متسائلاً كأنه يعاتبني بدلال:

- كيف تعرضين نفسك لإحراج كبير كهذا من أجلي؟ لقد مزقت ثوبك بسببي..

فأجبته بكلام كله عذوبة ورقة وحنان:

- فداك روحي ونفسي وليس ثوبي فقط، وما أساوي أنا بدونك؟! لقد تمزق قلبي قبل ثوبي وأنا أرى قدمك تنزف دمًا... تمنيت لو أن هذا الدم يسيل من نحري فدائًا لك يا حسن، فالموت معك ومن أجلك أرحم من العيش بدونك...

ـ آآآآآه... عزيزة... ما ألطف كلامك وما أعذبه، لم أكن أعرف أن لك قلب شاعر.

• • • •

ليس في القرية والسلف من لا يعرف بالحب الكبير الذي يجمع قلب عزيزة بقلب ابن عمها حسن، فقد قررت أسرتاهما حين ولدت عزيزة حجزها إلى حسن الذي يكبرها بأربع سنوات، بالرغم من وجود أختي سعدية التي تكبرني بثلاث سنوات وهي بذلك أصغر من حسن بسنة واحدة، هكذا جرت الأعراف وبعض العادات والتقاليد في أرياف وسط وجنوب العراق... فلانة محجوزة لفلان، وفلان لفلانة، هكذا وهم أطفال رضع لا يفقهون من حياتهم حتى اليسير اليسير.

حاول بعضهم خطبة عزيزة لنفسه أو لقريب له، وسرعان ما ارتطم بمواجهة هذا الأمر وعاد مرتدًا بعد سماعه "نهوة" (١) حسن على عزيزة، حتى زار عمي "جابر" والد حسن وأسرته بيت أخيه "حميد" والدي قبل أسبوع واحد فقط من وقوع حادث القتل الأليم الذي تسبب بفراقنا عن بعضنا سنوات طويلة متتالية.

---

(١) النهوة : اعتراض ابن العم سبيل خطوبة ابنة عمه من شخص غريب، مرفق عادة بالتهديد والوعيد... وأبناء العشائر عندنا يستجيبون لهذه النهوة ويمتنعون من خطبة المنهي عليها... وهذه من أعرافهم.

خلال الزيارة اتفقنا على إعلان الخطبة الرسمية في الأول من شهر رمضان القادم، على أن تتم مراسم الزواج والزفة يوم الخميس ثاني أيام عيد الفطر المبارك، تعالت الهلاهل "الزغاريد" في محيط الصريفة المبنية من الطين، وهذا هو الطين المخلوط بالتبن والمدعم بالقصب، والمسقوفة بمقاطع طولية من جذوع النخيل والسعف الجاف، واعتبر هذا الاتفاق خطوبة رسمية لنا، وبهذه المناسبة أنشدت أم حسن وأخواته مع أمي وأختي سعدية بعضًا من الأهازيج الشعبية المتداولة بمناسبات كهذه:

يا أمه غنيله...
يا أخته ارقصيله...
يا خالة هلهليله...
اليوم عرس الزين يا حبيبة فرحيله...
حسن خيال شهبه...
وعزيزة الكحيلة "الفرس الأصيلة"
كذلك...
عرس الزين، هيل وطش بالولاية
وأخرى...
هاي الرادهة، وهاي التمناهه
بنت العم لابن العم جبناهه.

(٤)

يمر الوقت على قريتنا بعد الحادث الأليم، دقائق وساعات ثقيلة ومتباطئة في مسيرتها كأنها أزمنة متباعدة غير متصلة مع بعضها البعض... سريعة في وقع إيقاعاتها وتسلسل أحداثها كأنها متراكمة بعضها فوق بعض يشدها عمق المصاب ، ويؤازرها التعنت ورغبات الانتقام، استنفر أهل القتيل "خلف" قواهم البشرية وهبوا منتشرين مسلحين بالقليل من الأسلحة النارية، وبالكثير من القامات والسكاكين والتواثي "الهروات"، يجولون أنحاء القرية ويقلبون أجزائها وكل زاوية فيها بحثًا عن من يجدوه من أهلي؛ ليقتلوه انتقامًا وثأرًا لمقتل رجل منهم، وقد تمكنوا بالفعل من اقتحام صريفة عمي جابر أبو حسن وإضرام النار فيها ، وحرق ما في داخلها بعد أن وجدوها خالية من سكانها.

توقع عمي حدثًا كهذا وسارع لإخلاء صريفته ونقل أهله وعياله إلى بيت عمي الآخر "كامل" ، الذي يعيش في قرية أخرى قريبة من قريتنا ، لكن الوقت لم يسعفه ولم يتمكن من إخلاء حظيرة الحيوانات ، فاستحوذ المهاجمون على ما في داخلها ، ثلاثة جواميس وثماني نعاج والكثير من الدواجن ،

دجاج وبط... استولوا عليها باعتبارها غنائم... كأنها غنائم حرب حللها الدين والأعراف العشائرية، بينما هي ليست كذلك.

ركن أهلي إلى السكينة والهدوء معتصمين بصريفتنا مدججين بأسلحتهم أيضًا، وعلى أتم استعداد للدفاع عن أنفسهم وعيالهم، كادت أرض القرية ترتوي بالمزيد من دماء أبنائها كما حدث في العام الماضي ، بدلاً من أن ترتوي بمياه الأمطار التي يصلي من أجلها أئمة المساجد في كل الأرجاء ، وصلاة الاستسقاء كل جمعة بلا فائدة ترجى... وها هي الغيوم السوداء تنقشع تدريجيًا، وولت هاربة كالمرات السابقة.

نعم... كادت أن تسيل الدماء لولا تدخل شيخ العشيرة علوان الحمد ، ووجهاء القرية وفي مقدمتهم في أمور كهذه "سهيل العطار" ، أغنى رجل في لواء العمارة، وأقدر عمره بأربعين عامًا أو أكثر بقليل، كان والده يملك حانوتًا للبقالة والعطارة في قريتنا ، ومن هنا جاء لقبه "العطار" ، قبل أن يبدأ بتجارة البضائع المهربة "القجق" بين العراق وإيران.

كان ينقل البضائع من لواء البصرة إلى الأهواز داخل إيران ويجلب بدلاً عنها ما شح وانقطع وجوده من البضائع في العراق، متعاونًا مع أقارب له هناك في الأهواز والمدن القريبة الأخرى المحمرة وعبدان، مات قبل عشر سنوات بلدغة ثعبان تاركًا لابنه سهيل ثروة لا بأس بها ولم يبلغ بعد الثلاثين سنة

من عمره، لكن سهيل هذا تمكن خلال العشر سنوات الماضية من توسيع تجارة التهريب متعاونًا مع بعض الأعوان والمساعدين لتشمل الكويت، فازدادت أمواله وتضاعفت ثروته وتوسعت أملاكه...

بالإضافة إلى الأراضي والإقطاعيات الزراعية التي يملكها في قريتنا والقرى المجاورة؛ والتي بمجموعها أكبر في سعتها من إقطاعيات شيخ عشيرتنا، يمتلك عقارات كثيرة في مركز لواء[١] العمارة ولواء البصرة، وأكثر من هذا في العاصمة بغداد، متزوج من ثلاث نساء، أوّلهن وأكبرهن ابنة عمه وتسكن في بيت مبني من الطابوق والإسمنت، هو أجمل وأكبر بيت في منطقتنا نسميه نحن بالقصر، وزوجة أخرى من آل السعدون، وهم من العوائل المعروفة على طول العراق وعرضه، ذوي سلطة وجاه وتسكن مدنية البصرة، والثالثة تسكن العاصمة بغداد، يقال إنها شقيقة وزير أو نائب في مجلس الأمة العراقي، ربطتهم معًا روابط ومصالح اقتصادية وتجارية ومشاريع معمارية، قبل أن تربطهم روابط المصاهرة وهو بذلك يملك بيتًا يأوي إليه أين ما حلَّ وارتحل.

---

(١) لواء: محافظة فيما بعد.

هو وحده يمتلك سيارة في قريتنا أمريكية نوع دوج أبو عليوي هكذا كنت أسمع باسمها ، وهو من القلائل المعدودين الذين يملكون السيارات في لواء العمارة ، وقد تقدم لخطبتي في صيف العام الماضي (١٩٥٠) لأكون زوجته الرابعة ، لكن خطبته واجهت الرفض من أهلي بسبب فارق العمر بيني وبينه هو في الأربعينات من عمرة وأنا في الرابعة عشر فقط من عمري، سأبلغه في الأول[1] من تموز القادم (١٩٥٢)، وكذلك الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين أسرتينا، كما إنه متزوج من ثلاث نساء... بنات ذوات... كيف يمكن لصبية صغيرة فلاحة ابنة فلاح أن تعيش بينهن وفي وسط كهذا ، وفوق كل هذا وذاك نهوة ابن عمي حسن المؤكدة والتي تحول دون اتمام خطبة كهذه.

سهيل العطار هذا ، محضر خير دائمًا... تجده يتوسط في حل النزاعات والخلافات بين الناس، في الكثير من الأحيان يتبرع ببعض أمواله لتقريب وجهات النظر بين المتخاصمين ، ومن محاسنه أنه يشارك القرويين أفراحهم وأحزانهم، تجده صاحب

---

(١) في زمن مرَّ على العراقيين، لا يسجلون مواليدهم الجدد في سجلات الدولة الرسمية ومن بينها النفوس العام يوم ولادتهم مباشرة خاصة بالقرى والأرياف، أصبح يوم ٧/١ هو يوم الميلاد لمن يجهل يوم ميلاده، وهكذا صارت هذه السمة الطاغية لأغلب العراقيين ومن بينهم المؤلف.

المبادرة النبيلة في عيادة مرضاهم، وحضور مجالس عزائهم، ويجبر خواطرهم ويشجعهم بلطيف كلامه، ويكرمهم من ماله بما تجود به يده حسب الحاجة والضرورة، وهو متواجد أيضًا في حفلات الزواج وختان الأولاد ، يهنئ ويبارك ويجزل العطاء، وهو على ذلك ذو شعبية واسعة جدًا في كل من القرى والنواحي ، حتى أن شيخ عشيرتنا فطن على ما هو عليه من حال في تدني شخصيته وانحدار سمعته ، فسارع إلى تقليد سهيل العطار والسير على خطاه على ذات المنوال ، حتى لا يفقد شعبيته لصالحه، لم يفشل لكنه لم يحقق ذات النجاح، وما زال الفرق بين الرجلين واسعًا وكبيرًا.

هو ليس كشيخ عشيرتنا يشغّل أمواله بالربا المحرم، ولا يجبر الناس على العمل بمزارعه بالسخرة، بل يعطي الأجر للعمال والفلاحين الأجراء ولو شحيح أحيانًا ولا بأس به في أخرى ، المهم يكسب حب الناس وودهم، فهو رجل محترم دائمًا له كلمة مسموعة مطاعة، يقوم له الناس ترحيبًا به وتحية يخطبون وده ويعرضون عليه خدماتهم بجد وإخلاص.

هذا لا يعني إنه خالٍ من العيوب ، وما الكمال إلا لله وحده سبحانه، من عيوبه إنه غضوب عصبي حاد المزاج، لا يعرف طريقًا للحلم إلا بصعوبة ومشقة بالغة، وإذا هدأ لا يعتذر ولا يصلح ما أفسدته عصبيته ، ويشتري الذمم دائمًا عن طريق

الرشوة للقرويين والفلاحين، الذين يتسترون على ممارسته في تزوير الوثائق الرسمية ويساعدونه في إتمامها ، والشهادة بالزور أحيانًا وانتهاء بضباط الشرطة ومراتبها في لوائي العمارة والبصرة معًا، وكذلك شرطة المخافر الحدودية تسهيلاً لعبور البضائع المهربة، ويقال والله أعلم إنه يستطيع الوصول إلى من هم أعلى من ذلك في درجات السلم الوظيفي، إذن هو صاحب سلطة وجاه ومال، مع كل ذلك الحب والاحترام يخافه الناس ويتجنبون إغضابه ، وبذلك جمع بين الحب والود والاحترام لشخصه والخوف منه والتودد والتملق له، إنه الجمع الغريب بين المتضادات والمتناقضات وصهرها معًا في بوتقة واحدة لشخص واحد، ترى كيف لسبيكة كهذه أن تتجانس لولا وجود مكمنها في باطن هذا المخلوق الذي يسمى الإنسان ، الإنسان أي إنسان بعقله وقلبه وضميره ولله في خلقه ما أراد وله بها حكمة... سبحانه.

● ● ● ●

اجتمع الشيخ علوان الحمد والوجهاء والسادة الجعفرية [١] ؛ وتمكنوا قبل غروب هذا اليوم من إقناع عائلة القتيل خلف بدفن جثة فقيدهم وإقامة مجلس الفاتحة وترك مهمة حل المشكلة على عاتقهم ، لأن القاتل والقتيل كلاهما من عشيرة واحدة وبطن واحدة [٢] وقرية واحدة ، بالفعل تم لهم ما أرادوا وتحقق المراد حين انتصبت صباح اليوم التالي خيمة العزاء وسط القرية ، وتصاعدت خارجها رائحة القهوة العربية مع رائحة الدخان المتصاعد من الموقد الخشبي ، وتمكن الناس من سماع آيات القرآن الكريم بصوت القارئ الشيخ محسن جميل القارئ الخاص لأهل القرية في حالات كهذه ، ومؤذن المسجد بنفس

---

(١) السيد الجعفري، وجمعها السادة الجعفرية، هو لقب لرجل ينتهي نسبة بالإمام السادس للشيعة الجعفرية هو الإمام جعفر الصادق أحد أحفاد اللإمام الحسين بن علي بن أبي الطالب عليهم السلام ، وغالبًا ما يعتمر السيد العقال العربي بالكوفية السوداء ويرتدي الدشداشة السوداء أيضًا حدادًا على جدهم الحسين، والسادة لهم قيمتهم المعنوية في المجتمع العراقي في الوسط والجنوب وكل المناطق ذات الأغلبية الشيعية الأثني عشرية، ولهم كلمة مسموعة ورأي مطاع وواجهة اجتماعية مقدمة، هم لا يمارسون أعمالاً في الغالب ويعيشون على ما يقدم لهم من هدايا وهبات من ناتج الأرض أثناء الحصاد ومن صيادي الطيور والأسماك {الخُمس}، الناس يقبلون أيديهم دائمًا وهم يصافحونهم دون اعتراض منهم بل يعبرون عن سرورهم باعتباره واجبًا مقدسا

(٢) العشائر في العراق تقسم إلى بطون على رأسها الشيخ، والبطون تقسم إلى أفخاذ وعلى رأسها رئيس فخذ، والأفخاذ تقسم إلى أسر وعوائل وتسمى أيضًا حمايل مفردها حمولة يرأسها شخص يسمى الكليط

الوقت، لأن القرية لم تعرف التيار الكهربائي بعد، والناس لم يتعرفوا بعد على أجهزة التسجيل الصوتي.

بدأ أهالي القرية والقرى المجاورة بالتوافد على مجلس العزاء، وهذه من خير شيمهم، وواحدة من أنبل أعرافهم، يحضرون مجالس الفاتحة سواء كان المتوفى منهم ولهم معرفة به وبأهله أو غريب.

انتهزت عائلتي الفرصة وحضروا مجلس العزاء، والدي برفقة عمي كامل وعمي جابر، يرافقهم الوجيه سهيل والسيد هاشم الياسيري وهو كبير السادة الجعفرية في المنطقة. هبَّ أهل القتيل "خلف" رحمه الله، والده وعمومته وأخواته لاستقبالهم والترحيب بهم، قدمت لهم فناجين القهوة العربية والماء البارد والسيجار من نوع غازي من دون فلتر، ذات علبة من الورق المقوى والملونة باللون الذهبي البراق العاكس للضوء، والتي تفتح وتغلق كالصندوق، وهذه واحدة من شيم أهلنا وأعرافهم النبيلة، شيمة احترام الضيف والترحيب به مهما كانت نوع العلاقة التي تربطهم وإياه، حتى وإن سال الدم بينهم، وإذا كان لابد من حساب وعتاب فذلك يأتي لاحقًا بعد انتهاء ضيافتهم وعودتهم سالمين إلى أهلهم وديارهم.

اكتمل نصاب الجلسة عند حضور الشيخ علوان الحمد الذي بدأ الحديث باسم الله والصلاة على محمد وآله وصحبه، وانتهى

بطلب العطوة [1] لأهلي ، رفض أهل القتيل منح العطوة أول الأمر ماطلوا ، تمنعوا ، ثم لانوا قليلاً ، فأكثر واضطروا بعد ذلك على الموافقة إثر ضغوط مورست عليهم من قِبل الحضور ، وهذه الأساليب المتبعة عند العشائر ، يبدأون بالرفض مرورًا بالمماطلة وأخيرًا الموافقة المشروطة ، والشرط هنا أن يسلم ابن عمي حسن نفسه إلى الشرطة ليقدم بعدها إلى المحاكمة حسب الأصول القانونية على أن يتم (فصّل) آل خلف حسب الأعراف العشائرية المتفق والمتعارف عليها.

وافق أهلي على تسليم حسن إلى الشرطة وعلى مبدأ الفصل ، لكن عمي جابر طالب بإعادة بناء داره المحروقة وإعادة ما نهب منه ، ثلاثة جواميس ؛ اثنتان حلوب والثالثة حامل على وشك الولادة ، وثماني نعاج معظمها حلوب ، والأخريات حوامل ، خصوصًا أن عمي فقير جدًا لا يملك من حطام الدنيا هذه مالاً غيرها ، فهم يبيعون الحليب ومشتقاته من قيمر وجبن وروبة "الخاثر" المصنع محليًا في دارهم إلى أهالي المدن

---

(١) العطوه : مهلة زمنية بين المتخاصمين من العشائر، يمتنع جميع أطراف النزاع خلالها عن القيام بأي أعمال عدائية أو حتى استفزازية ضد بعضهم البعض، فهذه أذن تشبه الهدنة بين الدول والجيوش المتقاتلة في عصرنا هذا، على أن أبناء العشائر يحترمون مدة العطوة ولا ينتهكونها ابدًا ففي ذلك سُبة وعار عليهم يترتب عليه عواقب سلبية وخيمة إلى درجة تجريد صاحب الحق من حقه.

والنواحي القريبة ، ويقتاتون على ما تدره عليهم من عوائد مالية قليلة بالكاد تكفيهم وتسد حاجتهم ، بالإضافة إلى صيد الطيور والأسماك.

رفض الطرف الآخر طلب إعادة ما تم سلبه وتعنتوا برفضهم، وأصرَّ عمي وتعنت بإصراره وكل طرف مدعومًا بإخوانه وأولادهم.

كادت المفاوضات تنحدر إلى هاوية الفشل وتعود إلى بدايتها ، إلى نقطة الصفر ، لولا اقتراح من السيد هاشم الياسيري بتأجيل البت بهذا الموضوع إلى جلسات قادمة وتعهد الشيخ علوان الحمد والوجيه سهيل العطار بالمساهمة المادية والعينية من خالص مالهم في موضوع التعويضات ، خصوصًا أن عمي جابر تعهد ألا يفصل أحدًا حتى يعود ما سلب، وهكذا تم الاتفاق على عطوة مدتها عشرة أيام تنتهي يوم ١٨ كانون الأول ١٩٥١ بعد صلاة العشاء.

تنفسنا بعمق ملء رئتينا ، وعاد كل منا إلى ممارسة حياته الطبيعية، يُقلب ما في داخله من رغبات صامتة بهدوء وحذر بانتظار ما ستسفر عنه الأحداث بعد عطوة الأيام العشرة، لكن الهموم ما زالت جاثمة على الصدور في نوبات قلق متواصلة تحت وطأة الإحساس بالخوف من الغد المجهول وما تضمره

الأيام ، كل ذلك ظل مسيطرًا على عقولنا ومشتتًا لأفكارنا وسالبًا لإرادتنا.

انشغل فكري بهموم وأفكار متقاطعة، متناقضة، عجيبة غريبة لها أسبابها بكل تأكيد ، وأصبحت وأمسيت وفي كل أوقاتي أسرح مع أوهامي أحيانًا وأحدث نفسي في أخرى وأتساءل بضيق وأسف:

- هل سأرى ابن عمي وحبيبي وخطيبي حسن مرة أخرى أم لا؟ كيف أراه ، ومتى ؟ وهل لي نصيب معه فيما تبقى من عمري ومستقبل حياتي؟

أحسست بتذمر ونفور من كل شيء ومن لا شيء، واختلطت عندي كل المشاعر والأحاسيس بحيث لم أعد أميز حسنها وسيئها، ولم أعرف كم من الوقت يمر بي كل مرة وأنا على هذه الحالة ، وهل عرف الناس بأمري وأنا أحترق وأذوب وأغرق بدموعي أم لا... كل مشغول عني بما هو فيه!.

(٥)

لا نستطيع أن نحرِّر أنفسنا ونعتقها من قيود الأحداث وتسلسل وقائعها، فنحن أقل من عبيد لها حين تفرض نفسها وتعلن عن وجودها قوية متجبرة طاغية.

في صباح يوم بارد قاسي البرودة؛ تسيَّده ليل شتوي طويل بدد هدوئه عصف رياح عاتية وأمطار غزيرة شديدة الوطأة على صرائفنا الواهنة المبنية من الطين، والمسقوفة بجذوع النخيل وسعفها الجاف... مر وهن من الليل وأنا على حال بين اليقظة والنوم... وهن من ليل طويل لم أستطع النوم فيه بهدوء، وما هي إلا إغفاءة قصيرة سرقتها في غفلة، وإذا بأحلام بل كوابيس تطاردني لتستردها مني، كوابيس تنبثق من بحر الظلام، تنهال عليّ، كثيرًا ما شاهدتها على مسرح أوهامي، تكررت لتطرق أبواب جفوني تباعًا حتى سلبتني لذة النوم والراحة بعد تعب الأيام الماضية وجهدها.

فتحت عيني في ذلك الصباح الذي لا إشراقة للشمس فيه، فوجدت نفسي أعد الأيام والليالي عدًا على أصابعي... أحسبها وأضع لأحداثها التواريخ... سبعة أيام بنهارات ولياليها مرَّت وانقضت منذ وقع الحادث وبقي ثلاثة أيام فقط على مدة العطوة التي لا ندري ما سيحصل بعدها.

منذ ستة أيام بدأ عمي جابر بإعادة بناء داره مرة ثانية لينهار من جديد تحت وطأة الأنواء الجوية السيئة.

ومنذ أربعة أيام انفض مجلس الفاتحة، وقبل ذلك بيوم واحد سلم ابن عمي حسن نفسه إلى مركز الشرطة في مركز لواء العمارة، وهو الآن معتقل هناك يخضع للتحقيق والمساءلة قبل إحالته إلى محكمة جنايات لواء العمارة.

منذ ثلاثة أيام بدأت الأمطار الغزيرة بالهطول فاشتدت الريح العاصفة وزادت برودة الجو، وكأن الشتاء ماردًا جبارًا ولد توًا وأن عمره سيطول إلى الأبد، إلى ما لا نهاية.

أمطار غزيرة لم أشهد لها مثيل طيلة عمري، حتى والدي والذين هم أكبر منه سنًا يؤكدون إنهم لم يشهدوا أمطارًا غزيرة كهذه... حتى أن الأرض امتلأت بالسيول الجارفة، وانتشرت الأوحال الثقيلة والمياه في كل مكان، وأصبح من العسير علينا المرور في الطرقات واختراقها والتمييز بين مياه الأمطار الجديدة وحدود مياه الأهوار والمستنقعات الراكدة والأزلية في وجودها وركودها.

خلال ثلاثة أيام جرفت مياه الأمطار أربعة صرائف في قريتنا وحدها، ناهيك عن القرى الأخرى بعد أن هدمتها الرياح الشديدة المؤازرة والمرافقة لها، تداعت ولم يتبقَ منها إلا آثار بناء كانت شاخصة. كما انهار عدد من الصرائف، وها أنا أرنو

إلى أطلالها، تضررت الكثير من الصرائف الأخرى وحقول الحبوب ومزارع الخضروات بأضرار متفاوتة، الكثير منها نالها الدمار الشامل.

شحَّت الأمطار عامين متتاليين، وتأخرت كثيرًا في عامها الثالث هذا بحيث لم يعد منها فائدة ترجى، وحين أمطرت..... يا الله كأن السماء انفتقت وخرت مياهها المخزونة مدرارًا دفعة واحدة، فدمرت وأغرقت وأهلكت، أضرت بنا حين انحبست وانقطعت عنا، وأضرت بنا أكثر وأكثر حين جاءت متأخرة غاضبة وعلى عجلة من أمرها.

وهكذا... ويلات ومصائب تصيبنا نتيجة للتطرف والغضب وعدم الانضباط والتعقل في تصرف الطبيعة... وتصرفاتنا نحن البشر!

● ● ● ●

- عزيرة... يا عزيزة... عزيزة...

أسمع أمي تناديني، لا أدري ما الأمر... قمت واقفة بارتباك وأنا أبذل ما بوسعي بذله من جهد كي أتمالك خلجات عواطفي وانفعالاتي وما يجيش به صدري، وأتغلب على ضعفي الجسدي... مضت فترة صمت وجيزة لم أسمع خلالها إلا حفيف سعف النخيل تتلاعب به الرياح وخشخشة سعف سقف

الصريفة المبعثر الجاف.. وجدت أمي أمامي وجهًا لوجه، لم أتفاجأ بها لكنها لمحت احمرار عيناي واسوداد جفونها...

- صباح الخير يا عزيزة.

أدت أمي تحية الصباح لسانها نطق بها وأنا أعلم؛ بل على يقين تام أن في قلبها كلام كثير... أعدت عليها تحيتها بأحسن منها وأنا أحاول تقبيل يدها التي سحبتها مني معترضة:

- صباح النور يا أمي العزيزة... نعم يا أمي ما الأمر؟

قالت وهي تتنهد وعلى وجهها مسحة من الأسى:

- اسمعي يا عزيزة أحوالك ليست على ما يرام هذه الأيام، عليك الانتباه والاهتمام بنفسك أكثر...

- يا أمي... يا أمي... أأأأأنــ...

حاولت أن أتكلم... قاطعتني، منعتني من الكلام بعد أن لاحظت ارتباكي وتلعثمي في الحديث، قالت وهي تخفف عني وتطيب خاطري ولم تنسَ كعادتها أن ترفق كلامها بابتسامة خفيفة:

- أفهم ما يدور بخاطرك وما تضمره نفسك وما تفكرين به، لكن عليك بالصبر يا ابنتي، علينا بالصبر جميعًا، والله مع الصابرين... فحوادث كهذه وما يجري بعدها تضر بنا جميعًا ولستِ أنتِ وحدك...

أرخيت عنقي وأسبلت رأسي مطأطئة انظر إلى الأرض محاولة أن أخفي عن أمي دموعي، بينما استرسلت هي تتابع حديثها:

- نحن نقدر مصابك أنت بالذات، على الرغم من أن مصاب المرحوم خلف الذي فقد حياته وخلفه أهله، ثم مصاب حسن الذي فقد مستقبله والذي سيقضي معظم سنوات حياته في السجن، مصابهما الأكبر... لكن ماذا علينا أن نفعل ما دمنا لا نستطيع إعادة عجلة الزمن إلى الوراء، لقد لاحظ أبوك وإخوانك اضطراب أحوالك، طلبوا مني أن أهدِّئ من روعك، وسأعمل مع أختك سعدية على مساعدتك.

قلت وأنا لا أستطيع أن أخفي جزعي:

- شكرًا لك يا أمي... شكرًا لكم جميعًا...

- الآن يا عزيزة علينا أن ننتهز فرصة توقف الأمطار عن الهطول وانقطاعها ونبادر بسرعة إلى تجفيف الأرض داخل الصريفة وترتيب أثاثها... لقد سبقتني أختك سعدية إلى العمل، أما أخواتك وأبوك فقد صعدوا إلى السطح لإعادة ترتيبه وسد الثغرات التي فتحتها المياه، إنهم يرجون أن تمهلهم الأمطار مزيدًا من الوقت حتى يتمكنوا من إنهاء عملهم.

تابعت أمي حديثها وآثار الأسى والألم واضحة على تقاسيم وجهها:

- مسكين هو عمك جابر وعائلته؛ منذ ستة أيام متتالية يعملون ليل نهار لإعادة بناء صريفتهم هو وزوجته وأولاده، وبمساعدة مستمرة من والدك وأخواتك وعمك كامل وأولاده... الجميع يعمل من شروق الشمس حتى غروبها، ستة أيام متواصلة من العمل لثلاثة عشر شخصًا... وفجأة جرفت مياه الأمطار كل شيء... وذهب عملهم هباء وبساعات قليلة، والآن عليهم العمل من جديد.

استدركت وكأني أقدم النصح والمشورة الصحيحة:

- ولكن بعد التأكد من توقف الأمطار يا أمي.

- نعم... نعم... إن شاء الله.

• • • •

اليوم هو السادس عشر من كانون الأول ١٩٥١، مازال الجو باردًا جدًا والأحوال الجوية سيئة للغاية، ومازالت الرياح سريعة على عجلة من أمرها، والأمطار تهطل على هيئة زخات قوية وسريعة بين الحين والآخر، وهي بذلك أهدأ بكثير من تلك الأيام القليلة الماضية، حيث خفت سرعة الرياح عما كانت مع قلة الأمطار، والشمس ترسل دفء حرارتها مع شعاع نورها بقوة وجرأة أكبر وبصورة أفضل، نهض الناس بهمة ونشاط لإصلاح ما لحق بمزارعهم وصرائفهم من

أضرار، ويتفقد بعضهم البعض، لكن الأراضي، الديم المعدة سلقًا والمنثورة بالحبوب تضررت تمامًا وليس من أمل في إصلاحها، ولا فائدة ترجى من محاولة إصلاحها، لقد جرفت مياه السيول ما تبقى من بذور منثورة بعد أن أتت الطيور سلقًا على الكم الأكبر منها، وذهب ما تبقى إلى الأراضي المنخفضة وحافات مياه الأهوار... ضاعت جهود الفلاحين المساكين هباءً منثورًا.

(٦)

ستنتهي فترة العطوة عند نهاية نهار هذا اليوم، وعلى أطراف النزاع الاجتماع في مضيف الشيخ علوان الحمد بعد صلاة العشاء مباشرة، هكذا أبلغنا الشيخ علوان مساء الأمس... زار بيتنا وكان في استقباله بالإضافة إلى والدي وأخويِّ - مازن وماجد - عمي شاهر الذي تربطه بالشيخ صداقة حميمة قديمة، وأواصر حب واحترام متبادل، عمي شاهر الذي وصل بيتنا بعد ظهر الأمس برفقة أكبر أولاده عبد الرحمن قادمًا من مدينة البصرة حيث يعمل ويسكن هناك مع أسرته، وهو أكبر أولاد جدي "سباهي" عمرًا، متزوج من زوجتين أنجبتا له خمسة أولاد، ثلاثة منهم متزوجون، وله أربع بنات، اثنتان منهما متزوجتان، وهذا يعني أن لعمي شاهر اثنتان من البنات لم تتزوجا بعد.

عمي شاهر هو الوحيد الذي يقرأ ويكتب بين إخوانه، وكذلك أولاده وأحفاده الكبار هم وحدهم المتعلمون في المدارس من أولاد أسرتنا الكبيرة، وقد قطعوا أشواطًا كبيرة متقدمة في هذا المجال مقارنة بمستويات التعليم آنذاك والأمية المستشرية على عموم البلد، وليس على مستوى الأسرة فقط في ذلك الوقت، هو وحده من له أولاد يعملون في سلك الدولة، فأصغر أولاده

(وليد) نائب ضابط في الجيش العراقي والأكبر منه (سعيد) معلم في مدرسة الفيصلية[1] الابتدائية.

وعمي شاهر متمكن ماليًا واقتصاديًا فهو أكثر إخوانه ثراءً، لكنه ليس بذاك الغنى الذي قد تتصوره، فهو يعمل في تجارة التمور والفاكهة، يشتري التمور من الفلاحين وأصحاب البساتين في ألوية البصرة والعمارة والناصرية، وينقله ويوزعه إلى جميع أنحاء العراق، يقضي الشتاء بأكمله في التفاوض مع أصحاب البساتين حول أسعار التمور والكمية والنوعية... كل نوعية من التمر والتي تزيد أنواعها المهمة على ٢٠٠ نوع لها سعرها المختلف عن النوعيات الأخرى... وكلما زادت الكمية المطروحة أو التي يرغب عمي في شرائها يقل السعر، أعني أن هناك علاقة حسابية عكسية ما بين السعر والكمية تسمى العرض والطلب، وغير ذلك من أمور التجارة، ويوقع معهم العقود تجنبًا لتقلبات الأسعار أو منافسة مفاجئة وشديدة من قبل تجار آخرين، والذين يعملون في تجارة التمور مثله... ولتغطية نفقاتهم وحاجياتهم المالية أثناء الموسم

---

(١) الفصيلية : من نواحي البصره اشتقت أسمها من اسم ملك العراق "فيصل" سميت في ما بعد "بالجمهورية" وفيها جانب يسكنه أبناء الطائفة الصابئية المندائية. تسمى محله الصائبة وهي ذات المحله التي ولد فيها المؤلف أواسط الصيف ١٩٥٤

الزراعي وقبل جني المحصول يدفع الكثير من الأموال إلى الفلاحين مقدمًا على سبيل العربون، وفي منتصف الصيف عند الموسم يسدد المبالغ المتبقية ، يستأجر الشاحنات الكبيرة "اللوريات" وينقل التمور إلى كافة أنحاء العراق ، وخاصة العاصمة بغداد وكذلك الموصل ومناطق كردستان الجبلية في أقصى شمال العراق ، ولا تعود شاحناته فارغة في طريق العودة من هناك إلى ألوية الجنوب الثلاثة ، بل تعود محملة بالمنتجات الصناعية والزراعية المنتجة في المناطق الشمالية والوسطى من العراق ، مثل المكسرات "الكرازات" والجوز واللوز ، وكذلك الفاكهة مثل العنب والتين من مناطق كردستان والموصل ، البرتقال والرمان من مناطق بعقوبة ومندلي ، السمسم والذرة من كركوك والرمادي ، الرقي والبطيخ من الموصل وسامراء وغيرها من هذا وذاك. الكثير الكثير من الخيرات والنعم والبركات التي منَّ بها الله المعطي الوهاب سبحانه وتعالى على عراقنا الحبيب [١].

• • • •

---

(١) في حقيقة الأمر، حين نتطرق في الشرح عن شاهر وشخصيته وعمله بهذا الشكل لا نقصده هو بالذات بل بقصد طرقنا وبوضوح للحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة في العراق آنذاك من خلال صفات وممارسات وأعمال أبطال الرواية ، وهذا هو الحال مع الشيخ والوجيه والسيد.

أدَّى جميع من في البيت صلاة العشاء وانتظرنا برهة من الزمن قبل أن تمتلئ صريفتنا الصغيرة بالرجال، ليس من أحد غريب؛ هم عمومتي واثنان من أخوالي وهم بذات الوقت أولاد عمومة والدي، وثلاثة آخرون تمكنت من مشاهدتهم، هم أولاد عمومتهم أيضًا والتي تقتضي عليهم الأعراف العشائرية والأسرية التضامن والتضافر مع أولاد العم.

بالحقيقة ظل والدي منذ بدأت المحنة يمتدح عمومته وأولادهم الذين أبلغوا عمي شاهر باعتباره "كَليط"[(١)] العائلة استعدادهم التام في مشاركتهم وتحمل كل النتائج السلبية معهم ، ومؤازرتهم في العواقب الناتجة عن حدث كهذا.

أربعة عشر رجلاً بالتمام والكمال ، تُرى هل تمكن الطرف الآخر من جمع مثل هذا العدد من الرجال أم أكثر ، هذه هي عادات أهلنا وتقاليدهم، جمع أكثر وأكبر عدد ممكن من الرجال في مواقف وظرف كهذا ، هيبة وعزة ورفع رأس وكذلك لإرهاب الخصوم أثناء المنازعات... نعم... أربعة عشر رجلاً تجمعوا رويدًا وببطء ، واحد إثر آخر ، وزوج بعد زوج ، وخرجوا مسرعين دفعة واحدة ، كسرب من الطيور تتجمع

(١) الكليط : كبير العائلة ووجيهها، هو الواجهة والمقدم أمام العشائر والأسر الأخرى، ليس بالضرورة أكبرهم عمرًا لكنه يمتاز بالحكمة ورجاحة العقل والصبر والشجاعة والكرم، ذو كلمة مسموعة لمن هو كليط عليهم.

طيرًا بعد آخر وطاروا دفعة واحدة وفرغ المكان منهم. خرجوا يتبعهم دعاء أمي بالسلامة والنجاح والتوفيق، اسم الله الحافظ الستار عليكم وعين الحسود فيها ألف عود وحفنة أخرى من بديع الدعاء ولطيفه، ولم تنسَ أن ترش خلفهم ـ طاسة ماء ـ(١) ومحروسين بسور سلمان بن داوود يحفظكم ويرعاكم، وأخيرًا قراءة المعوذتين.

• • • •

ساد صمت مهيب أرجاء صريفتنا الصغيرة المتواضعة وسط هدوء تام، لا حركة، لا همسة منا نحن الأربعة اللائي تخلفنا بها... أنا، أمي، أختي سعدية وعمتي أم حسن، صمت شامل وتام حتى تخيلت أن لأنفاسنا وهي تتهدج لحن مسموع كعزف الموسيقى بالاشتراك مع طنين بعض الذباب، وللقليل من النمل دبيب كقرع الطبول، وهكذا عمدت أمي وعمتي إلى الهدوء والسكون طلبًا لبعض الراحة بعد جهد مضني امتد من قبل صلاة الفجر وطيلة النهار حتى هذه اللحظة ونحن بعد صلاة العشاء، أداء كم هائل من الواجبات والأعمال البيتية.

---

(١) من عاداتنا في الريف والمدنية، رش الماء خلف المغادر من أحبابنا، ورمي سبع حصوات أو أحجار خلف من لا نرغب تيمنًا بسيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام.

تنظيف زريبة الجاموسة الوحيدة التي نملكها "جمع السرجين"[١] كنس المكان وتنظيفه بالماء الحار ، واستبدال العلف القديم بآخر جديد ، ثم حلبها لإعداد حليب طازج وساخن على مائدة الإفطار جمع وقشط القيمر من حليب أمس المبرد ، بعد ذلك طحن طحين التمن "الرُز" لعمل "السياح" [٢] الذي يخفق البيض فوقه وهو حار على "التاوة" [٣] أحيانًا وحسب الرغبة ، ثم إعداد الشاي وتحضيره على الطريقة العراقية المعروفة والمميزة على ما تبقى من جمر المطال ، كل هذه الوجبة للإفطار فقط... ثم وضع الخثرة "خميرة اللبن" على ما تبقى من حليب لعمل الروبة[٤] استعدادًا لوجبة العشاء الدسمة والتي يفضلها أهل الريف عندنا ، وحتى أهل المدن من أصول ريفية وتسمى (الأيدام) ، حيث يطيب تناولها بالرُز العمبر المقلي بالدهن الحر المستخرج من الروبة المخضوضة

---

(١) السرجين : براز الجاموسة والدواب الأخرى.

(٢) السياح عجينة شبه سائلة من طحين التمن "الرز" يصنع منها خبز لذيذ الطعم وطيب المذاق مثل خبز السياح الخفيف والأثخن منه رغفان الرصاع والطابق الخير الأثقل والأثمن والأكبر حجمًا.

(٣) التاوة : الطاوة، الصاجة التي يسوى عليها الخبز وتصنع من الحديد في الغالب، محدبة الشكل نحو الأعلى توقد النار والحطب تحتها، يصيب عليها السياح وهي ساخنة جدًا.

(٤) الروبة : اللبن الخاثر، غليظ شديد التماسك مع بعض الحموضة في المذاق.

بالكطينة[1]، لا يجب أن تخلو وجبة كهذه من التمر الخستاوي الطازج صيفًا ، والمحبوس (المكبوس) مع بعض السمسم والحبة الحلوة شتاءً في صفائح تسمى التنكة أو خوص السعف وتسمى "الحلانه" أو مع الفجل الأبيض بالأوراق الخضراء.

وبين وجبة الإفطار ووجبة العشاء بالتأكيد تقع وجبة الغداء وتحدث عنها بلا حرج ، لهذه الوجبة استعدادتها الخاصة بها كأنها طقوس مقدسة ، تحتوي على الخبز الحار حيث يجب تجهيزه يوميًا ويصنع من طحين التمن أو الشعير أو طحين الحنطة في أكثر الأحيان ويسمى خبز التنور... الأسماك هي المادة الأساسية والرئيسية في هذه الفترة وتناولها شبه يومي تقريبًا وبلا ملل منها ، لوجود العديد من الوصفات في ريفنا الجميل تستطيع ربة البيت الماهرة والشاطرة إعدادها منها ، خصوصًا ونحن نستطيع الحصول على أفضل أنواعها مجانًا...

---

(١) الكطينة : القشرة الخارجية السمكية والقوية لثمرة الشجر الأحمر "القرع" بعد تجفيفها طويلاً تحت الشمس، برأس مفتوح من الأعلى (فوهة) تنظف بطنها جيدًا، تربط من رقبتها بطرف حبل لربط الطرف الأخر بعمود أو أي جسم ثابت، يبدأ برجها بقوة ليتحول الروبة بداخلها إلى لبن زبادي سائل ويتجمع الزبد العربي المشهور والفريد من نوعه على سطح اللبن ويجمع بعد ذلك على حدة... يستعمل السكة في وسط وشمال وغرب العراق بدلاً عنها، وهذا هو جلد المعز أو الحمل الصغير، يدبغ وينظف جيدًا وتشد أطرافه الأربعة "تغلق" ويستعمل بذات الطريقة، وطعم اللبن والزبد المستخرج من الكطينة أطيب وأرقى من ذلك المستخرج من السكة.

نعم مجانًا من خيرات الأهوار والمستنقعات والأنهار الكبيرة والجداول الصغيرة التي تحيط بنا من جميع الجهات ، ولها السمة الأساسية للتضاريس الأرضية المميزة لجغرافية المنطقة مياه تغص وتجود بما لا يعد ولا يحصى من أنواع الأسماك وبمختلف الأحجام.

وبعد الانتهاء من طعام الغذاء تدور صواني الشاي المهيل (بالهيل المطحون)، وبعد ذلك حملة تنظيف الأواني والصحون وتنظيف أرض الصريفة وترتيب الأثاث... ولم يقف الأمر على هذا النحو... فعند المساء يحين موعد طحن الحبوب استعدادًا لخبز اليوم التالي باستعمال الرحة، وهذه مصنوعة من حجر الصوان الثقيل جدًا بحيث لا أستطيع حمل حجر واحد منه بمفردي.

وأعمال المرأة الريفية وواجباتها لا حصر لها، متعددة داخل البيت وخارجه بالإضافة إلى واجباتها المنزلية، فهي زوجة وأم، مربية وفلاحة وراعية للحيوانات(١).

---

(١) ليس ما ذكرناه عن ما دار في بيت عزيزة من أجل عزيزة وحدها، بل هو مدخل يطلع منه القارئ الكريم على ما يدور في البيت الريفي وواجبات المرأة الريفية والمطبخ الريفي والآلات المستعملة... بهدف ألا تنسى الأجيال اللاحقة أمورًا كهذه نتيجة تراكمات الإهمال واللأمبالاة والهجرة... لذلك كانت رغبتنا أن نُحيي ذكريات الريف وعاداته وتقاليده وأعرافه.

وواجبات البيت لا تقوم أمي وحدها بها، بل ذلك يتم بمشاركة مباشرة وفاعلة من قبلي وأختي سعدية.

• • • •

وهكذا ساد الصمت والهدوء أرجاء كوخنا المتواضع الصغير وركنت أمي وعمتي للاستراحة، إنها استراحة المقاتل الذي ارتمى بين أحضان السكينة والهدوء بعد خوضه معركة حامية الوطيس ضد عدو قوي شرس صعب المراس بعيد المنال... عدو اسمه الواجبات البيتية اليومية، دون أن تنتهي المعركة معه إلى منتصر أو مهزوم ولا تبدو لها نهاية، فما زال العدو يتكرر وجوده كل يوم، ومازالت المعركة مستمرة ضده أيضًا كل يوم ما دامت أعباء الحياة اليومية قائمة ومتكررة.

شعرت بوحشة الهدوء، وحشة امتلأت بها نفسي وروحي، وانتابتني مختلف الأحاسيس والمشاعر والأفكار المتقاطعة وهي تتصالب متناحرة داخل رأسي الصغير، وفي داخلي رغبة صامتة في كسر طوق هذا الصمت، بادرت إلى الحديث، أي حديث حتى لو كان هذرًا وثرثرة وسألت سؤالاً يعد تافهًا:

- إلى أين هم الآن ذاهبون؟.

ردت أختي سعدية بخبث بائن من نظرة عيونها وهدوئها... وكأنها حزرت ما أقصد:

- أيـ يـ يـ يـ ي... يعني ألا تدرين حقًا إلى أين هم الآن ذاهبون؟!.

ثم تابعت حديثها بوجه لم أستطع قراءة ملامحه:

- إلى سهيل العطار، ثم إلى السيد الجعفري ليكونا جاهًا لهم قبل دخولهم مضيف الشيخ علوان الحمد...

أخذتني صفنة عميقة، وسرقتني سرحة بعيدة سرحت بها بحيث لم أنصت وأنتبه إلى ما قالته وفعلته أختي، حتى شعرت بسبابة يدها اليمنى وهي تنغزني مدغدغة صرتي، انتبهت مرتبكة مذهولة على قولها:

- إحم... إحم... نحن هنا... إلى أين طارت حمامة أفكار أختي الجميلة؟!.

لم أبالِ بها وأهتم لها، عدت إلى صمتي وسرحاني مع أفكاري المتقاطعة مرة ثانية أعوم في بحر رغباتي الصامتة الذي لم تثر عواصفه بعد، وما زالت أمواجه هادئة... غادرت دون أن أجيبها، تركتني وذهبت إلى حال سبيلها إلى حيث لا أدري متى وأين ذهبت، اختفت هكذا من أمام نظري وكأنها تسامت فجأة في الهواء.

(٧)

التأم مجلس العشيرة داخل مصيف الشيخ علوان الحمد... انعقدت جلسته الساخنة بعد اكتمال النصاب ، كان من المفروض أن يعقد مجلس الفصل في بيت الضحية أو المتضرر ، لكن الشيخ علوان اقترح أن يعقد المجلس في مضيفه لأنه شيخ العشيرة التي ينتمي لها طرفي المشكلة ، وكذلك لأن بيت غافل درويش وهذا هو اسم والد المرحوم خلف لا يتسع لهذا العدد الكبير من الحضور... بل إن كل صرائف القرية ليس فيها صريفة واحدة تتسع لهذا العدد الهائل من الناس، عدا مضيف الشيخ ومضيف الوجيه سهيل العطار ، والحضور هم أهلي وعددهم أربعة عشر رجلاً يضاف إليهم سهيل العطار والسيد (هاشم الياسيري)...

وطرف النزاع الآخر غافل درويش وإخوانه وأهله وأولادهم، وما رافقهم من جاهة وسيد جعفري وهم بالتأكيد بعدد يقارب عدد أهلي أو ربما يزيد عليهم، إذ أن من عادات العرب ـ كما أسلفت سابقًا ـ يحضرون أكثر ما يمكن من أناسهم ورجالاتهم الأشداء عزة لهم وإرهابًا لخصومهم ، هذا كله يضاف عليه وجوه العشيرة ووجوه العشائر الأخرى ، والذين يطلق عليهم تسمية "محضر خير".

اكتظ المكان بالفلاحين وأبناء القرية وضاق بهم على سعته، ولم يعد من متسع به، بينما ظل الشباب اليافع توًا والصبية مثل ابن خالتي أحمد ومن بعمره واقفين عند باب المضيف وحوله؛ يتابعون وينصتون باهتمام ويشاهدون ما يجري عن قرب، بين وهن من الوقت وآخر يقفز أحدهم جريًا كأنه حمام زاجل ينقل لنا وللصرائف الأخرى ما يجري ويدور داخل المجلس وأخباره أول بأول، برحلات مكوكية مستمرة بين المضيف وصرائف القرية، ولهذا أمست صورة ما يجري هناك واضحة لنا تمامًا، تعرفنا عليها وكأننا معهم فعلاً.

بدأ إمام الجامع الحديث بالحمد والشكر لله العلي العظيم والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه، والسلام على سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء، وعلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأولاده وأحفاده المعصومين، ثم قراءة سورة الفاتحة على روح المرحوم خلف وعلى من مات من المسلمين والمسلمات وبصوت مرتفع نوعًا ما، ولم ينسَ الحسين بن علي عليهما السلام، ثم تبعه شيخ العشيرة الذي أثنى بالمديح ولطيف الكلام على محاسن وفضائل كل من المرحوم خلف وابن عمي حسن ذاكرًا كل منهما بأطيب ذكر، باعتبارهما خير شباب القرية والعشيرة وأحسنهم خلقًا وأعلاهم أدبًا، وأن ما حدث بينهما لا يعد غير حادث طارئ ومفاجئ، حدث عابر أذهل

الجميع، إذ لا يمكن لشخص مثل حسن الشاب الدمث الأخلاق ذو العقل الراجح والهادئ بطبعه والمطيع والعطوف على الصغير ومعين العاجز ومساعد الضعيف أن يكون قاتلاً لصديقه ورفيقه خلف، وبأسلوب كهذا الأسلوب، وخلف المرحوم لا يقل عنه أدبًا وخلقًا وسجايا وشيمًا كريمة، لكن لعنة الله على الشيطان الرجيم في لحظة غضب خاطفة فَقَد سلفنا وعشيرتنا أفضل وخيرة شبابها نتيجة حادث لم يحسب له حساب... ثم دعاهم جميعًا للتكاتف والتأزر والتسامح وبذل المحاولات المخلصة لتجاوز المحنة... خطبة عصماء لشيخنا ليس لها مثيل، رجل مع بعض المحاسن البارزة وسط زحمة المساوئ!

• • • •

وردنا سيل دافق من الأخبار، الأخبار السيئة، والسيئة جدًا أخبار غير مطمئنة مدعاة للحيرة والقلق...

بعد إصرار غافل درويش ومن خلفه إخوانه وأولاده وأولاد عمومته أن يكون فصّل "ديه" ولده المرحوم "خلف" سبع بنات باكرات، مع مبلغ "ثلاثون دينارًا"، وهي كلفة مراسيم دفن الجنازة ومصاريف مجلس الفاتحة، هكذا حسبها غافل درويش وهذا المبلغ كبير، كبير جدًا في أيامنا السالفة، لا يمكن توفيره

بسهولة مطلقًا. واشترط علينا أن نهجر السلف والقرية ونهاجر خارج لواء العمارة [١]... بينما أصر عمي جابر على دفع تعويضات له عن حرق داره والاستيلاء على جواميسه الثلاثة والنعاج الثمان.

هه... يا للمأساة... سبع بنات بالتمام والكمال ، سبع بنات باكرات سبايا لم يتزوجن بعد!! سبع بنات بدمهن ولحمن وشحمن وعظمهن فصّل من أجل رجل واحد مات قتيلاً وبدون قصد ، في نزاع بسيطة أسبابه ، كان من الممكن أن يكون هو القاتل فيه! ليتزوجن بدون إرادة منهن سبع رجال عابوا وخابوا وسائوا في أغلب الأحوال ولن يفلت بعضهم عن صفات كهذه إلا ما ندر ، عابوا بعقولهم وأجسادهم الناقصة وخابوا بأعمالهم وأرزاقهم وساءوا في سمعتهم وأدبهم وأخلاقهم ، لو كانت فتاة قتيلة بقصد أو بدون قصد هل تكون ديتها سبعة رجال أم سبع بنات ، لا لا لا أبدًا ولا حتى سبع نعاج!.

ما أرخصك أيتها المرأة في مجتمعاتنا الشرقية! ما أرخصك وأبخس ثمنك، أليس هناك من ثمنٍ لديَّة رجل مات قتيلاً غير البنات السبع؟ مبالغ نقدية من المال، جمال، أبقار ، مواشي.

---

(١) في الحالات الصعبة كالقتل وانتهاك الأعراض يؤمر المعتدي بمغادرة منطقة إلى أخرى بعيدة، خاصة في الحالات المتعمدة، تجنباً لعواقب الثأر والعصبية.

ليست وحدها قوانين السماء من يؤكد على حقوق المرأة كإنسان بل حتى قوانين الأرض التي سنها وكتبها الإنسان نفسه، ونحن أصحاب الحضارات الإنسانية الأولى وعلى أرضنا ولدت أولى القوانين البشرية، وأرضنا أرض الأنبياء والرسل وعلى أديمها هبطت رسالات السماء، واليوم دستور الدولة العراقية الحديثة والقوانين المنبثقة عنه لا تغبن المرأة إنما تضمن حقوقها، أي قوانين وسنن اعتمدها أهلنا حتى صارت المرأة عندهم بخسة رخيصة إلى أدنى مستوى من أين لهم؟

كيف جاءت هذه الأعراف... وكيف ترسخت؟

كيف استنبطت وصارت هكذا فرضًا واجبًا؟

سبعة نساء سبايا بإرداتهن وإرادة أهلهن، على مرأى ومسمع الجميع، الجميع في هذا المجتمع الذي يحتقر الرجل فيه المرأة ويهين كرامتها ويسلب حقوقها، يحتقر المرأة ما دام يبيع ويشتري بها ويساوم كأنها بضاعة، غلال أو ماشية، بل إن المرأة أحيانًا وعند بعضهم أرخص من جاموسة يملكها.

فيما يلي سنعيش ومن الآن وبوضوح تام حالات ضحايا الأعراف الإنسانية ضحايا المجتمع الذي لا يرحم المرأة، المرأة الثمينة الغالية والكنز الذي لا يستطيع الرجل الاستغناء عنه إذا وعى واعتبر المرأة الملهمة، المرأة السند والعون، تعز وتُكرم في بيت أبيها وأهلها، يخاف عليها ويضحي من أجلها

لتكرم لرجل كريم من أسرة كريمة لا لرجل يظلمها ويهضم حقوقها ويقسو عليها.

المرأة عندنا تقدم هدية أحيانًا حين ينبرى أحدهم بلا أناة معتدًا بنفسه ، هذه ابنتي أو أختي ، جاءتك هدية... ما هذا الكرم الحاتمي؟ أليس عندك ما تملك غير ابنتك أو أختك لتقدمها هدية غير مصانة وغير معتبرة لشخص أعجبك فيه ما أعجبك من محاسن؟! على أفضل حال وأحسن تقدير لا أقول غير ذلك، ها هي اليوم تقدم ضحية على مذبح العادات والتقاليد الاجتماعية والأعراف العشائرية الممسوخة، سبية بلا ثمن، حتى السبية لها ثمن في سوق النخاسة، كفصّل عن حدث وقع صدفة أو نتيجة عجلة وتهور وعدم تروي ودون أي اعتبار للقوانين، إنه تقليد عرفي خاطئ تقليد أعمى مترسب عن عصور سالفة ماضية يجب نبذه والتخلي عنه ، إلى ما هو صالح وأفضل يواكب روح العصر ، أليس من المفروض في حالة كحالتنا هذه أن يذهب القاتل إلى العدالة؟.

ذهب القتيل إلى القبر بيته ومقامه الأخير ، ألا يكفي هذا وينتهي الموضوع كما هو الحال عند سائر الأمم والشعوب المتحضرة والمتمدنة ، أم نحن في وضع غير هذا! إذن لماذا البنات السبعة، الفصلية، أليس هذا احتقار للمرأة وانتزاع لحريتها؟[1].

(١) غايتنا التعريف بواقع المرأة، وكل ما نقوله ونكتبه حقيقة واقعة في مجمعنا

يهين كرامتها ما دام يضربها بقسوة ويشتمها لسبب تافه إن وُجد أو بدونه ، وكم تألمت ونزف قلبي دمًا وسال من عينيَّ دمعٌ ساخنٌ وأنا أسمع وأشاهد أبي وهو يهين أمي ويشتمها ويحط من كرامتها ، تصرفات كهذه صادرة عن أبي متى ما غضب أو تعكر مزاجه لسبب ما أو رغبة في إثبات رجولته أو إشباع شيء في نفسه وأشياء أخرى لا أعرفها ولا أفهمها ، يسبها ويشتمها يكيل لها أنكل الألفاظ وأقبحها وأرذلها وهي أصلاً بنت عمه ، نعم بنت عمه دمًا ولحمًا حسبًا ونسبًا قبل أن تكون زوجته وربة بيته وأم أولاده وشريكة حياته ومعينة على هذه الدنيا ، وما دام الأمر كذلك لعله يشتم ويهين نفسه دون أن يدري!

وهذا ليس في بيتنا وحده ؛ بل في كل البيوت عرفًا من تقاليدنا البالية ، أليس الرجال قوامون على النساء ؟! ، أسمع دائمًا جارتنا "شمخية" وهي تصرخ وتبكي ، أعلم حينها أن زوجها يمارس هوايته في ضربها ، أجد في اليوم التالي آثار الضرب واضحة كل الوضوح على وجهها الشاحب وجسدها النحيل ونفسها الحزينة.

في يوم قائظ الحرارة شاهدت جارتنا فخرية وقد تورم وازرق ما تحت عينيها بعد لكمة خاطفة تلقتها من قبضة الشجاع الصنديد زوجها ، من أبطال الملاكمة مع زوجاتهم ، وقد ربطت

ذراعها الشمال المكسورة إلى عنقها نتيجة تلقفها ضربة هراوة كادت تقع على رأسها ، هذا هو زوجها المغوار ، من سمح للرجال وأجاز لهم استعمال العنف بهذه القسوة وهذا الأسلوب المخزي ؟! من دافع عن فخرية وتطوع لحمايتها ورد الاعتبار لها وحاسب زوجها وعاقبه وقدمه للعدالة ؟ أليست هذه جرائم أمام العدالة ؟!

● ● ● ●

في ليلة اشتد ظلامها ، من أين اليسير من الضوء وقد تدثرت بدثار سميك من الغيوم السماء ، غيوم كانت قليلة عند الفجر تكاثرت عند ساعات الصباح الأولى وتكاملت عند ضحى ذلك اليوم وتثاقلت بعد الظهر ، في ساعات قليلة حجبت قرص الشمس وتلاشى وضح النهار وبدأ الليل مبكرًا ، غيوم كأنها جنود من الشياطين تلبدت بها السماء حتى أطبق الظلام الحالك واستبدت العتمة ونحن في عز النهار وفي منتصف الشهر الهجري القمري.

يا إلهي إنها الغيوم السوداء مرة أخرى ، كم أتشاءم منها ، أنا خائفة ، خائفة جدًا أتوقع حدثًا رهيبًا سيقع... فعلاً لقد كان لتخوفي وتشاؤمي ما يبرره ويؤكده دائمًا... في هذه الليلة حدث أن أبي ضرب أمي بقسوة الظالم الطاغي ، بالتأكيد لم يكن

قصده بث الحب في روحها والدفء في جسدها ويشيع في البيت أجواء الألفة والحنان الأبوي، خفت وجزعت وأنا أشعر بتفاهة هذا العالم وألمس حقارة الدنيا من حولي ، قررت الخروج إلى خارج الصريفة على الرغم من قساوة الطقس ورداءة الأحوال الجوية ، المتمثلة بالظلام الدامس والرياح العاصفة والبرد القارص ، خرجت وأنا أمسح دموع جارفة حتى أتجنب هذا السماع الشاذ وأشاهد هذا المنظر البشع ، هربت إلى الجهة الجانبية الجنوبية لصريفتنا ، أحتمى بها من الرياح الباردة المندفعة من الجهة الشمالية ، سمعت صوت الضرب والشتائم تنهال على جارتنا شمخية وهي تصرخ وتستغيث، فهرعت مسرعة إلى جانب الجهة الأخرى لأعتصم بصريفة جارتنا فخرية ، فسمعت ذات الحدث ، يا إلهي إنه يضربها ومازالت يدها تؤلمها ولم تشفى تمامًا منذ أواخر الصيف الماضي، تزاحمت في رأسي أفكار متقاطعة وتساءلت: "يا إلهي ماذا يحصل هذه الليلة؟ هل قامت القيامة؟".

كانت قعقعة الضرب تقع على مسمعي كوقع المطارق على رأسي ، ويترك وقعها الرعب في نفسي ، أصابني الخوّر وشعرت بانهيار قواي ، وانفجرت أبكي ، صرخت دون وعي مني، صرخات متتالية وأنا ألطم وجهي وأشد شعري بكل قوة، ليس من طريقة أخرى أجدها أفضل من هذه أعبر بها عن رغبات صامتة داخل نفسي المشتعلة، وما شعرت إلا وأنا في

حجر أمي وأختي سعدية ترش الماء على وجهي وتغسله لأستفيق، علمت بعدها أنني كنت في حالة إغماء، حضر أبي مسرعًا برفقة جارنا جواد زوج فخرية وجارنا سعيد زوج شمخية نحو مصدر الصراخ تاركين مهمة ضرب نسائهم مؤجلة إلى إشعار آخر، حملوني إلى داخل الصريفة.

ماذا حدث في هذه الليلة؟ هل قامت الحرب، حرب الرجال كل الرجال المعلنة على النساء، كل النساء؟ هل اتفق كل الرجال على ضرورة ضرب نسائهم هذه الليلة، احتفالاً باليوم العالمي لضرب المرأة الشرقية؟ لا أريد القول إنهم قساة جفاة أشرار، لكن فقط أريد القول لهم العادات والتقاليد فيها الرائع والحسن مر علينا ذكر الكثير منها، وأخرى سيئة، سيئة جدًا وهذه واحدة منها.

• • • •

إذا كان هذا هو حال المرأة الحرة الخارجة من بيت أهلها معززة مكرمة في زفة عرس شرقية صاخبة، طبولها غناءها أهازيجها بمهر مدفوع مقدمًا وآخر مؤجل، لعريس ابن حلال اختارته بنفسها ولو في حالات قليلة نادرة، أو ساقته لها القسمة والنصيب وهذا على الأغلب جريًا وراء العادات والتقاليد، إذا كان هذا حالها وبعصمة ابن عمها دمها ولحمها؛ فكيف هو حال

المرأة الفصّلية الخارجة كالأسيرة من بيت أهلها ، المأخوذة سبية بثوبها الذي عليها حيث كانت ترتديه بلا خطوبة ولا زفة شرقية صاخبة ، لا مهر مقدم أو مؤخر ، تخرج وعيون أمها تقوّم عثراتها بوابل من الدموع ، والنظرة الأخيرة مرفقة بصرخة من الأعماق لروح تحترق بلا نار موقدة ، فلا تجد غير أن ترد على دموع أمها بدموع ساخنة أكثر غزارة ورغبات صامتة وحسرة تخلف وراءها رمادًا لا تذروه الرياح ولا تجرفه السيول لمكمنه داخل الروح البشرية، كل هذا لأجل إنسانة بريئة حكمت عليها الأعراف وساقتها أقدراها إلى مصير مجهول ، تسير على قدميها وبطولها تحني رأسها مخذولة إلى قبرها لتدفن فيه وهي حية ترزق إلى الأبد... إلى ما شاء الله أن يمد بعمرها.

مكثت بعد هذا الحدث مريضة نحو ستة أو سبعة أيام، قضيت أربعًا منها طريحة الفراش لا أجيد حراكًا وليس في روحي همة ولا في جسدي نشاط ، ارتفعت درجة حرارتي كثيرًا لإصابتي بالأنفلونزا الحادة، بسبب تعرضي المباشر لتيارات هوائية باردة، فقدت شهيتي للطعام واكتفيت بالقليل من الحليب

والبحت[1] والمحمر[2] بجهود استثنائية من أمي وأختي سعدية حتى أتجاوز الأزمة والميل للسكينة والهدوء.

في اليوم الخامس على ما أذكر جاء ابن عمي وخطيبي حسن لزيارتنا وعيادتي، علمت بوجوده قبل أن أراه من خلال حديثه مع أختي سعدية حين استقبلته عند مدخل الصريفة، وقبل دخوله قررت مقاطعته وعدم التحدث إليه، وتمنيت في هذه اللحظة لو أن كل النساء قاطعن كل الرجال فلا يتحدثن إليهم، وليس هذا وحده وحسب، بل مقاطعة شاملة وكاملة كما سأفعل مع حسن، وكل أمنياتي أن تسعى الاتحادات النسوية في جميع العالم إلى جعل يوم عالمي لمقاطعة الرجل، حتى يتعرف بصورة واضحة ودقيقة على أهمية المرأة في حياته.

- صباح الخير يا سعدية يا بنت عمي الغالية...

- صباح النور يا حسن ابن عمي الغالي... أهلاً وسهلاً بك تفضل...

فقال مع بعض التلكؤ والتردد في حديثه:

---

(١) البحت : شوربة الحليب بالرز، غليظة القوام ثخينة نوعاً ما يضاف الهيل والحبة الحلوة كمطيبات

(٢) المحمر : شوربة الرز بدبس التمر وبعض السمسم والمطيبات وكلاهما يقدم للمريض كطعام أساسي وخاصة للمرأة عند النفاس كأول طعام تناوله بعد الولادة مباشرة.

- ســ... ســ.. سمعت عن مـ... مـ.. مرض عزيزة ورغبت في زيارتها والاستفسار عـ.. عـ... عن صحتها...

فردت عليه سعدية وهي مبتسمة وقد أدركت معنى تردده وارتباكه:

- تفضل... تفضل يا حسن... أهلاً وسهلاً بك... وهل أنت غريب ؟ أنت من أهل البيت ، كما أنك ابن عمها وخطيبها ، وسنفرح بكم قريبًا إن شاء الله...

ثم استطردت سريعًا قبل أن تترك له فرصة للحديث فقالت ساخرة:

- يعني ما كنت تزورنا لولا عزيزة؟ ها...

- لا يا سعدية لا تقولي هذا... لكن مشاغل... تعرفين نحن الآن في ذروة موسم الصيد وأماكن صيدنا بعيدة جدًا من هنا.

- ليكن الله في عونكم ويرزقكم...

ولج حسن باب غرفتي بعد أن تنحنح وطرق الباب حاملاً على صدره وفي كل يد من كلتا يديه كيسًا (أبو العانة)[1]، هذا على الرغم من أن سعدية سبقته إلى الوصول ودخلت الغرفة قبله

---

(١) العانة : عملة عراقية فئة أربعة فلوس كانت في العهد الملكي، وكانت ثمناً لكيس ورقي أسمر كبير وقوي لذا سمي (كيس أبو العانة). وفي العهد الجمهوري سمي كيس أبو الخمسة لأن العانة الغيث وحل محلها عمله من فئة الخمسة فلوس. و أذكر واحدة من أهازيجنا وهتافاتنا ونحن أطفال في شوارع بغداد "عاش الزعيم الزيد العانة فلس"، والزعيم هو عبد الكريم قاسم.

وأعلمتني بوصوله... كل هذا التحفظ وهو ابن عمي وخطيبي... وهو (من حبال المطيف) كما يقول المثل الشعبي العراقي ثم خرجت مباشرة بعد أداءه للتحية:

- صباح الخير يا عزيزة.

سكت ولم أرد عليه تحيته، بل وأشحت عنه وجهي إلى الجانب الآخر. عاد وقال وهو ينظر إلي من تحت الأفق برموش مسبلة وعيون منكسة:

- قلت لك صباح الخير يا عزيزة... يبدو أنك لم تسمعيني؟

قلت له ببرود وما زالت أشيح بوجهي عنه:

- صباح النور.

هدأ طويلاً، أذهلني هدوئه وأرعبني صمته وأدماني خجله هذا، صمت أكثر من اللازم المطلوب ثم قال وكأنه يعاتبني:

- ما بك؟ ما بك يا عزيزة؟ هل المرض ثقيل عليك؟ أم أنا هو الثقيل؟

وأنا ما زلت صامتة لم أرد عليه... أذهلتني قوتي، وأدهشني إصراري، هذا حسن وليس غيره، ليس أي شخص آخر، فقال وهو مازال يبحث بعينيه في وجهي كأنه يحاول أن يكتشف سر غامض فيه:

- أحضرت لك يا عزيزة كيس من برتقال بعقوبة اللذيذ وكيس كعك أبو السمسم، كنت مساء أمس في مدينة العمارة وتذكرتك،

أنا أتذكرك دائمًا ولن أنساك أبدًا... أنت قلبي وروحي وعقلي يا عزيزة...

ثم تابع حديثه باهتمام بالغ وقد جلس لتوه على كرسي قريب وتناول "استكان"(١) الشاي من يد سعدية:

- أنا أقدر سبب زعلك وغضبك ، لقد سمعت بما حدث... وأخبارك تصلني بكل تفاصيلها ثقي بي يا عزيزة، وأقسم بالله العزيز وقرآنه الكريم أنا لست كباقي الرجال الذين يضربون نسائهم، وأحلف بالعباس أبو فاضل أنني سأكون لك نعم الزوج وسأجلك وأحترمك، أنت ملكة قلبي وأميرة روحي يا عزيزة.

بدأت الدموع تجري مهرولة من عيني، فقلت له وأنا أحاول أن أحتفظ بهدوئي:

- شكرًا لك يا حسن، شكرًا جزيلاً.

فخرجت من قلبه تنهيدة عميقة ثم قال:

- سأغادر الآن يبدو أنك متعبة جدًا... لو شعرت أنك بحاجة لي فأنا حاضر في خدمتك ولن أتأخر عنك أبدًا ، وسأحاول أن أطمئن عليك دائمًا، دائمًا يا عزيزة... سنلتقي قريبًا إن شاء الله.

---

(١) الاستكان : مفردة لقدح شاي شائع الاستعمال في العراق ، تلفظ كلمة واحدة بينما في الحقيقة هي جملة من ثلاث كلمات في الإنكليزية تعني: قدح الشاي الشرقي est tea can.

وخرج حسن، تركني وخرج، ولن نلتقي بعد ذلك إلا بعد سنين طويلة، لقد وقع الحادث المؤسف بعد يومين فقط من زيارته هذه لي ودخل حسن السجن ولن تقع عيني عليه إلا بعد أن ينهي محكوميته "مدة سجنه".

- مع السلامة يا حسن.

قلتها وأنا أمسح دموعي بكلتا يدي.. وما أن خرج حتى دخلت سعدية إلى الغرفة وتحدثت بعصبية واضحة غير مألوفة فيها:

- ما بك يا عزيزة؟ لقد كنت قاسية عليه كثيرًا... ما هكذا تعاملين حسن، هو لا ذنب له، كما إنه يحبك كثيرًا...

قلت وأنا أغتاظ ألمًا:

- كلهم هكذا... كل الرجال هكذا، يقترب أحدهم إلى المرأة ناعم الملمس واللسان وما أن يتمكن حتى ينقلب إلى نمر مفترس...

فلم تستطع جوابًا، هزت رأسها أسفًا ويدها رفضًا وخرجت تتأفف.

(٨)

انفضَّ مجلس العشيرة دون أية نتيجة إيجابية تذكر ، في جلسة امتدت إلى ما بعد منتصف الليل وهذا ما لم يحدث من قبل أبدًا.

تشبثّ كل طرف من أطراف المشكلة بموقفه ، متمسكًا بقوة برأيه إلى حد التزمت ، أصر غافل درويش على مطالبه بمساندة ودعم من عائلته وفخذه في العشيرة[١] ، بينما رفضها أهلي واعتبروها كثيرة جدًا ومُبالغ فيها... كثيرة لحادث قتل عرضي غير مقصود ، طرفاه القاتل والمقتول من عشيرة واحدة ومن بطن واحد ، واقترحوا أن تكون لديه اثنتان من البنات فقط عوضًا من سبع ، وإلغاء مبلغ الثلاثون دينارًا نهائيًا فلا موجب له، أما شرط الرحيل من لواء العمارة إلى لواء آخر فهذا أمر محسوم بالنسبة لعائلتي ولا علاقة له بالحادث وقد صدر قرار قديم به حين قرر والدي وعمي جابر بيع ممتلكاتهم والانتقال إلى لواء البصرة للعمل والعيش هناك.

---

(١) تقسم العشيره عندنا في العراق إلى بطون، والبطون إلى أفخاذ، والأفخاذ إلى أسر وعوائل... وأعتقد أن تقسيم كهذا موجود في أغلب البلاد العربية أو جميعها.

حاول الوسطاء ومنهم الشيخ علوان والوجهاء السادة الجعفرية التقريب بين وجهات النظر وبذلوا في سبيل ذلك جهودًا استثنائية صعبة ومضنية من أجل نجاح المجلس وعدم تشعب القضية وتوسعها وصعوبة السيطرة عليها بعد ذلك... لكن جهودهم باءت بالفشل، حتى اقترح الشيخ علوان تمديد العطوة إلى ثلاثة أيام أخرى ودعاهم إلى الاجتماع في هذا المكان في الحادي والعشرين/ كانون الثاني/ ١٩٥١.

وهكذا انتهت الجلسة...

شهدت قريتنا خلال الأيام الثلاثة هذه نشاطًا استثنائيًا ملحوظًا... فقد نشط وفد قروي رباعي مكون من الشيخ علوان الحمد وسهيل العطار وإمام الجامع والسيد هاشم الياسري... نشط في إجراء مفاوضات غير مباشرة بين الطرفين من خلال زياراتهم المتكررة إلى دار غافل درويش ودارنا، حيث تواجد والدي وعمومتي. دست خلال المفاوضات آراء ومقترحات ووعود بتقديم المساعدة والمعونة المادية والمعنوية... يبدو أن الوفد قد توصل إلى نتيجة اعتبرت متوازنة ومقبولة لدى الطرفين جعلوها أساسًا تبنى عليه تصوراتهم في حل المشكلة...

بعد صلاة العشاء في ليلة الحادي والعشرين كانون الثاني تكرر ذات المشهد الذي كان قبل ثلاثة أيام، حين خرج الرجال الأربعة عشر من صريفتنا تودعهم أمي بلطيف كلامها ابتداءً

بروائع دعواتها وانتهاء برش الماء ورائهم... واستراحة أمي وعمتي التي أسميتها في حينها استراحة المقاتل.

شعرت بوحشة الهدوء ، وحشة امتلأت فيها روحي ونفسي ، هي أكبر من تلك التي شعرت بها قبل ثلاثة أيام... سرقتني صفنة عميقة، وسرحة بعيدة طارت بي دون جناحين إلى أبعد مما كنت أتصور ، كما تخيلت فيها نفسي وأنا بين رغباتي الصامتة وسط نار مستعرة، لعلها بعض أحلام اليقظة التي ما عدت أميز بينها وبين أحلام وكوابيس المنام!!

وبلا شعور مني ضاقت نفسي وكأن لا هواء في الغرفة لأتنفس وهممت بالخروج وأنا في ضيق وفي حاجة ماسة لمن يفرج عني كربتي، ولكن محاولتي بالنهوض والوقوف باءت بالفشل ولم تعد ساقي قادرة على حملي، ألقيت بجسدي على فراشي، لاحظت سعدية حالتي وهبت لمساعدتي وقد اتسعت عيناها فزعًا ، قالت وهي تنظر إلي بصوت أكثر حدة يرتعش من الغضب:

- اسم الله... اسم الله الرحمن الرحيم عليك يا عزيزة ما بك يا أختي؟!

لكني استطردت بسرعة لتهدئتها دون أن أترك لها فرصة لمتابعة حديثها:

- لا... لا تبالي يا سعدية ولا تهتمي للأمر كثيرًا، ليس هناك ما يقلقك، لقد تعثرت بذيل ثوبي فقط، وليس هناك من شيء آخر فاطمئني.

تحاملت وأجبرت نفسي على النهوض من عنوة حتى لا أجلب انتباه من معي في الصريفة إلى سوء حالتي. ترسخت في ذهني فكرة بدأت تدخل رأسي وتستولي عليه وتمزقه بلا رحمة، ومنذ بداية الجلسة الأولى قبل ثلاثة أيام، فنحن بنات العم غير المتزوجات عددنا سبعة فقط... أنا وأختي سعدية في بيت أبي حميد وابنتي عمي شاهر في البصرة، وابنتي عمي جابر، وأخرى في بيت عمي كامل... هذا يعني سنكون نحن السبع بنات الفصليات جميعًا! كيف اتفق هذا العدد من الموجود مع العدد المطلوب!!.

أحمل أفكارًا وعندي معلومات عن الرقم سبعة حفظتها نتيجة للعبة الأرقام وغرائبها التي كنا نلعبها ونحن صغار، وعن حكايات الكبار من أهلنا:

الله سبحانه وتعالى خلق الكون في سبعة أيام.
وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أوصى بسابع جار.
وسيدنا إبراهيم عليه السلام رمى سبع حصوات خلف الشيطان.
وللسماء سبع طبقات وسبع طبقات أخرى للأرض.
والبحار التي أعرفها عددها سبعة.

وعدد أيام الأسبوع سبعة أيام.
ولوجه الزهر وظهره سبع نقاط.
وسهام والأقزام السبعة قصة جميلة للأطفال روتها لنا جدتي...

وأخيرًا، نبعة وأخوتها سبعة، وهذا مثل شعبي شائع في أريافنا تقوله البنت فخرًا بنفسها وتعتز بأهلها وأخواتها مهما كان عددهم حتى وإن لم يكن سبعة.

هكذا كنت أعرف الرقم السبعة ولم أكن له سابقًا مشاعر ود أو عداء... لكني أتعرف عليه الآن مباشرة ولأول مرة، إنه يدخل قاموس مفردات حياتي بكل قوة الأشياء وعنفوانها... إنه الرقم سبعة!.

• • • •

كالعادة بدأت الأخبار تتوارد وبإصرار من داخل المجلس ينقلها لنا الصبية والشباب اليافع، الذين لا يجدون مكان كاف يسعهم في الداخل يوازي ويتوازن مع رغباتهم في الاطلاع المباشر ومعرفة ما يجري في الداخل... فيكتفون بالإنصات ومشاهدة ما يجري من الخارج وينشطون جريًا بالتتابع في رحلات مكوكية بين المضيف والصرائف يتناقلون الأخبار والذين شبهتهم بالحمام الزاجل!

تقول الأخبار إن إمام المسجد هو أول من بدأ الحديث كعادته... وكعادته مسترسلاً في أحاديثه السابقة، لكنة اليوم ذيل حديثه بالدعوة لتجاوز أخطاء الجلسة السابقة.

ثم تحدث الشيخ علوان الحمد الذي ذيل حديثه بتهديد واضح وصريح بترك المسألة والتخلي عنها، وإنه سيوقف مساعيه في حل المشكلة إذا فشلت جهوده في هذه الجلسة، وسيترك طرفي النزاع لبعضهم البعض "نارهم تأكل حطبهم" على حد قوله، وأيده في موقفه هذا الوجهاء والسادة جميعًا كأنهم متفقون على رأي واحد وكلمة واحدة لإرهاب الطرفين وتخويفهم من العواقب الوخيمة وحثهم على تقديم المزيد من التنازلات.

بدأ غافل درويش حديثه مُجددًا مطالبه كما أنهاها قبل ثلاثة أيام كأنه ربط الماضي بالحاضر ويشدهما لبعضهما شدًا قويًا لا يريد لهما حلاً... مطالبه فصل سبع بنات باكرات تكون عزيزة من ضمن هذه البنات وفي المقدمة، مع مبلغ ثلاثون دينارًا، ورحيل أهل حسن وعمومته إلى لواء آخر غير لواء العمارة.

اغتاظ عمي شاهر غيظًا شديدًا وغضب بعنف ونهض من مجلسه بعصبية محاولاً مغادرة المكان، مُحملاً الطرف الآخر نتيجة الفشل هذا، ومهددًا بتحميلهم العواقب الوخيمة مهما حصل بعد أن أصر على ألا يزيد الفصل على اثنتين من البنات فقط والتخلي عن مبلغ ثلاثين دينارًا، كما طالب بإعادة ما سلب

من بيت عمي جابر ودفع مبلغ خمسون دينارًا عن حرق صريفته، وطالب بالتنازل أمام المحكمة عن القضية حتى ينال حسن أقل حكم ممكن، إذ أخبره المحامي المكلف بالدفاع عن حسن أن الحكم سينخفض من المؤبد (٢٥ سنة) إلى عشر سنوات أو أقل في حالة تنازل أهل القتيل عنه، واعتبر عمي هذا الشرط أساسًا لحل القضية وهو أول الشروط والخطوات التي يجب تنفيذها قبل تنفيذ أي خطوة أخرى...

منعه الشيخ والوجهاء من المغادرة وأعادوه إلى مجلسه، وعاد الشيخ مرة أخرى مؤكد أن الحادث لا يجب أن ينتج عنه هذا التعنت والتزمت السلبي في اتخاذ لمواقف وقرارات غير الصائبة، ولا ينتج عنه هذا الكم الكبير من الفصل، واعتبره مبالغًا به لأنه أصلاً حادث غير متعمد وقع بين أبناء عائلة واحدة، لا خلافات أو عداء سابق بينهما، وليس بين أبناء عشيرتين مختلفتين متنافستين، لذا اقترح أن يكون الفصل ثلاث بنات فقط والتخلي عن مبلغ التعويض البالغ ثلاثون دينارًا بأكمله كما وعد هو والوجهاء بموجب اتفاق بينهم تم بالأمس التبرع بمبلغ قدره عشرون دينارًا لمساعدة الطرفين ودعمهم والوقوف إلى جانبهم، مبلغ سيذهب نصفه إلى عائلة حسن، والنصف الآخر لعائلة المرحوم خلف، وأمر بإعادة جواميس عمي جابر الثلاثة ونعاجه الثمانية، ودفع مبلغ قدره عشرون دينارًا تعويضًا له عن حرق صريفته لأنه فقير لا أرض

زراعية له يملكها ولا مصدر معيشة له ولعائلته غير جواميسه ونعاجه ، وأعاد التأكيد على ضرورة تنازل غافل درويش بصفته والد القتيل وولي الدم عن القضية المرفوعة ضد حسن في مركز شرطة العمارة لينال حسن أقل عقوبة ممكنة، واعتبر هذا الشرط لابد منه وأساسي لحل القضية وله الأولوية على الشروط الأخرى.

وما إن انتهى الشيخ علوان من حديثه حتى ثار غافل درويش وغضب بعنف كأنه على أهبة الاستعداد لإعلان ثورته وتمرده ولم يكن يعوزه إلا انتظار أن ينتهي الشيخ علوان من إتمام حديثه فقط.

نهض غافل درويش من مجلسه بقفزة واحدة كأن ثعبان يسعى تحته ، سحب عباءته "المزوية" ونكثها "نفضها" [(١)] بقوة ، ثم نشرها كالشراع لتغطي كتفيه وكامل ظهره ، بدى عليه اللهاث وأنفاسه تتلاحق متسارعة كأنه الثور الهائج ، في وقت استمر فيه بتسوية وضع عقاله على رأسه بكلتا يديه ليعدل من وضعه ويعيد هيبته وقد نهض معه جمهرة من الرجال ، هم من جاءوا معه ورافقوه إلى المجلس، وانطلق يزمجر وهو يرتعش:

---

(١) نفض العباءة ونكثها داخل المجلس معناه الرفض التام الذي لا رجعة فيه يحمل التهديد والوعيد، بمثابة إعلان الحرب.

- بنتان! اثنتان فقط! لا اثنتين ولا ثلاثاً ولا حتى سبعاً ، من فضلك يا شيخ ومن فضل الحضور...

وأنفاسه تتسارع بازدياد كأمواج متتالية على صخرة وسط مياه البحر... تناول قدح ماء من يد أحدهم، ابتلع معظمه على ثلاث دفعات كأنه يغص عند كل دفعة فيزدرها مع ريقه بصعوبة، وأبقى القليل من الماء في كعب القدح... وتابع حديثه:

- ابني خلف نور عيني ونبض قلبي ما سال من رأسه ماء...

ورمى ما تخلف من ماء في كعب القدح على الأرض، سكت برهة وجيزة دار خلالها حول نفسه دورة كاملة كأنه يلقي نظرة فاحصة على الوجوه الشاخصة والعيون التي ترنو إليه وبترقب حذر ثم تابع قائلاً:

- سال من رأسه دم، ارتوت به الأرض، وهو في ريعان شبابه الذي ضاع، لا يغسل دم خلف إلا الدم... ودم عشرين رجل من آل حسن ، وليس فصليات بنات ، اثنتين هيّ.... هيّ... بنات اثنتين... هيّ... هيّ (قال العبارة الأخيرة وهو يهز يده)

ساد الهرج والمرج أرجاء المضيف... ودبت الفوضى فيه وأخذ كل فرد من الحشد الذي اكتظ به مكان وقوفًا كان أو جلوسًا يتكلم وينطق على حسب مزاجه، ارتاح البعض مسترسلاً في الحديث مع من هو جانبه... وعم الضجيج وتلاشى الكلام الواضح المفهوم وتبدد تمامًا!

حتى أسرع إمام المسجد وسهيل العطار بالإمساك بغافل درويش، انتزعا عباءته من على كتفه عنوة، وأعادا طيها من جديد، ورجوه بالعودة والجلوس في مكان، لكنه رفض وبقوة حتى انضم إليهما السيد هاشم الياسري ليتمكنوا أخيرًا من إعادة غافل إلى مجلسه وهو يغلي، فناوله أحدهم قدحًا من الماء مرة ثانية... فشربه بسرعة هذه المرة كأنه أطفأ به حريقًا استعرت نارها في جوفه، وبذلت جهودًا من الحاضرين جميعًا لتهدئته في مجلسه، إلا الشيخ علوان فقد ظل في مكانه ملتزمًا جانب الصمت والهدوء طيلة الوقت الماضي كأنه ليس جزءًا من الموضوع، بل أن المسألة برمتها ومجمل أحداثها لا تعنيه ولا تهمه في شيء مما أثار دهشة واستغراب الحاضرين، وكذلك خوفهم أيضًا، المعروف عن الشيخ علوان إنه إذا صمت وسكت، كصمته وسكوته هذا فإنه إما اتخذ قرارًا حازمًا ونهائيًا لا يحيد عنه ولا يغيره أبدًا، أو أن ثورة في الطريق قادمة منه يعبر بها عن رغباته الصامتة، فهو إذن الهدوء الذي يسبق العاصفة!

تساءل بعضهم بصوت عال مسموع:

- لماذا سكت يا شيخ علوان؟.
- لماذا لا تقول أو تفعل شيئًا يا شيخ؟...
- تصرف قل شيئًا...
- ماذا جرى ماذا حصل يا شيخ؟.

استمع الشيخ لهرج الحضور ، وشاهد الفوضى تدب في مضيفه ومازال هادئًا ساكنًا.

في هذا الحين حضر شاب يافع صغير ودخل المجلس ودنا من غافل درويش... همس بأذنه ، فهز غافل رأسه معبرًا عن موافقته ومطمئنًا الشاب، وكانت هذه المرة الثالثة التي يتكرر بها هذا المنظر، يحضر هذا الشاب ويهمس بأذنه فيهز رأسه إمعانًا بالموافقة قبل أن يخرج الشاب فيتغير الرجل تغييرًا جذريًا ، يتعجرف ويزداد عجرفة في أفعاله وتزمتًا وتمسكًا بأقواله ويتقلب تمامًا في ملامح وجهه وهيأته وأسلوب حديثه ومستوى تعنته وقلة تنازلاته على حد سواء، فجلب الانتباه والشك والريبة...

نهض الشيخ علوان واقفًا من مجلسه، وبهدوء ألقى نظرة فاحصة سريعة في أرجاء المكان، شخصت له الوجوه ورنت الأبصار ، تحملق به وهفت القلوب وبدأ الهدوء يعود إلى المضيف، خطى بعض الخطوات حتى توسط المكان فاشتد الصمت وعاد مع الهدوء ليتسيد الموقف بعد أن هربت الفوضى وتوئمها الضجيج... استعاد الشيخ وبثقة دورة كاملة اطلع بها على جميع العيون المنصبة نحوه، والوجوه الشاحبة المنعكس عنها ضوء الفوانيس التي أضاءت المكان بنورها الخافت، قبل العودة بخطوات ثابتة وبطيئة إلى مكانه.

ماذا أراد الشيخ بحركته هذه؟ لعلة أراد تحذير الجميع والتنبيه إلى ما ذهبت إليه الأمور من سوء، وأنه موجود وغير راض عن ما يحدث.

فهم القوم وأدركوا ، وحل السلام والأمان والاطمئنان في نفوسهم والسكينة إلى قلوبهم، فتحدث الرجل بصوت هادئ تخلطه نبرة حازمة أنذرت بما يجول بفكره من غضب مستعر، كما ينذر دخان البركان مستبقًا حممه، وبلهجة لا تخلو من التهديد:

- لقد قررت واتخذت القرار...

ثم تابع بصوت منخفض وهو يتبوأ صدر مجلسه:

- لا أحب أن يرفض أحدكم أو يعترض على ما قررت، هل سمعتم وفهمتم ما أعني؟.

وأعاد صياغة تهديده هذه المرة بقوله الحازم الشديد إنه سيقف بوجه من يرفض اقتراحاته هذه ويعمل ضده، مساندًا الطرف الآخر عليه وداعمًا له. فارتدت أطراف النزاع خائفة لأنهم يعرفون الشيخ علوان جيدًا وقدرته على تنفيذ تهديداته والوفاء بوعوده وهذه من خير محاسنه وسماته.

كانت مفاجأة أن يقول لهم كلامًا كهذا وبصوت هادئ ومتزن، بعد أن اعتادوا على غضبه وهو يعلن قراراته بصوت مرتفع عالي النبرات كصوت مؤذن لصلاة الفجر وبعبارات حادة كأنه

خطيب صلاة الجمعة، فهبَّ الجميع هبة رجل واحد مؤيدين وداعمين له بقولهم:

- أمر... أمر يا شيخ... فوت أفالك.

- لك الأمر والنهي وأنت صاحب الرأي الأول والأخير.

ثم قال الشيخ بأسلوب واتزان غير معتادين:

- لقد قررت أن يكون الفصل أربع بنات فقط كحل وسط ونهائي لا رجعة فيه ولا مجال للمساومة معه، أو مبلغ "مائة دينار"، بواقع "خمسة وعشرون دينارًا عن كل بنت"[1]، مع مبلغ خمسة عشر دينارًا فقط عن مصاريف الدفنة ومصاريف مجلس الفاتحة... كما قررت أن يبادر غافل درويش باعتباره والد المتوفى "خلف" في إسقاط الدعوة عن حسن، ويبلغ السلطات القضائية أن الحادث جاء صدفة "قضاءً وقدرًا" وغير مقصود، لينال حسن أقل عقوبة ممكنة، كما أطالب غافل درويش برد جواميس جابر الثلاثة ونعاجه الثمانية وتعويضه مبلغ "عشرة دنانير" عن حرق داره...

ثم رفع رأسه واستطرد قائلاً:

---

(١) دفع الأموال بدل البنات كدية لا وجود له عندما تكون الدية بين عشيرتين متنافستين، وكذلك تعتبر حادثة نادرة في نوعها عندما تقع الأحداث في العشيرة الواحدة. فوقوع البنات كدية وفصل أمر لا مفر منه.

- بما إنه وصل إلى علمنا إنه تم نحر أربع نعاج منها تمويلاً لمجلس الفاتحة باللحم... فقد قررت التبرع بنعجتين كما تبرع الأخ سهيل العطار بنعجتين أخرتين ليصبح المجموع أربعة تضاف إلى الأربعة الباقية وترد إلى جابر خلال يومين اثنين لا أكثر... وكذلك لكم في عهدتنا مبلغ "عشرون دينارًا" تبرعات جمعت من العشيرة تقسم إلى قسمين، عشرة دنانير إلى غافل والعشرة الأخرى إلى جابر. وسأقسمها بينكم بعد تنازل غافل عن الشكوى وإعادة حلاله مباشرة وبعد يومين على أبعد موعد وأقصى حد زمني...

ثم رفع يدة بمستوى الأفق وتساءل وهو يشير بإصبعه إلى طرفي النزاع:

- صار عندك مفهوم يا شاهر أنت وأعمامك وإخوانك؟

قال عمي وهو حاني الرقبة مطأطئ الرأس:

- نعم يا شيخ مفهوم.

- هل أنت موافق على هذا الحكم؟

- نعم يا شيخ موافق، بارك الله فيك.

ثم التفت إلى غافل وسأله ذات الأسئلة بذات الأسلوب، فرد عليه غافل بقوله:

- نعم يا شيخ موافق، لكن بشرط واحد.

فرد عليه الشيخ بلهجة ساخرة:

- بعدك تتشرط يا غافل... فضه... وافق خلينا نخلص.

قال غافل بتردد وبلهجة حزينة كأنه يترحم على نفسه:

- أي والله يا شيخ... هذا شرط أختك أم خلف، تخصك بالسلام، وبعثت بهذا الغلام ابن عمه ثلاث مرات ترجو منك ومن الحاضرين الموافقة على شرطها وتثبيته.

- أخبرنا، ماذا تريد أختنا أم خلف؟ وسنكون بخدمتها.

- خادم ربك... تكرم يا شيخ. أم خلف تشرط ونحن جميعًا معها ونؤيد شرطها، أن تكون عزيزة من ضمن البنات الفصليات وفي المقدمة وإذا لم يتم الموافقة على هذا الشرط وتنفيذه فأنا وإخواني وأعمامي لا نوافق على هذا الحكم.

فسأله في حماس صادق:

- ولماذا عزيزة؟ ليس من حقكم أن تشترطوا من تكون البنت الفصلية...

وسكت الشيخ برهة، احتضن ذقنه بكفه الأيسر وبدأ يداعب شعرات لحيته بأصابعه كأنه يفكر بصمت قبل أن يلتفت إلى أبي وأعمامي ويسألهم ما إذا وافقوا على هذا الشرط أم لا...

رفض أبي أولاً وتبعه الباقون، لكن الشيخ والحضور حفروا لي حفرة عميقة لا قرار لأغوارها حين انتزعوا الموافقة منهم انتزاعًا... واضطر أبي أخيرًا على الموافقة حتى لا تعود المشكلة إلى نقطة البداية من جديد، إنها اللعنة التي تلاحقني

وخيبة الأمل، وهكذا أصبحت عزيزة الفصلية رقم واحد وتغير اسمها من عزيزة حميد سباهي إلى عزيزة الفصلية.

عاد الشيخ علوان إلى حديثه مرة أخرى وقد بدت عليه آثار التعب والإنهاك لفرط الجهد الذي بذله خلال الجلسة، ناهيك عن الجهد الذي بذله خلال الخمسة عشر يومًا الماضية.

عاد إلى حديثه وهو يقول:[(١)]

- قبل أن نفض مجلسنا هذا وننتهي منه أرغب أن أذكركم إخواني بصورة نهائية أن راية العباس ستعقد على أربع بنات أو مبلغ "مائة دينار" عوضًا عنه بواقع "خمسة وعشرين دينارًا" لكل بنت إذا رغب شاهر وإخوانه فك ذمة البنات مقابل مبالغ مالية مع مبلغ "خمسة عشر دينارًا" للدفنة والفاتحة على أن يتنازل غافل عن الدعوة المرفوعة ضد حسن ويعيد حلال جابر المسلوب يوم غدًا أو بعده على الأكثر وسيتم الصلح النهائي بين الطرفين بعد تنفيذ كل بنود الاتفاق وفي مدة أقصاها أربعين يومًا يمتنع خلالها التحرش بين الطرفين.

وهنا هب غافل منتفضًا من مكانه مقدمًا رأسه إلى الأمام رافعًا يده بمستوى صدره قائلاً بنبرة واحدة:

---

(١) بالعادة إعادة ما أتفق عليه للتذكير وأمور أخرى، وفي الإعادة إفادة... وهذه من عادات وأعراف العشائر.

- إلا عزيزة... إلا عزيزة يا شيخ... دع الحضور جميعهم يسمع ويتأكد... عزيزة لا أفك رهنها حتى ولا بألف دينار ، ولا أقبل عوضًا عنها حتى سبع نسوان...

فرد عليه الشيخ مستغربًا:

- لماذا هذا التأكيد والإلحاح على مسألة عزيزة ؟ هل لأنها خطيبة حسن؟.

- أنت زين العارفين يا شيخ... أنا لا أقوم ناهضًا وأترك مجلسي هذا حتى أتأكد من تنفيذ هذا الشرط.

(٩)

تواصلت الأخبار تباعًا من داخل المضيف إلى كوخنا بكل تفاصيلها، حتى أمسيت أنا على بينة منها، لا أريد أن أتحدث عن أحاسيس ومشاعر الإحباط والخذلان الملتهبة، وأفكاري المتقاطعة المتصالبة تجاه ما سمعت وعلمت...

انفض مجلس العشيرة قبل منتصف الليل بقليل، وعاد جميع الرجال إلى بيوتهم ومنهم رجال عائلتي الأربعة عشر، وعاد بيتنا يكتظ بهم من جديد، وسط ضجيجهم وثرثرتهم كل واحد منهم انسجم وتفاعل بالحديث مع شخص آخر أو أكثر، يتبادل الرأي حول ما دار وجرى، حتى توزعوا على شكل مجموعات متقاربة مع بعضها بالأجساد ومتباعدة بالأرواح والأفكار...

منهم من هو ممتن ومنهم من هو ساخط كل السخط ومنهم من هو بين... بين، لم أستطع أن أفهم من أحاديثهم وأنا أنظر إليهم من خلال فتحة مناسبة السعة في شباك الغرفة الوحيدة في الصريفة، أستمع إلى حديثهم وما دخل ولا تناهى إلى مسمعي غير كلمة عزيزة... عزيزة... عزيزة...

فُتح باب الغرفة، شعرت به وهو يُفتح سمعت صوت صريره، استدرت إلى الخلف لأنظر من هو القادم وإذا بي وجهًا لوجه أمام أبي، لقد تفاجأت بدخوله هكذا بعد أن توقعت أن الداخل هو أمي وأختي سعدية... وقف أبي أمامي على مبعدة مترين وهو ينظر نحوي وبادلته النظرات، مكثنا هكذا برهة من الزمن ينظر أحدنا في وجه الآخر دون أن ننطق بكلمة واحدة أو ينبس بحرف واحد أو يحرك فمه في محاولة غير موفقة بالحديث.

انعقد لسان أبي ولساني، ولكن كل واحد منا قرأ أفكار الثاني وفهم منه الكثير، انتهى الموقف بأن أحنى أبي رأسه إلى الأسفل وهو ينظر إلى الأرض... كأنه يريد بحركته هذه أن يعتذر مني ويعلن عن أسفه بينما أشحت وجهي عنه إلى الجهة الأخرى... جهة الشباك وكأني أرفض اعتذاره وأرد عليه أسَفه وأعلن له عن غضبي.

سمعتُ باب الغرفة يغلق مرة أخرى علمت أن أبي هو الذي خرج وما هي إلا دقائق معدودة حتى خرجت كوكبة الضيوف الذين عج بهم منزلنا مُغادرين للمبيت في بيت عمي كامل، بينما ترسب عمي شاهر باقيًا في ضيافتنا مع ولده عبد الرحمن وأحد أخوالي "ابن عمهم"، وقد سمعت عمي شاهر يقول لهم وهو يودعهم أن يحضروا جميعهم بعد ظهر الغد إلى هنا

ليتداولوا بالأمر وينظروا كيف سيتم تلبية متطلبات بنود اتفاق الفصل مع من تخلف ولم يتمكن من الحضور من أولاد العم، قال إنه أرسل بطلبهم ودعاهم للحضور هنا قبل ظهر الغد إن شاء الله.

• • • •

في صباح اليوم التالي بعث عمي شاهر وأبي في طلبي..
لبيت طلبهم...
بدأ اللقاء باستقبال مهيب لحضرتي من قبل أفراد الأسرة فردًا فردًا، وكذلك الحضور جميعًا كمجموعة واحدة على حد سواء زاد من استغرابي وحيرتي ودهشتي كأني السفيرة عزيزة... ماذا يجري هنا الآن؟.

في البداية استقبلني عمي شاهر بابتسامة عريضة تفوح منها علامات البشر والسرور، وعيون تشرق منها علامات الابتهاج والحبور، وكلمات الترحيب اللبقة التي لم أسمع لها مثيل، حتى إنه لم يمنحني فرصة أداء السلام والتحية عليهم بعد أن سلب مني الوقت المناسب لها!

ـ أهلاً أهلاً.. أهلاً وسهلاً يا ابنتي العزيزة الغالية، صباحك ألف خير يا عزيزة... والله أنتِ اسم على مسمى، عزيزة واسمك عليك...

ثم احتضنني وضمني إلى صدره بكل حب وحنان، ثم قبَّل رأسي وجبيني!

آه يا إلهي... ماذا يحدث هذا اليوم؟ هل فتح لي باب الفرج كلتا مصراعيه، بين حلكة منتصف ليل بهيم وإشراقة صباح جديد؟ أم أنني سأستمع إلى بعض كلمات الخداع والغش والنفاق لكي أساق إلى سوء مصيري وأقبل صاغرة وعن طيب خاطر سواد قسمتي الكالحة الدهماء برضاي أو حتى قسرًا إذا لزم الأمر، ليباع لحمي ويشترى لتلوكه الأفواه والألسن في سوق الأعراف العشائرية والعادات والتقاليد الاجتماعية؟... لأساق إلى حتفي كما تساق شاة حتف أنفها لتواجه سوء مصيرها وهي تذبح على يد قصابها، ثم يباع ويشترى لحمها ويوزع فتاتًا فتاتًا تلوكه الأسنان القاسية بأفواه المدعوين على الولائم المدنسة بالرذيلة ومن يستطيع أن يدفع الثمن. ما أرخص أفكاري وأبخسها حين ظننت في توقع غير صائب أن عمي شاهر هو القصاب ولسانه هو السكين التي سأنحر بها.

ثم جاء دور أبي... وهكذا كأنه أعاد ما فعل عمي وقلده، وبعد ذلك جاء دور أمي لتؤدي دورها التمثيلي في هذه المسرحية التي ليس لها مؤلفًا ولا مخرجًا وفقدت أبطالها الحقيقيين وغاب عنها جمهور المتفرجين... ونفذت على مسرح صريفتنا

المتواضع! في داخلي رغبات صامتة وفضول عارم لأتعرف على ما أجهله الآن في هذه اللحظات.

- استريحي.. اجلسي هنا بجانبي يا ابنة أخي الغالية حتى أشم عطرك وأملأ عيوني من مليح صورتك...

كلام كثير قبل أن يدخل عمي في صلب الموضوع:

- اسمعي يا ابنتي ؛ أنا أعلم أنك تعرفين كل شيء. وعندك اطلاع واضح وصريح بخصوص كل ما جرى في مضيف الشيخ علوان ليلة أمس، وبالذات إصرارهم على أن تكوني أنت واحدة من البنات الفصليات ، ثم تساءل وهو يشير بإصبعه نحوي:

- أليس كذلك؟.

فأجبته وأنا أشد منديلي حول رأسي بارتباك:

- نعم... نعم يا عمي، لقد علمت وعرفت كل شيء.

فأجابني كأنه يشد من أزري ويشجعني وكف يدي محصورًا بين يديه:

- أرجو يا ابنتي ألا تقلقي كثيرًا ولا تعيري الأمر تلك الأهمية القصوى، لقد اتفقنا ليلة أمس على إنه بإمكاننا فك رقبة أو ذمة كل بنت من البنات الأربعة وأنت واحدة منهن طبعًا بالمال ، مقابل خمسة وعشرون دينارًا عن كل واحدة ، وسندفع هذا المبلغ حتمًا ونفك قيود الاتفاق وعقدة راية العباس حتى لو

اضطررت لدفع المائة دينار أنا وحدي، أنتن بناتنا ونحن لا نرضى أن تساق بناتنا سبايا هكذا وسنفديكن بالغالي والنفيس.

سرني كلام عمي شاهر كثيرًا ولكنه لم يطمئنني، فقلت بعصبية واضحة واهتمام بالغ:

- لكن يا عمي... غافل هذا اعتبرني مستثناة من هذا الاتفاق وأن أكون أنا الفصلية رقم واحد، ولم يقبل بإخلاء ذمتي وعتق رقبتي حتى لو دفعتم ألف دينار.

وتابعت حديثي يائسة وأنا أزدرد ريقي بصعوبة:

- أليس كذلك يا عمي أم أن هناك كلام آخر؟.

أجابني باهتمام وقد بدأ الضيق يبدو عليه:

- صحيح صحيح يا ابنتي لكن هذا كلام، مجرد كلام... وأي كلام يقوله الشخص في لحظة غضب لإثبات وجوده، عناد... عناد يا ابنتي غايته فقط إثبات شخصيته، وسأذكرك غدًا...

ثم تابع حديثه وهو يهزني ويرسم ابتسامة خفيفة على شفتيه كأنه يسرقها:

- ياما... وياما تناهى إلى مسمعنا كلام كهذا سابقًا، ولكن بعلمك يا ابنتي إن الفلوس تغير النفوس، ما أن يرى غافل ٢٥ دينار حتى يصير عبدًا لها ويغير من سلوكه وطباعه وينسى شرطه... ليس شرطه فقط... ينسى حتى ابنه المرحوم خلف. بعض الناس لا يبيعون أقوالهم وشروطهم فقط، بل يبيعون حتى أنفسهم، لو اقتضى الأمر رفع المبلغ الخاص بك إلى

خمسين أو مائة دينار فسأفعل. لا بل حتى ألف دينار كما قال غافل عندها ستقولين عمي شاهر وعد وأوفى بوعده، أنت ابنتنا وحبيبتنا وحبيبة ولدنا حسن وخطيبته... ماذا سيقول عنا وهو في سجنه، هل عجزنا عن فك ذمتك بغيابه؟.

قفزت أنا هذه المرة ناهضة من مكاني وكلي سعادة وسرور بما قاله عمي وسمعته منه... لقد وجدت في حديثه بارقة أمل ومتنفس من ضيق، ونور يضيء ظلمة الليل ويحيله إلى نهار، اندفعت أحتضن عمي وأمطره بوابل من القبل، وبلا وعي مني انتزعت عقاله وكوفيته من فوق رأسه ولم أكن أدري أو أتأكد من موضع قبلاتي العشوائية السريعة التي طبعت على رأسه ووجهه، قبلات على رأسه وأخرى على عينيه وخديه.

كدت أفقد صوابي من فرط السعادة ويعتلج في فكري وعقلي أنني أصبحت حرة، ومن هذه اللحظة بعد ليلة شعرت بها أنني كبلت ووضعت القيود والأصفاد برقبتي ويداي... أنا حرة، نعم أنا حرة، لقد تحطمت قيودي، أنا حرة... حرة... حرة... تركته وذهبت إلى أبي أحتضنه وأقبله وأشكره.

- شكرًا لك يا أبتي... شكرًا لك يا عمي... شكرًا لكم جميعًا

● ● ● ●

لست أدري ما إذا كنت أبكي أم أضحك ، لقد امتزجت دموع البكاء المرة بدموع الفرح المالحة[١]، فأسرعت أمي وسحبتني من يدي وقادتني برفقة أختي سعدية إلى الغرفة وهي سعيدة فرحة، ربما أكثر مني، فكان يوم سعد وبشر وسرور بالنسبة لي ليس له مثيل منذ وقع حادث القتل ، قلت قبل أن أجلس واللهفة تملأ وجهي:

- أنا جائعة... أنا جائعة يا أمي وأشعر بجوع شديد...

- جائعة طبعًا جائعة، لم يدخل جوفك شيء يذكر طيلة الأيام الأربعة الماضية حتى ذبل عودك وشحب لون وجهك ومال إلى الاصفرار.

- أنا أيضًا جائعة يا أمي وأشعر بشهية مفتوحة لالتهامك أنت وعزيزة معًا.

قالت سعدية ذلك وهي منشرحة مستبشرة بما عهد بها من لطف وخفة دم فضحكنا لكلامها نحن الثلاثة... تناولت إفطاري مع أختي سعدية، أكلتُ أكلاً غير طبيعي كأني أنتقم من المائدة، لقد نسفت الصحون ولم أبقِ على شيء خلفي ، وبعد ذلك تقدمت بالحمد والشكر لله العلي العظيم وأنا أعلم أن كل الحمد والشكر مقبول، وعظيم الدعاء وأنا أعلم أن ليس كل دعاء مستجاب.

---

(١) حكايات وأمثال شيعية في العراق تؤكد على مرارة دموع البكاء وملوحة دموع الفرح، ولست أدري ما إذا أثبت العلم شيئاً من ذلك أم لا.

(١٠)

بعد نحو ثلاث ساعات وفي ضحى ذات اليوم حضرت كوكبة جديدة من الرجال، بدأوا يتوافدون على منزلنا تباعًا أفرادًا واحدًا تلو الآخر، أو أزواجًا، زوجًا يتبع زوجًا قبله وبأوقات متقاربة حتى بلغ عددهم ثمانية عشر رجلاً... ومع كل شخص يدخل تخبرني أمي عن اسمه ودرجة قرابته لنا ومعلومات لا بأس بها عن عنوانه ومحل سكنه، أسرته ومكوناتها، عمله، صحته، وغير ذلك... فعلمت أنهم جميعًا أولاد عم أبي وأولادهم وقدموا هنا من نواحي وقرى ومدن العمارة والألوية القريبة منها، بدعوة من قبل عمي شاهر بصفته كليط العائلة وكبيرها للتداول بالأمر، وإن تغيب أكثرهم لأسباب مختلفة... مشاغل، عمل متراكم، سوء صحة، بُعد مسافة... إلخ... لكل غائب حجة وعذر كلهم جميعًا وعدوا وكلهم وفوا بوعدهم، أضحى المجموع اثنان وعشرون رجلاً... ازدحم بهم دارنا بما ليس له سابقة...

دارت أقداح الشاي وفناجين القهوة العربية من فوهة الدلال العربية... بدأ الحديث عمي جابر أخبرهم مؤكدًا أن الأخبار التي وصلته تؤكد أن غافل درويش قد عاد توًا من مركز شرطة العمارة حيث سجل محضر تنازل عن الدعوة المرفوعة

ضد حسن بحضور المحامي ، كما أعاد له جواميسه الثلاثة وأربعة من النعاج وسيستلم أربعة نعاج أخرى غدًا تبرع بها مناصفة شيخ العشيرة وسهيل العطار وأوصى أن ندفع مبلغ خمسة دنانير فقط كفرق بين الخمسة عشر دينارًا التي علينا من مصاريف الدفن ومجلس الفاتحة ، والعشرة دنانير التي لنا تعويضًا عن حرق صريفتنا... وبذلك يكون قد نفذ الرجل ما عليه من شروط الاتفاق وما علينا إلا أن ننفذ ما يخصنا من الشروط خلال أربعين يومًا.

وبعد ذلك تحدث عمي شاهر مؤكدًا إنه حتى نتخلص ونرتاح من هذه المشكلة ونتجنب تبعاتها ومساوئ مفاجأتها بأسرع وقت ممكن... لا ضرورة لأربعين يومًا من التأخير وعلينا جمع مبلغ مائة دينار خلال مدة قصيرة ودفعها إلى غافل لفك ذمة البنات الأربعة على أن يجمع هذا المبلغ مقسمًا وموزعًا على رؤوس الرجال والذكور الذين هم بعمر عشر سنوات فما فوق [١] بالتساوي كما تقتضي الأعراف العشائرية مع مبالغ إضافية أخرى...

ثلاثون دينارًا إضافية تقسم إلى قسمين بين والدي وعمي جابر ؛ لمساعدتهم على ما تكبدوه من الخسائر الناجمة عن مراسيم

---

(١) الودي العشائري.

الضيافة وتوقف أعمالهم وانقطاع أرزاقهم طيلة الأيام الماضية وتعهدوا بالتكفل بمصاريف القضية من أتعاب المحامي الموكل بالدفاع عن حسن وغير ذلك، ها هي عادات أهلنا وتقاليدهم في تكاتفهم ووحدتهم يعين الأخ أخاه ويشد بعضهم أزر بعض حتى توقف الحوار والنقاش على قضيتي في مرساة الأخير... أكد الجميع على أنهم سيفكون ذمتي أنا شخصيًا بأي مبلغ يطلبه غافل حتى لو زاد عن الخمسة وعشرون دينارًا بكثير وسيتعاونون على ذلك جميعهم...

شعرت بسعادة غامرة، زادت وتضاعفت عن سعادتي السابقة وأنا أستمع وأشاهد نتائج هذا الاجتماع العائلي الذي أشهد متابعته لأول مرة في حياتي، وشد انتباهي فرحة وسرور أمي الذي أنساها تعبها في خدمة ضيوفها. سرور تجلى يتألق بريق عينيها السوداوين وهي تبتسم في وجهي تباعًا ابتسامات تشجيعية رقيقة متلاحقة نمت عن شعور بالسعادة والخيلاء، حتى استدعاني عمي شاهر للمثول أمامهم وقال بفخر وزهو شديدين يطمئنني مبتسمًا على أمري واضعًا يده على كتفي:

- ها ابنتي عزيزة... هؤلاء هم أهلك وأعمامك وأخوالك تعهدوا بفك ذمتك بأي ثمن كما سمعت وشاهدت، هذا بالإضافة إلى ما قلته لك صباح اليوم وقبل ساعات... هل أنت مطمئنة الآن وراضية؟

قلت وأنا ابتلع ريقي بصعوبة:

- نعم... نعم يا عمي راضية تمام الرضا، أشكركم جميعًا وأنا ممتنة لله ولكم.

هكذا انفض مجلس العائلة بعد تكليفهم عمي شاهر بالتوسط لدى الشيخ علوان والوجهاء والسادة الجعفرية بخصوص قضيتي... فرحب عمي بهذا التكليف ونهض الجميع.

• • • •

عاد ضيوفنا إلى بيوتهم وأعمالهم في اليوم التالي، حتى عمي شاهر وولده عبد الرحمن ووعد بالعودة بعد عشرة أيام ومعه المبالغ المالية المطلوبة لدفع دية المرحوم خلف وبعودتهم عاد الهدوء والسكينة إلى بيتنا الصغير، صريفتنا الجميلة المتواضعة وعاد الهدوء والسكينة ليطفئ نارًا استعرت بها، نارًا غير منظورة ما دام لا لهب ولا دخان لها لكنها حارقة في صولتها إذا هي صالت، ومدمرة في جولتها إذا هي جالت، ومؤلمة في ذكرياتها إذا هي عادت تطرق أبواب العقل والجسد والروح في عودة غير مقنعة ولا مبرر لها.

تمكن والدي خلال العشرة أيام التالية من بيع الأرض الزراعية الصغيرة التي يملكها والصريفة وبعض الماشية وبسعر مناسب جدًا؛ على أمل أن يستثمر المبالغ المتجمعة مع ما سيقدمه عمي

شاهر من مساعدة في تجارة التمور والفاكهة، في خطوة أولية قصيرة جدًا سعتها سعة رأس المال الذي تمكن من جمعه، لكن الرياح جاءت بما لا تشتهي السفن في الموسم الأول، لقد كانت حصاد موسم التمر لهذا العام سيء، سيء للغاية فيما بعد حين هاجمت الرياح القوية العاتية غير المعهودة النادر وقوعها عثوق التمور الخضراء الغضة قبل نضوجها، وهي معلقة على رؤوس النخيل وأسقطت معظمه على الأرض ليصبح ويمسي طعامًا للطيور، ومرتعًا طيبًا خصبًا للحشرات الضارة حيث تجمعت وتكاثرت حوله، مما أعطى الفرصة الذهبية لحشرة الدوباس للظهور ومهاجمة ما تبقى منه، وهذا أدى إلى شحّه وارتفاع ثمنه حتى في البصرة أكبر منتج للتمور في العالم ليس أسوأ من هذه الأخبار بالنسبة لوالدي، الذي سيحتاج في حالة كهذه إلى رأس مال أكبر أو إلى تأجيل مشروعه مواسم أخرى حتى تستقر الأسعار.

وعلى هذا النحو استعد عمي جابر وعمي كامل وصرنا جميعًا على استعداد تام للرحيل إلى البصرة برفقة عمي شاهر.. فعلاً رجع عمي بعد عشرة أيام كما وعد وذلك في الثاني من كانون الثاني العام الجديد ١٩٥٢. وبدأ أول اتصالاته بالشيخ علوان وسهيل العطار، والأخيار من أهل المشورة والرأي السديد والأمر المطاع والكلمة المسموعة؛ وأبلغهم أنه موجود هنا لحسم موضوع الفصل بشكل نهائي... فكان ردهم أهلاً وسهلاً

بأبي عبد الرحمن شرفت قريتنا وسلفنا وعلى الرحب والسعة، ونحن على أتم الاستعداد لأداء الواجب والمساعدة في أي عمل خير يرضي الله ورسوله.

وبعد صلاة العشاء تشكل وفد ثلاثي ضم أبي وعمي شاهر وعمي جابر؛ بدأ بزيارة بيت سهيل العطار واصطحبوه معهم إلى مضيف الشيخ علوان، حيث تم طرح جوانب الموضوع بكل تفاصيلها، ووعدهم الشيخ أنه سينضم إليهم بعد ظهر الغد إلى صريفة غافل درويش حيث سيتم ختم الموضوع بالشمع الأحمر نهائيًا بعون الله.

• • • •

عشت ليلة الصبر المر الممزوج بعذوبة الأمل في رحلة الخلاص النهائي من قيودي، صحيح امتلكني شعور جارف أنني حرة ونظرت بتفاؤل إلى النصف المملوء من القدح، ولكنني ظللت في أحضان أفكاري المتقاطعة وهواجس ظنوني المتناقضة، كنت أراها أمامي ترافقني أينما ذهبت وأينما حللت في صحوتي ومنامي!! كلما تذكرت شرط غافل درويش الذي فرضته زوجته أم خلف في مجلس العشيرة الأخير، ويظل الأمل يراودني بقوة وما كان ليخيب أملي أبدًا فيما وعدني به أهلي وعمومتي، حتى عاد أبي ومن معه مساء اليوم التالي من

بيت غافل حيث كانوا هناك لحسم الموضوع، عادوا مكفهرين عابسين يجروا ذيول الخيبة والخذلان.

لم أكن ساعتها في حاجة ماسة لمن يشرح لي الموضوع ويوضح الأمور بدقة، لقد فهمت بالفراسة وبما لا يقبل الشك صلب الموضوع ولُبّ ما جرى، من خلال نظرة واقعية حقيقة للوجوه المكفهرة العابسة المحتقنة بالغضب، والتي لم تستفق بعد من هول الصدمة وذهول المفاجأة، لا أطيق منظر كهذا باتت فيه خيبة الأمل واضحة جلية.

قلبي دليلي حين سمعت كل شيء من خلال الصمت المطبق الذي أحاط بهم كما أحاط بهم باقي الأسرة، تكالبوا بالتدافع حولهم وهم يمطروهم بوابل من الأسئلة والاستفسارات عما جرى وحدث هناك... وهم صامتون، ثلاثتهم صامتون ينظر أحدهم بوجه الآخر وكأنه يتعرف عليه لأول مرة، وقد أذهلتهم المفاجأة وأصابتهم بالدهشة، إذ قبل غافل مبلغ خمسة وسبعون دينار بدلاً عن ذمة ثلاث بنات فقط، ورفض وبإصرار قبول الخمسة والعشرين دينار الأخيرة عن البنت الرابعة وأصر على أن تكون هذه البنت "هي عزيزة"، الفصلية الوحيدة تنفيذًا لشرطه السابق الذي قبله الجميع... أهلي أو الشيخ أو الوجهاء، وقال يذكرهم بوجه مفعم بالتجهم كالحًا ينذر بالشر:

- يا جماعة الخير، هذا كان شرطًا أساسيًا لنا وأنتم قبلتم به، ونحن من جانبنا لا نتنازل عنه أبدًا.

فبادره أبي بحزم:
- شرط قبلناه رغمًا عنا في حينه لسد باب الشر المفتوح بيننا... كل أملنا أن الأيام التالية ستلين القلوب وتصفي النوايا وتجبر الخواطر بالنسيان والمغفرة والتسامح.
وعاد غافل يقول مؤكدًا بإصرار لا يلين:
- هذا رأيكم أنتم، وليس رأينا، وأنتم أحرار ترون ما يناسبكم.
خزره والدي بنظرة احتقار صلبة دون أن ينبس بكلمة، فعاد غافل يتساءل مؤكدًا:
- صحيح يا شيخ.. صحيح يا جماعة؟ لو أني غلطان؟
لم يستطع الشيخ مداراة حيرته وإخفائها، أعلنها بأسًا وحصره بروحه ولسانه وبصوت مرتفع بعض الشيء:
- صحيح يا غافل لكن نحن لا يجب علينا أن نجعل من الشروط همومًا ثقالاً نحملها على رؤوسنا وأكتافنا، كما تحمل الشموع النار على رؤوسها، فنحترق ونذوب كما الشمع يحترق ويذوب.
وهنا خرجت أم خلف من مكمنها بعينين حمراوين يتقاذفان شررًا كعيون نمرة شرسة وقالت بعصبية:
- هذه ليست شروط فقط يا شيخ علوان، هذه شروط وعهود ووعود أيضًا، ونحن تشارطنا وتعاهدنا، وعودنا دين علينا يجب الالتزام والوفاء بها.

خرس الشيخ علوان وانعقد لسانه ولم ينبث بكلمة واحد، ولم يُبد حراكًا كأنه اعترف بحق وَرَدَ بقولها أنساه كيف يتكلم ، وضاعت منه أبجدية المنطق التي طالما خاطب بها فرسان الحديث والمنطق في دواوين الشيوخ ومجالس الأعراف ومضايف الأحداث، وهكذا بدا الأمر بالنسبة له!!

فقال سهيل العطار متسائلاً وقد استبد الذهول والعجب في عينيه:

- لماذا عزيزة؟! لماذا عزيزة بالذات؟ هي مثل باقي البنات، ما الفرق بينها وبينهن؟!!

انعقد حاجبيها وتقاربا وضاقت عيناها ومدت عنقها نحو الرجل وقالت بنبرة غاضبة تنم عن حقد دفين بين طيات نفس خبيثة شريرة:

- عزيزة.. عزيزة خطيبة حسن وجميع أهل السلف والقرية يعرفون قصة الحب التي تجمعهم ، ومثل ما قتل حسن ابني خلف، وحرمه من شبابه وحياته أريد أن يبقى حسن في سجنه يقضي شبابه هناك وأحرمه من عزيزة وأحرم عزيزة منه ، وأحرق قلوبهم كما احترقت قلوبنا ، وسأمنحها هدية مجانية ، هبة بلا ثمن لأسوأ رجل في العشيرة ليذلها ويذل أهلها... وهذا وعد مني...

هكذا نفخت الأفعى نفسها ونفثت سمومها وانتزعت جلد أحقادها الملوث ونشرته على أكتاف حسن وعزيزة ، ولكن

والشهادة لله رفض الحضور هذا المنطق وأعلنوا عن غضبهم منه وسخطهم عليه، فاقترب الشيخ منها وملامحه ترتجف من الغضب والحنق وقال بصوت لا تخلو لهجته من امتعاض شديد:

- عيب... عيب، عيب هذا الكلام ومرفوض يا أم خلف... نحن سبق وأن قلنا إن الحادث عرضي لم تكن عواقبه محسوبة على هذا النحو، لا على القاتل ولا على المقتول، وكان من الممكن أن يكون الواقع معكوسًا وضربة خلف هي القاتلة لحسن... ماذا سيكون موقفك في هذه الحالة؟ ثم إن عزيزة واحدة من بناتنا لا نريد لها الذل والهوان، هذه المسكينة لا ذنب لها، والذي يستر بنات الناس وأعراضهن يستر الله عليه في الدنيا والآخرة.

وقفت أم خلف مكانها في مواجهة الرجال وهي تحملق في الوجوه، أرادت أن تقول شيئًا لكن سهيل العطار قاطعها لا يريد لها أن تتكلم، وبادرها الحديث بصوت أكثر حدة لا يخلو من اللوم والعتاب:

- لا... لم نكن نتصور أن هذا الكلام تقوله أم خلف التي كنا نعتبرها أم وأخت لنا جميعًا، ونفتخر بحكمتها ورجاحة عقلها، وإن لم أستمع لحديثها بنفسي لما صدقت... وما كنت لأصدق لو نقل لي شخصًا آخر حديثًا كهذا عنها.

فعاد غافل يقول قولاً يدافع به عن زوجته ويبرر موقفها وقال بهدوء:

- اعذروها يا جماعة، اعذرها يا شيخ، هي تحمل في صدرها قلب أمٍّ مكلوم لفقدها ولدها البكر ، فلا تلوموها وتكثروا من لومها.

قام الشيخ من جلسته وقال كلمة حق ممزوجة مع بعض الغضب والاستياء:

- يبدو أن مشكلتنا مع أم خلف وليس مع غيرها ، ((يقصد غافل درويش)) كان يجب علينا أن نرسل نسائنا جاهة بدلاً عنا ومادام الأمر كذلك فأنا خارج ولن أدخل هذا البيت مرة أخرى مادمت حيًا، لن أدخل بيتًا لا قدر لي فيه ولا قيمة ولا يحترم أهله كلمتي، وهذه محسوبة عليكم يا أبو خلف ويا أم خلف.

وبنهوض الشيخ من جلسته وهو يهم بمغادرة صريفة غافل أمسى من الأصول أن يفعل الحاضرون معه فعلاً كفعله ، وينهضوا من مجالسهم ويهموا بالخروج هم أيضًا ، لكن... سهيل العطار كان له رأي آخر إضافي ، فلم يرغب بقفل الموضوع على هذا النحو فاقترح وهو واقف عند الباب أن يمنح بعض الوقت إلى أم خلف لتراجع نفسها وتغير موقفها فقال وهو ويجمع قواه المتهالكة فيما يشبه التحذير:

- لا يجب علينا أن نيأس ونعتبر كلام أم خلف هذا قطعي ونهائي... ولذا أرجو أن نمنح الفرصة للجميع لإعادة التفكير بمواقفهم وسنعود لكم يا أبو خلف بعد يومين أي بعد غد... والآن نودعكم بالسلامة.

لكن عمي شاهر قال بفرح مصطنع كأنه سمع خبرًا سارًا:

- ونحن من ناحيتنا سنرفع المبلغ المخصص لفك ذمة عزيزة إلى خمسين دينارًا. ها... ما قولك يا شيخ علوان؟ ها ماذا عن رأيكم؟ وماذا تقولون يا جماعة الخير؟

فرد الجميع عليه بلسان واحد وكأنهم شخص واحد:

- بارك الله فيك يا أبو عبد الرحمن... بارك الله بك، والله ما تقصر، أنت من أهل الزينات، وأنت السيف المجرب.

ورد عليه الشيخ مؤكدًا:

- إذًا المسألة تنحل بالمال... سهلة إن شاء الله كلنا في خدمة الطيبين.

وهكذا خرج الوفد من بيت غافل دون نتيجة تذكر وفي الطريق أخذ سهيل العطار يهدئ من ثورة أهلي ويخفف عليهم غضبهم، وأخبرهم أنه سيزور بيت غافل بعد غد برفقة إمام المسجد وبعض السادة، واقترح عليهم ألا يحضر أحد منهم مع هذا الوفد لعل أم خلف تهدأ وتقلل من عنادها عندما لا ترى أحد منكم، لعلها تغضب وتثور وتصر على عنادها عندما تراكم... فوافقه الشيخ على رأيه هذا وحثه على بذل المزيد من النشاط،

وقال الأمر لم ينتهِ بعد وأن محاولاتنا مستمرة... نرجو عدم اليأس والصبر قليلاً.

فتح عمي بابًا واسعًا حين ناشد سهيل العطار ألا يقفل حدود المبلغ على رقم معين ومنحه تفويضًا برفع المبلغ استجابة لرغبة أم خلف، أبقى الجميع في ذهول بين مصدق ومكذب لكنه طمأنهم قال بوضوح:

- صدقوا... أنا عند كلمتي لا أمزح ولا أكذب أبدًا.

(١١)

أخبار تثير في نفسي الرعب والخوف والهلع ، هل يحمّلني زماني أحمالاً لا أطيقها؟ آه يا عزيزة... امتحان جديد، الويل لك ، أم هو مخاض جديد كأنك بعد أقل من خمسة عشر عامًا ستولدين مرة أخرى... أين سيرسو زورق حياتك ، على أي مرسى وميناء؟ مرسى أم خلف وعنادها أم مرسى الدنانير؟ لا بل هو الضياع... ضياع زورقك وسط عباب البحر المتلاطم الأمواج، لا ولن يصل إلى مرسى آمن أبدًا وسيكون قاع البحر هو مصيرك المحتوم ومثواك الأخير...

في اليوم التالي تذكر أهلي ما جرى في بيت غافل يوم أمس، اقترح والدي أن يحبس مبلغ المائة دينار ويحجب بأجمعه ولا يسلم منه شيئًا إلى غافل حتى يوافق على فك ذمة عزيزة مع باقي البنات ، اعترض الباقون على هذا الاقتراح ولم يوافقوه بحجة أنهم في هذه الحالة يؤخرون ما عليهم إلى ما بعد الأربعين يومًا ، ومن ناحية أخرى يعرقلون فك ذمة البنات الثلاث من أجل البنت الرابعة ، واقترح عمي شاهر أن يتم تسليم مبلغ الخمسة وسبعون دينارًا عن البنات الثلاثة حتى يمكن التفاوض بسهولة على فك ذمة البنت الرابعة والتي هي

عزيزة بكل تأكيد ، ثم دعاني للجلوس إلى جانبه وهو يجعل المبلغ المطلوب لفك ذمة عزيزة ولا يقفله برقم معين ثابت لا خمسة وعشرون ولا خمسون ولا حتى مائة ، وقال الرجل متأثرًا وهو يضع يده على رأسي ويداعب بأنامله خصلة من شعر رأسي تدلت على جبيني:

- إنه وعد يا عزيزة بفك ذمتك مهما كان المبلغ الذي سيرفعه غافل، وسأفعل وسأفي بوعدي حتى لو دفعت كل ما أملك، كل أموالي ونفسي فداك يا ابنتي.

ثم احتضنني ووضع رأسي على صدره حتى سمعت دقات قلبه كأنها تنبض بداخلي، وعلى هذا النحو وفي كل مرة أصل بها إلى حالة اليأس والقنوط، وأصبح على أهبة الاستعداد لأسلم أمري إلى الله، وأعترف بسوء مصيري المحتوم، إذا ببضع كلمات كمسكنات الآلام تتلقفها أذناي وأستمع إليها ، أتلقاها رخيصة مبتذلة من أهلي، سواء كانت أمي أو أبي وإخواني حتى عمومتي وأولادهم... كلمات تعيدني إلى الخلف قليلاً ، كلمات تزيح عن نفسي ولو مؤقتًا ما يملأها ويكاد يخنقها من ضيق ويأس ، كالمحكوم عليه بالإعدام ويؤجل تنفيذ حكم الإعدام فيه بانتظار قرار حكم الاستئناف، أو الشاة التي يؤجل ذبحها بعد كل يوم يزورها قصابها فيجدها غير صالحة وغير مؤهلة للذبح الآن، لكنها ستنحر حتمًا يومًا ويفصل رأسها عن جسدها.

لا تقلقي... لا تخافي... لا تحزني... لا تيأسي، لا... لا... ومن ناحيتي، لابد أن أخشى، أخاف، أن أفقد توازني، بدأت أخشى من نفسي على نفسي أكثر من خوفي من أولئك الناس الذي يحيق ظلمهم بي، هل أفقد السيطرة على تصرفاتي بعد أن يفلت من يدي زمام الأمور، فعلاً إنه مأزق وضعت به قسرًا...

رأى عمي شاهر أن الأمور أصبحت سهلة وميسرة بعد أن استلم غافل مبلغ خمسة وسبعون دينارًا بسهولة، وفك راية العباس أبو فاضل التي عقدها عن ثلاث بنات، ليبقي على عقدة واحدة... عقدة شرطه على البنت الرابعة فقط.

حُلت جميع المشاكل والمسائل المتعلقة بحادث قتل خلف، من مراسيم دفن المرحوم حتى حل عقدة البنات الثلاثة، ولم تبقَ إلا عقدة عزيزة التي رفض فك ذمتها وحل عقدتها!! وأصر على تنفيذ شرطه، وكأن عزيزة هي التي قتلت ابنه أو حثت حسن على قتله أو قتل بسببها ومن أجلها! وقال بعبارة صريحة لا تقبل التجزئة وليس لها أكثر من شرح واحد:

- ينبغي ألا نعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى، فأنا لا ولن أتنازل عن شرطي هذا أبدًا، وما أن تنتهي الأربعون يومًا والتي بقي منها ثمانية وعشرون يومًا فقط، أقل من شهر؛ حتى أطالب بتنفيذه.

حقًا أصبح الأمر لا يحتمل ولا يطاق فعلاً... لا أستطيع حل هذه المشكلة التي تسوء يومًا بعد يوم، إنه من المستحيل علي حل عقدتها وأنا أتعرض لواقعة مثيرة من وقائع الظلم والاضطهاد، رحلت مع أهلي إلى البصرة في السابع من كانون الثاني نفس العام، هذا اليوم هو اليوم الذي بدأت أسرتي بالرحيل من لواء إلى آخر، سكنا في منطقة الفيصلية(١) محلة الصائبة بالقرب من بيت عمي كامل بينما سكن عمي جابر في الطويسة(٢) حيث يسكن عمي شاهر.

انتهت فترة الأربعين يومًا في ١٩٥٢/٢/١ بعد ٢٦ يومًا من رحيلنا صدر خلالها الحكم على حسن بالسجن عشر سنوات بتهمة القتل غير العمد، يا لي من إنسانة تعيسة سيئة الحظ وأنا أتلقى خبرًا كهذا، حسن الذي كُتب عليَّ أن أنساه، نسيانًا تامًا وإلى الأبد، وكأنه لم تربطني به علاقة حب عميقة وصلة قُربى حميمة، انطفأت شعلة الضوء الوحيدة وبدأ ظلام ليلي دامس، هنا فقط وفي هذه الأوقات علمت بأهمية حسن في حياتي.

• • • •

---

(١) الفيصلية : من نواحي البصرة، جاءت تسميتها من اسم الملك فيصل ملك العراقي، أُستبدل اسمها بعد الثورة إلى محلة الجمهورية... ومحلة الصائبة جانب منها تسكنه الأقلية الدينية المعروفة في العراق وخاصة بالجنوب والمعروفة باسم "الصائبة المندائيون".

(٢) الطويية : من نواحي البصرة وأحيائها الشعبية.

طلب الشيخ علوان تمديد فترة الأربعين يومًا المنتهية إلى ثلاثين يومًا أخرى ليمنح الفرصة ومزيد من الوقت لجهوده وجهود أهل المروءة لدى غافل... استمرت الجهود بلا هوادة ولا انقطاع طيلة الثلاثين يومًا الإضافية الأخرى، لكنها انتهت دون أن تتفتت صخرة العناد أبدًا على الرغم من رفع المبلغ من خمسة وعشرين دينار ذلك الوقت إلى خمسمائة دينار، أعني عشرين ضعفًا... ولأعطي فكرة عن مبلغ الخمسمائة دينار ذلك الوقت فقد اشترى عمي شاهر بستانًا مساحته عشرين دونمًا مزروعًا بالنخيل والفواكه وبداخله دار حديثة مساحتها ٢٠٠ متر مربع مبنية بالطابوق ومسقوفة بالحديد الشيلمان؛ اشتراه فقط بمبلغ أربعمائة دينار، ويعتبر هذا السعر مرتفع نوعًا ما لأن موقع البستان قريب من مركز المدينة ويعتبر جزءًا منه!.

وأعادت أم خلف على مسامع القوم وحلفت يمينها مرات عديدة ألا تفك ذمتي أبدًا، وإنها ستزوجني من أسوأ رجل في العشيرة... وهكذا كان... وهذا ما فعلت...

لقد وفت بوعدها وزوجتني لأسوأ رجل في العشيرة وبالدنيا كلها، وهو شقيقها الأكبر، أي خال خلف، وبمقابل مائة دينار فقط، لنتابع معًا نتائج الأحقاد وما فعلته وستفعله، لقد رفضت مبلغ الخمسمائة دينار الذي عرضه عليها أهلي، وباعتني إلى شقيقها بمائة دينار فقط، كل هذا من أجل أن تنتقم من حسن

وتذله في سجنه، وتذلني معه وتنتقم مني لأنني أحببته وأحبني، هذا الرجل اسمه "موسى" ، عمرة ستة وأربعون عامًا وهو بذلك أكبر من أبي بأربع سنوات!. وأنا من مواليد ١-٧-١٩٣٧ وهذا يعني أن أمامي أربعة أشهر أخرى حتى يصبح عمري خمسة عشر عامًا، وعمره بذلك ثلاث أضعاف عمري بالتمام والكمال وزيادة.

دون أن أدري كيف دارت عجلة الزمن لتمتد يد القدر وتقطف ثمرة عمري اليانعة الناضجة، وتطفئ نور شمعته المتوهجة وفي أول توهجها، وليس هناك من يذل وينتقم منه غيري أنا بعد أن باتت خيبة الأمل واضحة جلية فإني لن أتردد في ترك كل شيء وأهرب أو أقدم على عمل مثير وخطير.

موسى هذا لم أره من قبل ولم أسمع عنه أبدًا، ولكنني سمعت عنه حين ورد اسمه في الأيام القليلة الماضية أنه كان يلقب بأسوأ الألقاب عندنا في السلف عندما كان صبيًا ومطلع شبابه، ومازال لقبه هذا يطلق عليه مرادفًا لأسمه ومتممًا له كل ما ذكر وأين ما ذكر وكيف ما ذكر.

وهذا اللقب يطلق عندنا بالعادة على الشواذ جنسيًا من الذكور الذين يمارسون الجنس مع ذكور مثلهم بعمرهم وخاصة مع الأطفال والصبية الصغار ، وقد ضبط أكثر من مرة وهو يمارس شذوذه الجنسي هذا في المزارع وخرائب السلف

والقرية كفاعل أحيانًا ومفعول به في أحيان أخرى، في وقت لم تكن المثلية معروفة في شكل واضح وصريح حتى في أوروبا وأمريكا. ظل يلقب هكذا حتى غادر قريتنا مهاجرًا وارتحل إلى العاصمة بغداد وعمره خمسة وعشرون عامًا وبدأ عمله هناك كعامل بناء بالأجر اليومي بالإضافة إلى ممارسته عاداته الجنسية.

أصبح خلفة في البناء وتعني "أسطة أو معلم" في بعض البلاد العربية الأخرى، ثم طور عمله بعد ذلك وأصبح مقاول لأعمال البناء للراغبين في بناء بيوت جديدة ، دون أن يتوفر لديهم الوقت الكافي لمتابعة أعمال كهذه ، مستفيدًا من النمو الاقتصادي لعراق النفط والدولة الحديثة الناهضة والانفجار السكاني الكبير وتوسع المدن في عراق ما بين الحربين العالميتين وبعدهما. انتهز الفرصة وتمكن من جمع ثروة لا بأس بها وأصبح من الأغنياء الذين يمكنهم شراء أي شيء وكل شيء إلا الحب الحقيقي واحترام الناس لهم.

تزوج موسى من زوجتين ، وعندما أعجب بالثالثة وأحبها ورغب بالزواج منها وتقدم لخطبتها؛ اشترطت عليه أن يطلق زوجتيه اللاتي على ذمته ، واستجابة لنزواته القذرة العابرة سرعان ما فعل ونفذ شرطها وطلق زوجتيه بالثلاثة وتركهن في الشارع مع ستة أطفال لهن منه، أربعة أولاد وابنتين بلا

مأوى أو مورد مالي يسترزقن منه غير ما قررته المحكمة الشرعية لهن ولأطفالهن من نفقة شهرية.

أما زوجته الثالثة التي تزوج منها بعد ذلك فقد توفيت رحمها الله أثناء عملية قيصرية لولادة عسرة هي وطفلها الأول الذي حملت به منه، وبقي موسى بعد ذلك أعزب بلا زواج لأكثر من ثلاث سنوات، بحث خلالها عن أصدقاء السوء وجمع عددًا منهم والتف حوله جمع من الانتهازيين وضرابي "الوير" والعشت(١)، تعلم منهم احتساء الخمر ومطاردة النساء بائعات الهوى، على حد علمي إلى درجة الوثوق أن هذه ليس من عاداته سابقًا لكنه أدمن عليها لسد الفراغ الأسري والعائلي ولقتل بعض الوقت الفائض بعد طلاقه لزوجتيه ووفاة الثالثة.

صار لحب الخمر وإدمانه مكانة خاصة في نفسه يمارسها كل ليلة في أوقات ثابتة، أما حب النساء بالجري المخزي ورائهن ممارسة أخرى تناثرت وتبعثرت أوقاتها، فهو على استعداد تام لترك أعماله وواجباته أمانة غير مصانة بين أيدي مساعديه غير المخلصين ليلبي نداء طارئ وعاجل مع واحدة منهن، وهو لا يبالي كثيرًا بشكل المرأة وهيأتها، بيضاء أو سمراء طويلة أم قصيرة نحيفة أو ممتلئة، ولا يهتم لعمرها صبية

---

(١) الوير : أن يدفع أحدهم حساب المائدة التي يستهلك أكلها ومشاربها شخص أخر غيره، ليتكلف بعد ذلك المتطفل بنطق كلمة "عشت" أبو فلان.

صغيرة كانت أم عجوز كهلة ، ولا لوضعها الاجتماعي ولا حتى في مستوى جمالها ، فهو يحب مجاملة أنواع النساء واحتساء وكرع جميع أصناف الخمور!

وهواياته هذه علنية لا يتحفظ أبدًا على التستر في مزاولتها، بل هو يسرد لأصحابه كل ليلة من ليالي السهر والسمر روايات كثيرة عن مغامراته الجنسية والعاطفية ، وبطولاته الفذة في مقارعة النساء، وشجاعته النادرة في مباطحة الصبية الصغار والشباب اليافع من الذكور والمثليين من أقرانه على حد سواء.

حتى عثر عليّ عن طريق الصدفة، الصدفة البحتة فقط حين علم بوجودي عن طريق عائلته، أخته أم خلف، ولعل وجوده كان سببًا رئيسيًا وأساسيًا في عناد أم خلف.

صبية صغيرة في مقتبل العمر لم تصل بعد إلى الخامسة عشر من عمرها وأمامها أربع شهود أخرى حتى أصبحت أمله في إشباع رغباته الصامتة في ملذات نفسه، والعلنية الصارخة في شهوة جسده، لكن خيبت أمله في ما سأرويه لكم لاحقًا ، فزاد في هواياته المبتذلة كأنه يهرب من نار جحيم إلى سعير جحيم آخر أشد ظلمًا وأعنف، لأني أدركت تمامًا حين يتراجع الحب متقهقرًا ويهرب وهو غير موجود أصلاً بيني كزوجة وبينه كزوج يحل الاستهتار بالحياة الزوجية والشهوة القذرة

العابرة... وهذا ما حصل فعلاً، ليس لموسى وحده إنما لي أنا ومعي أيضًا!، مع اختلاف الظروف واختلاف الأدوار.

• • • •

ليس لقبه الذي تركه في السلف خلفه لقبه الوحيد، بل له ألقاب غريبة ونعوت عجيبة أخرى؛ يلقبه الأطفال والجيران في المنطقة التي يسكن فيها "طوبة كريكر" وهذه التسمية الشعبية عندنا في العراق للكرة المستعملة في لعبة كرة القدم، وذلك لأنه قصير القامة من ناحية، سمين الجسم من ناحية أخرى، يبدو بمظهره هذا كأنه الكرة، كل شيء فيه مكور يشبه الكرة...

رأسه كبير مكور يتوسطه أنف مكور كبير، واسع المنخرين جاحظ العينين له شامة سوداء كبيرة كأنها حبة قهوة تتوسط خده الأيمن، تزيد صورته قبحًا على قبح وتملأ جبهته الخطوط الطولية المتعرجة، وخطوط عمودية أخرى على جوانب وجهه بمجملها خطوط عشوائية تُشبه خطوطًا لطفل يعبث بقلمه الرديء على ورقة قديمة أو خطوط لرسام مبتدئ على جدار قديم... ولله سبحانه في خلقه إرادة وله حكمة، يعطي كل منا ما يعطي ويحجب أو يأخذ منا ما يأخذ ليبقى الكمال له وحده سبحانه وتعالى.

يدفع أمامه كرش منتفخ، ويسحب خلفه عجيزة مملوءة تنافسه وتساويه في الحجم والوزن والمقدار وتعاكسه في الاتجاه، الفائدة الوحيدة لها هي الحفاظ على توازنه فقط حتى لا يميل بجسده العريض الأكتاف إلى جانب دون آخر، وبذلك يطبق عليهما قانون الفعل ورد الفعل تمامًا.

"جاموسة" لقب آخر له في محل عملة وبين العاملين معه على الرغم من إنه رئيسهم في العمل وولي نعمتهم، في البداية إذا شاهدوه قادمًا من بعيد أو أحسوا بقدومه ينتخي أحدهم ويقول: جاموسة... جاموسة، ويريد بقوله هذا جاء موسى[1] فينادى الجميع من بعده: جاموسة... جاموسة... جاموسة، ثم صارت هذه الكلمة لقبًا مميزًا له لما عليه من أوصاف جسدية ومظهر خارجي ملائم يشبه شكل الجاموسة تمامًا.

---

(١) في لهجتنا العراقية نرفع الهمزة وتحول الألف المقصورة إلى تاء مربوطة أحياناً وهكذا تحولت "جاء موسى" إلى "جاموسه"، وجاء يحيى إلى "جايحيه"، وجاءت ليلى إلى "أجت ليلة" وهكذا.

(١٢)

فطن موسى إلى ما هو عليه من حال مزرية، فلا حب حقيقي في حياته ولا هيبة عنده ولا احترام له أينما حل وأقام، لقد فقد الحب والاحترام وضاعت هيبته ومحيت شخصيته من جميع الناس الذين حوله، ابتداءً من أسرته التي غدر بها وتخلى عنها لقسوة زمان لا يرحم، إلى جيرانه بالسكن إلى العاملين معه... إلى... إلى... إلى! لا تستطيع أن تشتري الحب الحقيقي واحترام الناس بالمال أبدًا!.

بعد فطنته هذه حاول إصلاح ما يمكن إصلاحه... لكن هيهات أن يصلح العطار ما أفسده الدهر، فبادر أولاً إلى استبدال اسمه من (موسى) بصفة رسمية في سجل النفوس المدني العام إلى اسم آخر، فحمل أولاده وأسرته اسمه الجديد[١]... ومع ذلك بقي

---

(١) امتنعت عزيزة عن ذكر الاسم المستبدل الجديد لموسى ورفضت رفضاً باتاً ذكر الأسماء الحقيقة لأولاده وبناته الستة بحجة أنهم أشخاص مرموقون ومعروفون في المجتمع والدولة العراقية على المستويين الشعبي والرسمي وسيتعرف عليهم القارئ بسهولة إذا ما ذكرت أسماءهم... وقد باءت محاولات المؤلف ورجاءاته بالتعرف على الأسماء الحقيقة بالخيبة، حتى كاد مشروع نشر الرواية يبوء بالفشل، لذا سنمنحهم أسماءً وهمية من عندنا حتى لا يضيع القارئ العزيز متعة متابعة الأحداث.

اسم موسى ملتصقًا به متشبثًا بتلابيبه لا يرغب بفراقه أبدًا في السلف وفي القرية وعند الجيران ومع العاملين معه وبين أصدقائه ومعارفه، ظل اسمه موسى لم يتغير وبالتالي فشلت خطوته هذه فشلاً ذريعًا.

حاول أن يبدو محترمًا لسد الثغرة في ضعف شخصيته؛ فكان يظهر دائمًا أنيقًا بملبسه مهتمًا بمظهره الخارجي، معطرًا بأزكى العطور وأطيبها ومن أرقى الماركات العالمية، جادًا في حديثه يتحدث بصيغة الواثق من نفسه يزهو مفتخرًا بعصاميته، وكلمة حبيبي على طرف لسانه دائمًا ينطقها بوجه من يتحدث إليه، لا يترك فرصة للطرافة والنكتة أن تمر دون أن ينتهزها، وإذا غضب على أحد فإنه يقول له "والله أفقس عينك" سريع الغضب بطيء الرضا، مرات عديدة يغتاظ بلا سبب ويعود مرة أخرى بلا سبب ودون أن يرضيه أحد.

كيف لي أن أحب وأعشق رجلاً مثل موسى هذا وأخلص له... موسى هذا الذي ارتبطت به رغمًا عني ودون إرادة مني، ودخلت بيته لأول مرة في ١٩٥٢/٣/٧ وهذا هو التاريخ الأسود، بل الأكثر عتمة وسوادًا في حياتي. كأني مت في هذا اليوم لأول مرة وأخر مرة، إنها أمنيتي الوحيدة وليس لي أن أموت مرة أخرى... لأن الإنسان يموت مرة واحدة بعد حياة واحدة يعيشها ويحياها، فأنا عشت أقل من خمسة عشر عامًا

من عمري فقط في بيت أبي، حتى دخلت بيت موسى ودفنت فيه، وها أنا أعيش الآن في آخرتي... في جهنم وبئس المصير.

آه.. آه.. يا لي من ضحية أدفع ثمن جريمة ما اقترفتها وليس لي ذنب فيها... وأحتمل سوء العاقبة وحدي!! وكأن ليس في هذه الدنيا من يعاقب غيري... ويا له من عقاب صارم وقاسي، فيما يلي من عمري سأعيش وقائع جديدة من وقائع الظلم والاضطهاد، وسأرسم لنفسي طريقًا أسير به على هواي في محاولة لتصحيح بعض الأوضاع، لا أدري أبدًا وأنا أبدأ بالتنفيذ ما إذا كنت أسلك الطريق الصحيحة أم طريق الخطأ.

موسى هذا رجل لا ذمة عنده ولا أخلاق له ولا وفاء به، باع زوجاته وترك عرضه وتخلى عنه وعن أولاده، أربعة ذكور واثنتين من البنات في الشارع من أجل زوجة ثالثة... بل من أجل نزوة، أي ضمير يحمل هذا الرجل وأي ذمة يتحلى بها، هناك أربعة أولاد وبنتين لا يعرف عنهم شيئًا وهم في حضانة أمهاتهم المطلقات ولا وقت عنده يكفي لزيارتهم والسؤال عنهم وربما لا يستطيع التعرف عليهم إذا التقى بهم يومًا... ولم هذه الكلفة ومضيعة الوقت، يكفي أن نفقاتهم ونفقات أمهاتهم الشهرية تصل باستمرار وحسب الأصول.

وبقي هكذا لا يسأل عن أولاده ولا يعرف عنهم شيئًا حتى تعرفت عليهم عن طريق الصدفة بعد أكثر من سنة من دخولي

بيت والدهم، فوجدتهم شباب بالغي الرشد، رجال ونساء على مستوى عالي من الثقافة والتعليم والأخلاق الحميدة الراقية، حتى عجبت واستغربت وتساءلت كيف لرجل مثل موسى ينجب أولادًا وبناتٍ على هذا المستوى اللائق على رغم الظروف الحرجة التي تحيط بهم، فأكبرت بأمهاتهم دور المرأة. المرأة الأم على تربية أولادها التربية الصالحة وتنشئتهم النشأة الصحيحة مهما كان دور الأب في حياتهم، على الرغم من كل الظروف القاهرة وها هم أولاده:

- صادق: أكبر الأولاد عمره أكثر من ثمانية عشر عامًا بقليل وهو بذلك أكبر من عمري بسنتين ونصف تقريبًا، متخرج من الدراسة الإعدادية "البكالوريا"، ترك الدراسة للموسم الدراسي الثاني على التوالي... امتنع عن إكمالها ليعمل ويساهم في إعالة والدته وإخوانه في حانوت للبقالة.

- أمين: عمره أكثر من ستة عشر عامًا بأشهر، فهو أكبر مني بشهور قليلة تقريبًا، طالب في السنة الأخيرة من الدراسة الإعدادية، ينوي ترك الدراسة والعمل بعد نيله "البكالوريا" كما هو الحال مع شقيقه الأكبر صادق.

- نادية: عمرها أقل قليلاً من خمسة عشر عامًا أنهت الدراسة المتوسطة وتركت الدراسة العام الدراسي الحالي، مكتفية بهذا المستوى من التعليم والأسباب اقتصادية أيضًا.

- نبيل: ثلاثة عشر عامًا ، أنهى الدراسة الابتدائية وترك الدراسة هذا العام... ويعمل في مطعم شعبي ليساهم بدوره في إعالة والدته وإخوانه.

هؤلاء الأربعة الذين ذكرت أسماءهم وأعمارهم وتحصيلهم الدراسي هم أولاد موسى من زوجته الأولى أو "الكبيرة" كما تسمى عندنا اجتماعيًا في العراق ، اسمها "بشرى" وعمرها حينئذ تسعة وثلاثون عامًا. لهم شقيق وشقيقة من الزوجة الثانية "الصغيرة" "إيمان" وعمرها ثلاثة وثلاثون عامًا:

- زينب: عمرها أربعة عشر عامًا في الصف الثالث المتوسط.

- فاضل: أحد عشر سنة طالب في الصف الخامس الابتدائي.

هؤلاء هم أولاد موسى ، وهذه هي أسرته الضائعة المتشتتة ، وهذه هي أوضاعهم الشخصية كل على انفراد ، أما وضعهم كمجموعة ؛ فقد كانت العائلة كلها تعيش في الكرادة الشرقية وهو ذات البيت الذي سكنته فيما بعد ، ويتكون من ثلاث غرف وصالة للاستقبال ومطبخ وحمام بمرافقه ، بالإضافة إلى حمام صغير آخر كاحتياط مع حديقة خلفية صغيرة.

لم تكن الأمهات على اتفاق دائمًا بل كان الخلاف والفرقة سمة مميزة للعلاقة بينهما والود مفقود ، مما أثر بالتالي على روح الألفة والتحاب بين شطري العائلة الواحدة ومنهم الأولاد. نقار دائم وخصام مستمر ، هل تحب الضرة ضرتها حتى وإن

استقلت كل واحدة لتعيش مع أولادها منفردة في بيتها الخاص بعيدًا عن الأخرى؟، فكيف سيكون الحال لو تقاسمن العيش في بيت واحد "شرايج"[1].

كانت شقة الخلاف بين زوجتي موسى "بشرى" و"إيمان" تتسع أحيانًا وتصبح الفجوة واسعة بينهما، وسعيًا لسد هذا الفراغ يلجأ أطراف النزاع إلى استعمال العنف شتمًا وضربًا بعضهما للبعض الآخر.

هكذا كان الحال داخل بيت موسى وهكذا كانت العلاقة بين زوجتيه وأولاده قبل طلاقهما، وبعد الطلاق جرّت كل واحدة منهما ذيول الخيبة والخذلان وفقدان الأمل مع حقائب ثيابها وما أنجبت بطنها من أطفال، وسكنت كل واحدة مع أهلها في بيت واحد بعيدة عن الأخرى تشرب من ماء الذل وتأكل الهوان مغمسًا بالصبر المر، يقاسيّن شظف العيش ويكابدن الفقر والعوز، ويجاهدن في سبيل لقمة تشبع البطون الجائعة والسعي الحثيث لتعليم الأولاد جهد الإمكان وعلى قدر المستطاع، بموارد شحيحة يحصلن عليها كنفقة شهرية من موسى وبعض المساعدة من الأهل والأخوة، مساعدة مغلفة بالمنة وقبح القول

(١) الشرايج : تطلق على الضرائر في العراق على أساس الاشتراك "شركة" برجل واحد وأسرة واحدة.

ورديء الفعل من زوجات الأخوة والأولاد الذين وجدوا بالوافدين الجدد منافسين غير شرعيين لهم في سكنهم ومعاشهم.

هذا هو المكيال الذي يكيل به موسى لأولاده وفلذات كبده ، وذاك هو المكيال الذي يكيل به لنفسه وأصحابه من أصدقاء السوء على موائد الرذيلة والانحطاط الخلقي، هكذا كان حال موسى وحال مطلقاته وأولاده وبناته في أوائل نيسان من عام ١٩٥٣ حين تعرفت عليهم صدفة في حفل زواج أصغر أشقاء موسى، وكنا جميعًا من بين المدعوين.

كثفت من تعرفي عليهم وسعيت بقوة من أجل غرض كهذا لغاية في نفسي، رجوت النجاح ودعوت الله بالتوفيق، وبعد زيارات لاحقة توثقت علاقتي بهم وتقبلوني أختًا وصديقة لهم لا زوجة أب، وتقبلتهم أنا أخوة وأصدقاء لي، خصوصًا وأنا في عمر مشابه ومقارب تمامًا لأعمارهم ، فاندسست بينهم وانسجمت تمامًا معهم وأصبحت واحدة منهم، دخلت قلوبهم وقلوب أمهاتهم ودخلوا هم وأمهاتهم إلى داخل قلبي وروحي، عرفت الحب فيهم من جديد بعد أن هجرني ورحل بعيدًا عني وكدت أنساه، وشعرت بسعادة كبيرة تغمرني لأول مرة منذ زمن بعيد.

طويت صفحة سوداء من ذكرياتي الأليمة ومحوت آثارها، وفتحت صفحة جديدة للحب والأمل والحياة، صفحة كبيرة

بيضاء ناصعة البياض، ولمحت وميض نور سرعان ما صار شعاع أزلي دائم الإبصار يقوم عثرتي ويضيء دربي بنوره الساطع، ليغطي كل المساحات وليمتد بعيدًا في كل الاتجاهات.

راعني وضعهم المزري بشكل عام وأغاظني وضعهم المادي والمعنوي، وتمزق قلبي لفرقتهم وتشتتهم في قطيعة تامة، لا يرى الأخوة بعضهم البعض ولا يعرف جانب منهم أخبار الجانب الآخر، وهم يعيشون في منطقتين متقاربتين لا تأخذ أكثر من عشر دقائق سيرًا على الأقدام، بشرى وأولادها تعيش في محلة عزات طويلات في شارع الملك غازي ـ شارع الكفاح فيما بعد ـ وابنها صادق يعمل لتوه مساعدًا لبقال في سوق حنون، بينما تعيش إيمان في منطقة جاحظ القاضي بين شارعي الرشيد والجمهورية، وهذه كلها مناطق بغدادية قديمة ومتقاربة جدًا، وضع كهذا لا أطيقه لهم ولا أقبله...

هرعت مسرعة لمساعدتهم وإخراجهم من هذه الوحلة التي طمسوا بها قبل غرقهم، ولكن كيف أساعدهم؟ وأي طريق أسلك؟ فكرت وقلبت الموضوع الكبير داخل رأسي الصغير، وسرعان ما اهتديت إلى الطريق الصحيح بعد اقتحام شارع الأفكار في طريق سريع ومستقيم ومختصر اقتنعت أن أسلكه، وهكذا وجدت نفسي فجأة أمام مسؤوليات جديدة، مسؤوليات خيرة نبيلة عادت بالخير الوفير علينا جميعًا.

اقترحت عليهم توحيد السكن والعيش معًا في بيت واحد كبير متعدد الغرف والطوابق يتسع للجميع، خطوة كهذه من شأنها ضغط المصروفات اليومية للأسرة فهي اقتصادية ما دامت ستوفر الكثير من النفقات، وكذلك فيها الخلاص الأكيد من منة الأهل وضجيج الأطفال وزحمة السكن في البيوت الضيقة والصغيرة، فيها الراحة للنفوس والأبدان، والأهم من كل هذا وذاك إنه يقرب بين الإخوة الأشقاء ويشد من وشائج القربى وينشر بذور الحب والوئام والألفة بينهم، وتعهدت بدفع الإيجار الشهري للسكن الموحد هذا. حاولت إقناعهم ، جوبهت بمعارضة شديدة ورفض قوي لمقترحي هذا ، فوجئت بما لم أكن أتوقع في الاجتماع الأول وبعض التردد في المحاولة الثانية وموافقة صريحة في المرة الثالثة.

استأجرت لهم دارًا في منطقة الأعظمية في بغداد، تكفلت بدفع إيجارها الشهري ، سكنوا بها جميعًا وانبريت وأجريت لهم مرتبًا شهريًا ثابتًا يعينهم على مجابهة أعباء الحياة والمعيشة اليومية، كل هذا مقابل الاستجابة منهم لشرط واحد فقط، هو توحدهم في سكنهم ومأكلهم وشربهم داخل البيت، ولهم الحرية الكاملة خارج البيت وأرفقت شرطي هذا بتهديد واضح وصريح أني سأمتنع عن دفع إيجار الدار السكنية وقطع الراتب الشهري عنهم إذا هم اختلفوا وافترقوا وتشتتوا، ولم أعد ملزمة بأي موقف مادي وإياهم في خلاف ذلك.

أعدتُ صادق إلى الدراسة والتحق بالجامعة، وكذلك عاد إلى الدراسة من سبق له أن تركها، واستمر الباقون في دراستهم، شجعت الأمهات على تعلم فن الخياطة والتفصيل لإذكاء روح الألفة والتعاون بين الطرفين، ونسيان أحقاد الماضي وقضاء أوقات الفراغ ومساعدة الأسرة ماديًا، توفرت القناعة عندنا جميعًا بضرورة هذا المشروع وأهميته وتعدد فوائده العظيمة، فسارعت لتنفيذه بشراء ماكينة خياطة نوع سنكر إنجليزية الصنع.

وبذلك أصبحت سندًا ماديًا لهم، جنبتهم شرور الفقر والعوز ومنة الناس سنين طويلة، حتى وقفوا على أقدامهم وتخرجوا جميعهم من جامعاتهم والتحقوا بوظائفهم وأعمالهم. وكذلك هم صاروا سندًا معنويًا لي حين وجدت نفسي فجأة وسط أسرة واحدة بل جزء مهم من أسرة متكاملة، أشاركهم ويشاركوني الأفراح والأحزان، عوضني بهم الله سبحانه وتعالى عن أهلي وناسي وأحبابي الذين تركتهم خلفي بعيدًا وانقطعت عني أخبارهم وانقطعت أخباري عنهم، وسيكون لهم في لاحق الأيام ومستقبلها وقفات مشرفة معي، هي نموذج حي ومثال فريد من نوعه في التضحية والإيثار ونكران الذات ورد الجميل أضعافًا مضاعفة بجمائل لا عدَّ ولا حصر لها، وإن أخرجتهم من وحلتهم مرة واحدة؛ أنقذوني هم من وحول طمست بها

مرات ومرات، حتى كدت أغرق وأشرف على الهلاك لولاهم ولولا وجودهم إلى جانبي.

لم أكن غنية وذات مال خاص بي حتى أنفق منه على أولاد موسى ومطلقاته على هذا الشكل، إنما كل ذلك من أموال والدهم موسى الخاصة والتي كنت أختلسها، وبعبارة أخرى أكثر صدقًا وصراحة ووضوح كنت أسرقها من جيبه ومن مكتبه وما يزيد عن حاجتي من مصروفي البيتي الخاص.

لم أكن أسرق المال من جيب زوجي لأنفقه على احتياجاتي وأغراضي الخاصة، وأصرفه تبذيرًا بلا معنى وفائدة كأني أذريه في الهواء، بل كنت أصرفه وأنفقه في سبيل تربية أولاده وبناته، حتى لا يتشردوا ويضيعوا في الدهاليز الضيقة والمظلمة لهذا الزمن القاسي الذي لا يرحم، لقد انتشلتهم من شارع الضياع ووضعتهم في جادة الصواب... وهذا ما أعتز وأفتخر به من خير أعمالي التي قمت بها في حياتي، وبدلاً من ذلك صاروا أربعة رجال وامرأتين في كل ما للحديث عن الإنسانية من معاني صادقة وواقع مشرق ومشرف.

فأكبر أولاده "صادق" حصل على الدكتوراة من جامعة أكسفورد البريطانية وصار حجة نادرة في مجال اختصاصه، اعتمدت عليه الحكومات العراقية في أوقات مختلفة، وتم تعيينه أستاذًا جامعيًا فترة ليست قصيرة قبل أن يصبح مديرًا عامًا

ورئيسًا لمؤسسة لها علاقة مباشرة وتمس حياة المواطن اليومية، وولده الآخر "أمين" مهندس معماري كبير أكمل مهنة والده كمقاول بطرق وأساليب عملية حديثة، مزج بها الخبرة العملية التي شربها خلال العمل في شركة والده في السنوات الأخيرة بالدراسة والتحصيل العلمي في كلية الهندسة ـ جامعة بغداد ـ بعد أن كان موسى يمارسها بطرق بدائية تعتمد على الخبرة العملية فقط.

والآخر "نبيل" محامي معروف ومرموق ، سنوات طويلة بالقضاء والآن موظف كبير في وزارة العدل العراقية، والرابع طبيب جراح معروف وله شهرة واسعة في العراق، وليس من بغدادي لا يعرفه أو سمع باسمه على الأقل، أما البنات "نادية" طبيبة متخصصة بالأمراض النسائية والتوليد ، و"زينب" مدرسة للرياضيات في المدارس الثانوية والإعدادية في أكثر من منطقة من مناطق بغداد.

هكذا أصبح أولاد موسى الستة بفضل ما كنت أختلسه وأسرقه كل ليلة من جيبه حين يعود بعد منتصف الليل سكرانًا ثملاً لا يعرف موقعًا لقدمه ولا أعرف أنا معنى لثرثرته ولما يقول من كلام ، ما كان لينام مباشرة بل أسمعه يغني أحيانًا بصوته النشاز أو يشاهد ما تبقى من برامج التلفزيون قبل أن تغلق المحطة وتتوقف عن بث برامجها أو الراديو هذا إذا أبكر في

مجيئه، أحيانًا أراه يخرج من الغرفة ليدخل المطبخ ويخرج منه إلى الصالة ومنها إلى الحمام كمجنون يبحث عن لا شيء ، وبوزنه الثقيل أشعر أن أرض الغرفة تهتز من تحت قدميه، أسمعه يسب ويشتم أشخاص لا أعرفهم ربما هم أصحابه في هرجه ومرجه أو مرؤوسيه وموظفيه في العمل.

عما يسببه بدأت بالصبر ؛ أولاً بدافع الخوف منه فقط وليس غير ذلك، ومع تلاشي الخوف تدريجيًا تصاعدت معي وعلى ذات المستوى تصرفات جديدة ومتجددة دائمًا وفي كل يوم ضد موسى ، اخترقت بوقت قصير حاجز الصبر المر ثم حاجز الصمت فالاحتجاج حتى وجدت نفسي يومًا أنهض من فراشي غاصبة لأعنفه، وفي اليوم التالي مباشرة سحبته من تلابيب قميصه وأدخلته إلى غرفته عنوة وأمرته أن ينام ويصمت ولا يحدث ضجة فاستجاب وامتثل ، حدث كهذا أعجبني كثيرًا وراق لي ، تعمدت تكراره مرات ومرات كأني أتدرب عليه استعدادًا للقادم من مواجهات صعبة ، كانت لتصرفاتي هذه الخطوات المشجعة الأولى لتحتقر زوجة مثلي زوجها وتتجاوز على شخصه أسوأ التجاوزات الأدبية والأخلاقية ، مرت بضربه ضربًا عنيفًا موجعًا وانتهت إلى ما هو أسوأ!

لا يعرف موسى ولا يدري كم من المبالغ يصرف وينفق كل ليلة على موائد الخمر... وربما موائد الـ...! برفقة أصدقاء

السوء الذين يحبونه حبًا مزيفًا لا حقيقًا من أجل أن يصرف عليهم، لا تستطيع أن تتسول حبًا لا يعطى ونستجدي احترامًا لا يمنح ، بل الحب والاحترام الحقيقيان لا يمكن شراؤهما بالمال وعلى موائد الرزيلة، أشياء كهذه لا تباع ولا تشترى وليس لها سوق معروفة.

إذن من هو الأفضل في عمله في صرف الأموال؛ أنا السارقة المختلسة أم موسى الخمار السكير الرعديد ؟ ، وبالمقابل شجعني الأولاد على تعلم القراءة والكتابة، وواظبت في دورية منتظمة يومين في الأسبوع، حيث كنت أزورهم في بيتهم كل يوم جمعة والعطل الرسمية الأخرى، بينما أعتمد في الدرس الأسبوعي الثاني على جارتي وصديقتي "هيام"، حتى أصبحت أجيد القراءة والكتابة وأطلع على الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية بشكل طبيعي واعتيادي، ولم أعد تلك الطفلة الفلاحة الصغيرة الأميَّة الساذجة.

(١٣)

هذا هو موسى الذي تزوجت منه وارتبطت به!

هل هناك من هو أسوأ منه؟

وهل مر بكم وبحياتكم من هو أكثر سوء أو حتى مثيلاً مشابهًا له؟.

يا لي من إنسانة تعيسة وممزقة وأنا أتذكر تلك الأيام، وكيف لي وقد عشتها فعلاً ، كيف لي أن أحب وأعشق رجلاً كهذا وأخلص له وأصون بيته وعرضه ؟ وهل أستطيع خلع حب حسن من قلبي وأرميه خارجًا وأستبدله بحب رجل آخر مثل موسى ؟ هل يمكن أن يحل شخص محل شخص آخر هكذا اعتباطًا وبكل سهولة؟.

وعدت أم خلف أن تختار أسوأ رجل في العشيرة، لقد وفت بوعدها حين وعدت وأحسنت الاختيار حيث اختارت ، لعلها تدري أن شقيقها هو الأسوأ، وهذا اعتراف وإقرار منها واضح وصريح!!

وبالمناسبة... في شتاء يوم معتدل الحرارة دافئ من الأيام الأولى للشتاء ؛ بدأت الغيوم السوداء تتجمع تشد أزر بعضها البعض متضامنة في حجب نور الشمس، لتحيل نهارها إلى بعض العتمة...

رنَّ جرس بيتي وكنت وحدي بداخله، حاملاً في شهري الثاني وقد مرت نحو تسعة أشهر لدخولي بيت موسى... لمحت الساعة المتوقفة عن العمل والمعلقة أمامي على الجدار، وجدت عقاربها تشير إلى السابعة وبضع دقائق، لست أدري لماذا توقفت عقاربها عن الدوران ربما نكاية بي، ولإغاظتي لأني نسيت ملء نابضها.

يا إلهي... أنا أتشاءم من الغيوم السوداء والرقم سبعة، كيف لي الاحتمال الآن وهما في زيارتي معًا؟ تتابعت رنات الجرس ومعها ألحَّ الطارق في طرق الباب كأنه على عجلة من أمره وأنا خائفة ومترددة! هل أفتح الباب، أم أترك الطارق حتى يمل وييأس؟ لست أدري فما زالت رنات الجرس متتالية، وحين فتحت الباب وجدت نفسي لأول مرة وجهًا لوجه أمام أم خلف هذه وعلى وجهها القبيح ابتسامة استهزاء وشماتة، ابتسامة رخيصة مبتذلة زادتها قبحًا على قبح وهرعت إلى دخول البيت تركتني خلفها وهي تعبر العتبة هكذا دفعة واحدة لا سلام ولا كلام! فصحت بها بأعلى صوت وأنا أغلي وأفور غضبًا:

- توقفي إلى أين أنت ذاهبة؟! قفي في مكانك.

لم تكن تعرفني على حقيقتي ولم تطلع بعد على ما استجد من طباعي، أو لعلها تعتقد إنها هنا لتلقني درسًا بالأخلاق وحسن الأدب، قالت وحاجبيها يزدادان تقوسًا ويبتعدان أكثر عن

مقلتيها وعلى شفتيها ابتسامة مغرورة عريضة كشرت بها عن ما تبقى لها من أسنان بالية:

- هذا بيت أخي، أنا أدخل بيت أخي، هل من مانع؟

أجبتها بعصبية واستياء:

- نعم... يوجد أكثر من مانع، والآن هيا، هيا اخرجي وإلا رميت بك في الشارع.

خرجت منها تنهيدة عميقة وهي تقول:

- عجايب... والله عجايب، عشنا وشفنا فصلية وتتأمر.

قالتها وهي تهز يدها المرفوعة والمبسوطة الكف على مستوى صدرها، الآن صار الأمر لا يحتمل ولا يطاق، نفذ صبري وليس له من بقية، أخفيت دهشتي عنها وبسرعة وبلا شعور مني اندفعت متجهة نحوها، زرعت أصابعي الخمسة في شعرها وسحبتها بقوة حتى طرحتها أرضًا وقبضت باليد الثانية على طرف ضفيرتها البارزة من تحت الشيلة(١) وسحبتها بكل ما ملكت من قوة، أخذتها سحلاً إلى خارج المنزل وأنا أقول:

- اسمعي، هذه المرة أخذتك سحلاً إلى خارج البيت، لو شاهدتك في بيتي مرة أخرى فسأقطع رأسك.

---

(١) الشيّلة :غطاء رأس المرأة الريفية سوداء اللون عادة ، خشنة الملمس والحياكة نوعًا ما تنساب أطرافها لتغطي الصدر والكتفين ، وغالبًا ما يرافقها الجرغد بلونه الأسود الناعم البراق ويلف على الرأس فقط.



والدة المؤلف - رحمها الله - ترتدي "الشيّلة" : غطاء رأس المرأة الريفية

دهشت لردة فعلي وتعجبت لقوتي وذهلت لإرادتي... ولم أرها بعد ذلك إلا حين توفي موسى في مجلس عزائه... هكذا كنت وهكذا صيّرت، على إثر هذا الحادث.. صار كل عمل لامرأة مهانة مثلي مبرر ومباح، أشعر أنني في سجني الرهيب مقيدة بالسلاسل ، يحرسني سجانون لا يزرعون في نفسي غير الخوف والهلع والحقد والرغبة في الانتقام وأنا في عمري الصغير، لا أجد غير الثورة والتمرد رافضة لهذا الواقع الأليم.

أنا اليوم أرتعد بكل قواي المكبوتة أنشد الخلاص، فهل من خلاص؟ شيء ليس له مثيل، مشاعر وأحاسيس ما عرفت ولا فهمت معانٍ لها من قبل... الآن عندي رغبات لم تعد صامتة، رغبات غريبة ومخيفة، عندي ما يملأ وجداني ويفيض به كياني شعور بضرورة الاعتراف، يجب قول الحقيقة التي لا أستطيع التنصل عنها وإنكارها كيف ما كانت، جيدة حسنة أو مشينة وصعبة وقاسية هي حياتي التي عشت أيامها وسنواتها رغمًا عني، فلست إلا فتاة فلاحة من أصول ريفية حتى التحقت بموسى لأعيش معه في بيته وعمري أربعة عشر عامًا وبضعة أشهر فقط، أمية لا أجيد القراءة والكتابة ولم ألتحق بالمدرسة يومًا ، لا أجيد من فنون الطهو غير تلك الأكلات المتعارف عليها في الريف ، لذلك فإن اجتهادي في التدبير المنزلي لا يتعدى اجتهادات المرأة الفلاحة الريفية أبدًا أبدًا ، فجأة أجد نفسي وما زلت طفلة في العاصمة العراقية بغداد ، بغداد

عاصمة الرشيد الكبيرة والجميلة وفي حي من أرقى أحيائها ، ربة بيت مستقلة به تمامًا ، عليّ فيه واجبات وزوج له عليّ التزامات ، بيت مؤثث أثاث عصري متكامل... سبق وأن تعرفت على المصابيح ذات الإنارة القوية التي تنير الطرق والشوارع العامة من خلال زياراتي القليلة جدًا إلى مدينة العمارة ، إنها لا تشبه بأي شكل من الأشكال أضواء الفوانيس عندنا هناك في القرية ولا يمكن المقارنة بين كل هذا وما وجدته أمامي في بغداد ، فالأشياء غير الأشياء والناس غير الناس كأني انتقلت إلى عالم آخر في كوكب بعيد.

في حياتي الجديدة ، أشياء كثيرة تخيفني وتثير بي الدهشة والإعجاب معظمها أشاهده وألمسه لأول مرة! المروحة المنضدية... تنفث الهواء وقلبها يدور داخل رأسها الذي تدور به ذات اليمين وذات الشمال ، هل تبحث عن شيء ؟ هكذا أتساءل مع نفسي بتعجب ، أخاف منها ولأيام لا اقترب منها ولا أشغلها إلا بوجود موسى.

هنا بغداد... هنا لندن... وكلمات أخرى مشابهة يتردد صداها دائمًا في بيتنا ، أسبوع كامل أشعر بالخوف حين أسمع أصوات لأشخاص يتحدثون وحدهم أو مع غيرهم ، وأصوات غناء وموسيقى ، كل هذا داخل صندوق خشبي صغير حجمه لا يتسع لطفل رضيع ، أحتار في أمري وأنا أنظر إلى عينه الخضراء

المثبتة أعلى الجهة اليمنى، وشكله العجيب الغريب، أتصوره قمقمًا أو ما شابه وكل ما في داخله من الجن والعفاريت والشياطين أتساءل... كيف لهم العيش داخل هذا الصندوق لو كانوا بشرًا مثلنا وكيف دخلوا ومتى يخرجون... و... و... ، ليزيد موسى من عجبي ودهشتي، يلجأ للعبث بأزراره وبعض أجزائه فيضطرب الصوت بين وشوشة وصفاء وارتفاع وانخفاض ومن شيء إلى آخر!.

في واحدة من جلساتي القليلة معه عرفني موسى بالمذياع وكيف يعمل وقال إنه سيأخذني إلى مكان آخر أتمكن من رؤية الناس وأشيائهم بداخله وبالحجم الطبيعي لا أن أسمعهم فقط، فعلاً بعد نهاية الأيام السبعة الأولى للدخلة وفي اليوم الثامن ذهبت معه ولأول مرة في جولة رائعة سيرًا على الأقدام في شوارع بغداد الجميلة، بدأت من شارع الكرادة داخل حيث نقيم إلى شارع [أبي نؤاس] عبر شارع فرعي يربطهما، تمكنت من مشاهدة جمع غفير من الناس تواجدوا في أول أيام الربيع في حدائق واسعة غناء، كل هذا بموازاة نهر عريض وكبير كان لوجوده الأثر الأعظم في كمال روعة المكان وبهاءه، سألت موسى متلهفة:

- الله... الله ما هذا المكان الرائع الجميل؟ وهذا النهر العظيم ما اسمه؟ إنه يشبه النهر الذي عندنا في لواء العمارة؟!

فتح موسى فمه على مصراعيه وضحك من كلامي بصوت عال مرتفع كعادته:

- هو... هو نهر دجلة ذاته يقطع العراق من أقصى نقطة في الشمال يجري في بغداد والعمارة حتى يلتقي بشقيقه نهر الفرات ، ليتشكل من لقائهما شط العرب الذي تعرفينه في البصره.

مشينا ببطء وأنا أتأمل الحدائق الغناء والساحات الفسيحة والشوارع العريضة والبناء العالي ، انعطفنا إلى اليمين عبر شارع فرعي قصير آخر ، ولجنا منه إلى شارع عريض جميل ذي اتجاهين ، بدت ملامح الحداثة والتجديد فيه واضحة ، أخذ ذهني وتفكيري في تأمل البنايات الفخمة الشاهقة والمحلات التجارية ذات الأضواء المشعة من خلال الواجهات الزجاجية العريضة ، هكذا كنت أعتبرها مقارنة بالصرائف وأكواخ الطين حيث كنت أعيش ، قال موسى عنه إنه شارع السعدون ، وها نحن وصلنا الآن إلى دار السينما ، ما زلت في ذهولي وكأني في حلم بينما انشغل هو بمطالعة الصور الكبيرة المعلقة على الواجهة ، تلك المعروضة في الداخل ، السينما... كلمة تطرق أذني لأول مرة... ما هذه السينما... وماذا تكون ؟! ودخلت...

فجأة... انطفأت الأنوار... ساد الظلام، خفت قليلاً وسرعان ما تعاظم الخوف القليل ليمسي خوفًا حقيقيًا حين بدأ عرض الفيلم، دفنت رأسي بين ركبتيّ من الأسفل وذراعيّ من الأعلى وأغمضتُ عينيّ وأغلقت أذني، وكمن فارقت الحياة لم أعد أتحرك حتى نهاية الفيلم، وربما غادرنا الصالة قبل النهاية وبرأسي بعض الصداع والكثير من الدوار، لم أفهم شيئًا من الفيلم وما دار فيه من أحداث ولم أعرف حينها ما إذا كان عربيًا أو أجنبيًا ولا حتى اسم السينما، في هذه الليلة تعرفت على أكلات جديدة مثل التكة والكباب وكانت هذه أول وأخر مرة أخرج بها مع موسى وأتعشى خارج البيت، هذه هي ذكرياتي عن تلك الليلة.

أمور أخرى تعرفت عليها لأول مرة، مثلاً، لم أشاهد في سابق أيامي رجل مخمور وسكران... في الريف عندنا لم يعرف الرجال الخمر بعد، على الأقل لم يدخل الخمر بيتنا وبين رجال أسرتنا، وفي ليلتي الأولى مع موسى شرب خمرًا كثيرًا إلى حد الثمالة، شاهدته يترنح ويتمايل في مشيته، من شدة السكر يرتطم بجدران البيت جدار تلو الآخر، ما أن يودع جدار حتى يستقبل الآخر كأن الارتطام بالجدران واجب مقدس وجب عليه تنفيذه بعناية ودقة، وهو يهذي هذيانًا لا أفهم منه شيئًا، وقد يغني بصوت جهري نشاز، لا أعرف معنى للسكر، ولم أرَ من قبل رجل سكران فاعتقدت أنه شخص مريض أو

مجنون أو هو مخلوق غير بشري لا ينتمي إلى بني آدم وحواء، كنت أخاف منه إلى حد الرعب، وأجلس القرفصاء في واحدة من زوايا الصالة أضع كلتا يديّ فوق رأسي الذي أحشره بين ساقيّ وأنا أبكي بسكينة وخشوع، بكاء هادئ بلا صوت ولا حركة، أريد أمي... أنا أريد أمي، تعالي يا أمي، أين أنت لماذا تركتِني وحدي مع هذا الرجل المجنون؟.

تمتد يد ضخمة خشنة الملمس أكل عليها الجص وشرب الإسمنت واحتك بها الطابوق حتى حفر فيها الشقوق والأخاديد، الآن أحس بخشونة اليد القابضة على معصمي لترفعني بقوة وترغمني على النهوض من جلستي والوقوف أمامه لأزداد خوفًا ورعبًا... أسمعه يقول:

- تعالي يا صغيرتي الجميلة...

يسمع صوت بكائي مع بعض كلمات الرجاء والتوسل كأني أرجوه ألا يؤذيّني ويمسني بسوء:

- لا... لا... لا أرجوك، الله يحفظك...

أسمعه يقول وهو يهز رأسه الكبير كالآسف، يجتر كلماته الثقيلة كأنها تخرج من فمه عنوة ورغمًا عنه:

- لا... لا تخافي يا حبيبتي، لم هذا البكاء؟ أنا أحبك ولن أضرك أبدًا...

كلمات قالها وهو يخرجني من الصالة ويدخل بيّ إلى غرفة النوم ، كلام لا أصدقه ، كلام غير كاف ليطرد الخوف من روحي ونفسي ويعيد لهما السكينة والاطمئنان:

- أريد أمي... أرجعني إلى أهلي وأمي يحفظك الله... هات يدك لأقبلها.

ر د بغضب واستياء:

- دعينا من أهلك وحكاية أهلك... أنت الآن ليّ وحدي ، ملك صرف خاص بيّ... أنت فصليّة، هل تعرفين ما معنى الفصليّة ؟ أنا اشتريتك من أختي نعيمة أم خلف بمائة دينار فقط لا غير...

ثم تابع حديثه وتساءل بتهكم وقد أجلسني على سرير النوم وجلس إلى جانبي:

- هل تعرفين معنى للمائة دينار ؟ وهل ملكت أنت وأهلك يومًا مائة دينار ؟ سأقول لك...

ثم تابع حديثه وهو يداعب خصلات من شعري تدلت على أذنيّ من الجانبين ، بينما امتدت يده الأخرى لتمسح دموعًا سالت على وجنتي بمنديل أزرق أخرجه من جيبه:

- بهذا المبلغ أستطيع أن أشتري أهلك كلهم عبيدًا صالحين طائعين مثل ما أستطيع أن أشتري دار كبيرة وحديثة هنا في الكرادة ، لا تبكِ يا حبيبتي الصغيرة كفاكِ بكاءً وتعالِ ندخل حياة جديدة.

قال عبارته الأخيرة وهو يقبلني، توقف عن الحديث تمامًا وبدأ يقبلني، لا أسمع سوى قرقعة القبلات تدق كالأجراس في أذني وليزيل، ما تبقى من آثار دموعي غمس طرف منديله الأزرق بقدح مملوء بالماء قريبًا منه، ومسح وجهي لينشفه بالطرف الآخر.

انهالت قبلاته وازدادت عنفًا، لمست طول فترة قبلاته التي يطبعها على شفتيَّ حتى بدا لي أنه يمتصها؛ وهكذا هو الأمر فعلاً، شعرت بالحياء والخجل منذ القبلة الأولى لكني بلا حول ولا قوة، وبالمزيد من الحياء والخجل والحيرة وأنا أجد نفسي وقد تحررت من بعض ملابسي الخارجية وحتى الداخلية منها... أمسيت شبه عارية لا يستر جسدي إلا القليل الخفيف، آه... آه... ماذا يفعل هذا الوقح، إنه يعبث بجسدي ويقلب أجزاءه بعنف متزايد بكلتا يديه الخشنتين، ويقبله بنهم كأنه يفترسني بإرادة ورغبة الرجل الخبير الذي أفنى جل عمره بممارسات كهذه، أين أنا منه وفي عمري الصغير، إنها تجربتي الأولى...

نمت تحته وضاع جسدي الناعم الصغير ودفن تحت ثنايا وطيات جسده الضخم الكبير، شعرت وهو فوقي بوزنه الثقيل كأني أحمل الدنيا وما فيها، وقد غرس شيء ما بداخلي... شيء لا أعرفه ولم أشاهده من قبل، وبحركته المكوكية ذهابًا وإيابًا

تسلل الخدر إلى أطرافي وبعض أجزائي وتاهت روحي في شبه إغفاءة أو شبه غيبوبة في حالة غريبة عني ، بعض تأوهات والقليل من الآهات... آه... آه... آه... وانتهى كل شيء ، أعجبني بممارسة كهذه ، ممارسة راقت لي نسيت بها أهلي وأمي ، أنا لا أريد أمي الآن فلست بحاجة لها ، وحين نهض عني وتركني وذهب إلى حيث لا أدري تمنيت عودته ليفعلها ثانية ، مددت يدي أتلمس مهبلي فوجدت بعض الدم الممزوج بسائل هلامي كثيف ولزج ، ماذا أفعل الآن... لست أدري... لا علم لي ولا أعرف شيئًا... أين أنت الآن يا أمي فأنا بحاجة لك.

• • • •

هذه هي ذكرياتي عن أول ليلة عشتها مع موسى، استمر الحال على هذا النحو والمنوال لستة أيام أخرى لم يخرج خلالها من البيت أبدًا باعتباره عريسًا جديدًا ، هذه من العادات الاجتماعية المتعارف عليها ، يستيقظ متأخرًا عند الضحى أو قبل الظهر بقليل ، يتناول إفطاره ويستمع إلى برامج إذاعة بغداد عن طريق المذياع، ثم يبدأ باستقبال أشخاص لا أعرفهم، معظمهم يهنئ بالزواج الجديد ، والقليل من مساعديه غير المخلصين في مقر عمله يبلغ عن سير العمل ويستلم التعليمات ، وهكذا حتى الغروب ليبدأ احتساء الخمر ومزاولة نشاطاته الجنسية معي حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل.

بدأت اعتاد على يوميات حياتي الجديدة مع موسى بالتدريج تعودت وجوده قربي، وأتقبل ممارساته معي، حيث بدأ الخوف منه يتبدد ويتلاشى ، وكذلك لم أعد أخاف الساعة الجدارية المعلقة أمامي، ولا أعجب بالمروحة المنضدية، ولا أستغرب المذياع ، وتفاعلت بسرعة مع جهاز التلفاز وتأقلمت مع الجيران والبيئة، ولم أعد بحاجة إلى أمي ولا أبكي شوقًا إليها ولهفة عليها، أشياء وممارسات جديدة دخلت حياتي نسيت بها ماضي لن يعود استعدادًا لما هو قادم من ممارسات مثيرة بل مغامرات مذهلة... أنا على موعد معكم.

(١٤)

خرجت من بيت أهلي وأنا فصلية، وبهذه الصفة المشينة دخلت وبدون أدنى درجات الاحترام بيت الزوجية الجديد، لأن موسى اشتراني ودفع الثمن في سوق الأعراف والعادات والتقاليد العشائرية ، تمامًا كما يباع الرقيق وتدفع أثمانهم في أسواق النخاسة، وكلمته في أول ليلة أنت فصلية اشتريتك من أختي أم خلف أول كلمة نطقها بوجهي ، فدخلت إلى قلبي الجريح وضميري المتعب قبل أذنيّ، معمدة بأنهار دموعي الجارية، وعلى هذا وما مضى قبله وما سيأتي بعده... كرهته...

كرهته ومعه كل ما يمت له بصلة، وكل علاقة تربطني به، وكرهت وضعي معه، كيف لي أن أحب رجلاً كهذا؟ ولماذا لا أبحث عن حب بديل آخر أعوض به حبًا فقدته إلى الأبد، حب جديد يحن له ضميري يخفق له قلبي شغفًا ولهفة، حب يدنس جسدي بفعله ويلوثه بقذر يتركه خلفه... كتب عليّ قسرًا ورغم إرادتي إما العيش بروح نجسة مدنسة وجسد نظيف طاهر مع الحقير موسى، وهذا ما رفضته، أو على العكس روح طاهرة نظيفة وجسد مدنس قذر مع غيره ، معادلة أكسر بها القيم والمثل الزائفة وهذا ما سأسعى له وما سيكون في أيامي القادمة...

على الرغم من كل ما في موسى من مساوئ وسلبيات في ماضيه وحاضره ومستقبله، مساوئ كبيرة وسلبيات فظيعة في أخلاقه وطباعه وشكله وفارق العمر الكبير جدًا بيني وبينه؛ فإن حالي في بيته مختلف تمامًا عن حال مثيلاتي الفصليات، لا بل وحتى الحرائر، إذ لم أعد أشعر وألمس وضعي هذا لاحقًا وصار هو الفصلية معي وتحررت أنا...

بالإضافة إلى استقلالي في دار حديث البناء عصري الأثاث كامل التجهيز، توفرت جميع أسباب الراحة فيه، وليس من أحد يضايقني ويعنفني ضربًا وشتمًا، وأسباب ذلك تكمن في ضعف شخصية موسى، وكبر عمره والحالة الاقتصادية القوية وثبات وضعه المالي وكذلك حياته الخالية من الأحباب والخلان، فلا أسرة حقيقية تحيط به وتشاركه أفراحه وأحزانه وتواسي محنه وآلامه ولا من يشاركه سكنه وينظم حياته اليومية، ولثلاث سنوات متتالية وأكثر بعد طلاقه لزوجتيه بشرى وإيمان، ووفاة زوجته الثالثة؛ وجدني بديلة، بل وجد في شخصي كل البدائل، فرغب طامحًا وأراد أن أسد له كل الفراغات، فمنحني حبه وعطفه وحنانه على أمل أن أبادله كل هذا بمثله وحتى أحسن منه، أحاطني برعاية خاصة إلى درجة أنه كان يعاملني كزوجة وحبيبة حينما يكون بحاجة إلى زوجة وحبيبة، ومعاملة الأب لابنته في أحيان كثيرة لشعوره وإحساسه أني طفلة صغيرة بعمر أولاده، فوقف أمامي مكشوف الوجه واثقًا من

نفسه مطمئنًا لموقفه مستهينًا بقدراتي غافلاً عن ما أستطيع فعله... بالضبط تمامًا كما يقف الملاكم القوي المحترف الخبير المتمكن الواثق من نفسه المطمئن من موقفه، يقف مكشوف الوجه أمام خصمه الملاكم المغمور مستهينًا بقدراته ولا يفكر بما يستطيع فعله، فيتلقى اللطمة الخاطفة السريعة القوية التي تفقده رشده وتسلبه صوابه، فيسقط صريعًا بالضربة الفنية القاضية...

لا أريد زوجًا ولا بيتًا حديثًا مؤثثًا، إنما أريد أملاً في استعادة حب فقدته، الحلم الذي كنت أرنو إليه، استعادة كرامتي المسلوبة، حتى أمنح لأي كان حبًا حقيقيًا مرتديًا رداء العفة والنقاء لا حبًا كاذبًا مرتديًا رداء الطيبة المفتعلة والحنان الذي لا وجود له. في حياتي لا أستطيع تمثيل دور لا أفهمه ولست مقتنعة به رغمًا عني، بعد علمي الوثيق وإطلاعي الواسع على أحوال موسى المزرية، وانحطاط شخصيته وضياع هيبته وقلة حيلته في محيطه وأين ما تواجد، عندها قررت التمرد عليه؛ فأطلقتها ثورة قي وجهه، استوليت بها على ما تبقى له كرجل من فضلات الهيبة والشخصية في أهم معاقله، داخل بيته أولاً، لتمتد سطوتي عليه في معقله الآخر الأكثر أهمية... عمله!

قد لا ينال المرء كل ما ينبغي ولا كل ما يسعى إليه، بعض الجهود قد تبوء بالفشل وتجري الرياح عكس ما تشتهي السفن

وهكذا هو حال موسى معي، أشعر تمامًا بأني خلقت لأحب رجل واحد اسمه حسن وليس غيره، وملزمة بواجب الإخلاص له وانتظاره حتى يفك الله حبسه وتنتهي محنته وإن تزوجت من رجل آخر غيره، ولأجل هذا كله وبعد طاعة تامة واستجابة كاملة لإرادة موسى ورغباته لمدة شهر واحد فقط لا أكثر؛ بدأت أنسحب من حياته تدريجيًا في سياسة الخطوة خطوة، حتى خرجت من حياته نهائيًا بعد أقل من سبعة أشهر وأنا حامل بابنتي الوحيدة منه "شهيرة"، لأنغمس بعد أربع سنوات بمعاشرة رجل آخر وأنا على ذمته!

بدأت المقاطعة بعزل فراشي عن فراشه، قبل الانتقال إلى غرفة أخرى مقابلة بصورة نهائية بلا عودة، بحجة إنه يقلق منامي ويزعجني بصوت شخيره العالي ورائحة الخمر المقززة التي تفوح من فمه، مع رائحة التعرق النتنة التي تنضح من جسده البدين، وهذه حقائق واضحة فيه وليست ادعاءات وأكاذيب باطلة، يخرج صباحًا من البيت نظيفًا مرتب الملابس معطرًا بأزكى العطور، ليعود بعد منتصف الليل في حال يرثى لها، ثمل، سكران، ثيابه مبعثرة، تفوح منه روائح غير مقبولة.

وبخطٍ موازٍ امتنعت عن مشاركته المائدة وتناول الطعام معه، أتعمد تناول طعامي أثناء غيابه وأتحجج بحضوره بحجج واهية في الغالب لم أعد فيما يلي بحاجة لها، تركته دون أدنى اهتمام

لوجوده، وأهملته في أهم الوقائع اليومية ونحن مازلنا نعيش في بيت واحد وتحت سقف واحد، وأبقيت فقط على واجباتي الخدمية له ولبيته. كم حاول وبذل جهود جبارة ليعيدني إلى أحضانه، محاولات مقترنة بتوسلاته ورجاءاته والهدايا الثمينة التي كنت أرفضها وأردها إليه حتى بدون التعرف على محتواها، فيتركها على سريري ويخرج يائسًا، فيلفها الإهمال والنسيان محفوظة في درج خاص، وتوقف عن كل هذا وذاك وسلم للأمر الواقع ليعوم ويتوغل أكثر وأكثر في بحر الخمر حتى غرق فيه، أحصيتها بعد وفاته وجدتها ثمانية وعشرون هدية في أكثر من ثلاث سنوات بقليل، جلها مصوغات ذهبية مرصع أغلبها بالماس والأحجار الكريمة والعطور الراقية والساعات السويسرية الذهبية الفاخرة، هذا من غير أخر صيحات الأزياء الغالية وحتى الملابس الداخلية.

ليت الأمور توقفت عند هذه الحدود إنما تعدتها إلى الأكثر والأخطر، لقد وصلت بي الجرأة إلى ضربه، نعم أضربه بيدي وبما تناله من أشياء قريبة... أحذية أدوات مطبخ وكل شيء، لن أنسى أول مرة ضربته، حبسته يومًا كاملاً في الحمام الاحتياطي من صباح يوم الجمعة حتى صباح يوم السبت التالي ولمدة أربع وعشرين ساعة، وحين فتحت له الباب انهلت عليه ضربًا بالقبقاب الخشبي حتى أدميته، فتحت له جرحًا داميًا فوق حاجبه الأيسر!

نعم هكذا... هكذا وإلا فلا... أنا أنتقم... أنتقم لكل ما مر وسيمر بحياتي وأيامي القاسية الصعبة التي رأيت فيها الويل فوق الويل وشربت الأمر بعد المر... أنتقم ثأرًا من كل الرجال الذين يتسلون بضرب نسائهم، وأنتقم من زوجي وأذل هذا الرجل الذي لا أحبه... أسوأ الرجال، أريد التهام الدنيا وما فيها غيظًا وغضبًا، والمناسبة حين بات عشيقي معي ليلة الخميس على صباح الجمعة كما جرت العادة كل أسبوع حيث لازمه صداع شديد ألم به لأنه ولأول مرة منذ عرفته شرب أكثر من طاقته وما يحتمل، ولم يستطع الخروج والمغادرة إلى بيته...

كيف يمكن لرجلين التواجد في بيت واحد وآن واحد، يمارسان حياة طبيعية بحرية كاملة دون رؤية أحدهما الآخر ويلمس وجوده، في هذه الحالة وجب حبس موسى في الحمام الذي يمكن قفله من الخارج لا في غرفته التي لا قفل لها، أما ضربه فجاء لشدة غضبي، أي زوج هذا ينام رجل غريب غيره في غرفة زوجته المقابل بابها تمامًا باب غرفته، بينهما ممر لا يزيد عرضه على المتر ونصف المتر، وعلى فراشها ليومين دون أن يعلم ويعي ويشعر، ليس هذا برجل إنما لعبة أطفال يجب التخلي عنها ورميها بعد اللعب والعبث بها...

• • • •

نحن الآن في ربيع عام ١٩٥٨ ؛ بعد ست سنوات بالتمام والكمال على وجودي في العاصمة الحبيبة الجميلة بغداد، وفي حي الكرادة الشرقية أجمل وأرقى أحيائها، لم أعد تلك الفصليّة المقيدة بقيود العادات والتقاليد العشائرية الغليظة ، الطفلة الفلاحة الريفية البسيطة الساذجة، الأمية الجاهلة التي لا تقرأ ولا تكتب، القلقة على مصيرها ومستقبلها، الضالة لطريقها، النائحة الباكية تريد أمها، الضائعة في متاهات أيامها، يضيق صدرها برغباتها الصامتة، تبهرها أضواء المدينة وأنوارها بطرقها وشوارعها الطويلة العريضة وميادينها الواسعة ومبانيها العالية، الخائفة من زوجها وتعتبره غريبًا عنها ، المتشككة بالناس من حولها فلا طباعها من طباعهم ولا شيء فيها من أشيائهم...

الآن اتجهت الأمور معها بالاتجاه المعاكس وكل ما كان عليها صار لها! بعد شهور قليلة سأبلغ العشرين من العمر ، أنا الآن امرأة ناضجة كاملة الأنوثة راجحة العقل أنا الحرة في نفسها وبيتها ، المالكة لأمرها المتحكمة بزوجها، تطالع وباستمرار الصحف والمجلات ، تلاحق أخبار أهل الفن والمشاهير ، وتتابع برامج الإذاعة والتلفاز وتهتم كثيرًا ببرامج المرأة والأطفال وتتذوق الأغاني الشعبية ، تحب الناس من حولها ومنسجمة معهم، أم لطفلة، عضو مهم فاعل في أسرة كبيرة هم أولاد وبنات موسى ومطلقاته!.

هل كل هذا كاف لأقتنع وأستقبل عمرًا جديدًا متميزًا نحو مستقبل زاهر سعيد، مسلحة بإيمان عميق ألا يضيع عمري كله بذكريات حب قديم مضى... ربما مات وانتهى، وأتوقف عن التفكير بتلك الأيام التعسة وأتركها خلفي؟ أم هذا مجرد كلام سخيف لواقع مؤقت ربما سيزول قريبًا، مازلت أذكر عمي شاهر رحمه الله وموقفه المشرف وجهاده من أجلي، بسببي مرض مرضًا شديدًا بعد مصيبتي مباشرة، أعجز الطب ومات بعد أقل من سنة يهذي باسمي... عزيزة... عزيزة... عزيزة حين ترتفع حرارته، وحين مات وجدوا صورتي تحت وسادته وفي وصيته أوصى أولاده خيرًا بي، ولا تقسم تركته بينهم إلا بعد موافقتي وسؤالي عن حاجتي وهذا ما كان فعلاً، وكم تمنيت لو رزقت بمولود ذكر وأسميته على اسمه شاهر لكنها ولله الحمد كانت أنثى فأسميتها شهيرة كأقرب اسم مؤنث... نعم حصل وأسميت ولدي الذي أنجبته من ابن عمي حسن بعد خروجه من السجن وزواجي منه؛ أسميته شاهر.

(١٥)

أعلن موسى إنه سيغادر إلى مدينة العمارة بعد ظهر يوم الخميس القادم أي بعد ثلاثة أيام، لزيارة أهله، هناك يقضي فترة عيد الأضحى ويبقى ينتظر والده حتى يعود من رحلة الحج إلى مكة المكرمة وقد تطول غيبته ثلاثة أسابيع، لم يتركني في غيبة طويلة كهذه من قبل، فرحت كثيرًا وأنا أسمع الخبر السعيد، كتمت فرحتي حتى لا أبدو مبالغة في كرهي له، وإن لم يعد يهمني أمر كهذا، وكذلك قد يغير رأيه ويلغي سفره.

غادر بعد ظهر الخميس وعند المساء غادرت خلفة مباشرة إلى الأعظمية لأقضي فترة العيد مع العائلة، بقيت هناك سبعة أيام هانئة سعيدة، نلهو ونلعب في البيت صباحًا ونعد وجبة غداء طيبة لذيذة وفي المساء نخرج في جولات سياحية بغدادية، بغداد مدينة مزدحمة بالناس والسيارات خاصة في أيام الأعياد والمناسبات الوطنية، توفر الكثير من المواقع السياحية والآثار التاريخية المستمدة من حاضرها وتاريخها المجيد، في توسع دائم، ولادة تلد حيًا أو ضاحية كل عام تقريبًا، زرنا مرقد الإمام الأعظم والكورنيش الجميل في الأعظمية ومرقد الإمام موسى الكاظم في الكاظمية والكثير من الحدائق والمتنزهات قبل الذهاب إلى دور السينما.

أنا والأمهات نرغب بمشاهدة الأفلام الهندية، نجد فيها الصدى العالي لمعاناتنا بينما انصب اهتمام البنات على الأفلام العربية الرومانسية وأهمها أفلام فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ، وسعى الأولاد لمشاهدة أفلام "الكاو بوي" الأمريكي دون أن ننسى أفلام المرح والفكاهة، لذا وجدنا أنفسنا مضطرون لدخول السينما مرتين في الليلة الواحدة أحيانًا لمشاهدة كل ما توفر من أنواع الأفلام استجابة لرغبات الجميع حتى بلغ عددها عشر مرات خلال أسبوع واحد.

التمست بعض الحرية... المزيد... بل امتلكتها، الحياة مع الحرية يا لها من حياة ما أروعها كلها بهجة وبهاء، حقًا لقد كان أسبوع هانئ باسم سعيد، أفضل أيام عمري ما فات والقادم منه، أسبوع له التأثير المباشر لأحداث اليوم الذي سيليه... اليوم الثامن.

(١٦)

اليوم الثامن ، صحوت من حلم سعيد فوجدت نفسي وحيدة في البيت ، كأني في سجن ، ماذا عساي أن أفعل ، انتهيت من تنظيف البيت وترتيبه وأنهيت زينتي ، ساعات صمت رهيب وانتظار قلق ممل، تفاجأت بجارتي وصديقتي إلهام تنادي عبر الجدار المنخفض الفاصل بيننا ، وتدعوني للخروج معها الآن إلى محلات العائلة السعيدة لشراء أزياء جديدة لها ولأختها هيام ، القادمة توًا من مدينة الحلة ، استعدادًا لحفل زواج شقيقهن "فراس" ، وربما نعود بعد الغداء للتجوال في شوارع المدينة ونقضي بعض الوقت في حدائق شارع أبو نؤاس على دجلة الخير.

كأنها أطلقت سراحي ، أعتقت رقبتي وحررت عبوديتي ، لم أشبع بعد أريد المزيد من الحرية، الحرية كلها ملكي في خدمتي وطوع إرادتي، لكن... آه... آآآآه وألف آه، ما كنت خرجت لو كنت أعلم بما يضمره القدر ليّ هذا اليوم، وما قد تخبئه الأيام القادمة بين ثنايا طياتها، حدث انبثقت عنه أحداث هي الأروع والأغرب والأكثر عجبًا من كل ما مر وسيمر في حياتي!.

مقطع من فيلم هندي رومانسي شاهدته في السينما قبل ثلاثة أيام ترك أثر واضح في نفسي وطبع بمخيلتي وصار محورًا ثابتًا تدور حوله جميع أفكاري المتقاطعة ونقطة تلتقي عندها خطوط رغباتي الصامتة، حين وجدت نفسي أتقمص شخصية بطلة الفيلم في أداء لقطة سريعة صارت فيما بعد فصلاً كاملاً من فصول حياتي الفوضوية المضطربة ، زادتها فوضى واضطرابًا، جعلتها كبيرة الشبه بفيلم هندي!.

عند الحادية عشرة ضحى هذا اليوم تواجدنا في محلات العائلة السعيدة التجارية ، خرجنا من قسم الملابس النسائية إلى قسم الرجالية، حيث رغبت جارتي في شراء بدلة رجالية كاملة مع القميص وربطة العنق هدية لشقيقها الذي سيتزوج الأسبوع القادم ، راقت لنا بدلة جيدة فسألتني إلهام مستعينة برأيي ، ومساعدتها في اختيار قميص مناسب وربطة عنق ملائمة، تم الاختيار حين ركزت اهتمامي على كدس قمصان وبيجامات ملقاة على جانب غير منظور تمامًا كأنها مهملة، قلبتها وجدتها ممتازة وراقية من حيث التفاصيل ونوع القماش ، سألت عن الأسعار وجدتها رخيصة ومناسبة، اشتريت منها زوج قمصان وبيجامة لموسى، مما شجع إلهام على شراء قميص وبيجامتين لشقيقها وأختها هيام، زوجًا من كل فئة.

وقفت خلف إلهام أمام صندوق المحاسبة لدفع الحساب، وأنا في انتظار دوري، دارت عيناي أمعن النظر بما حولي وإذا بهما تلتقيان بمنتصف المسافة بنظرات شاب وسيم تتدفق نحوي بغزارة من الزاوية المقابلة، على نحو هز جسدي وروحي، كان شابًا وسيمًا أنيقًا جميل الوجه بديع الملامح، منتظم الجسم قوي البنية، تنم أناقته التامة وحسن اختياره لملبسه وتنسيقها عن ذوق سليم رفيع وحسن اختيار، وجدته إلى حد بعيد يشبه بطل الرواية بالفيلم الهندي في لقطة مشابهة لهذه تمامًا... أشحت بوجهي إلى الجهة الأخرى حين لاحظته يفعل هكذا قبلي لكن سرعان ما عاد نظري من رحلته القصيرة وعدت معه أبحث عن نظراته ثانية، فوجدت عينيه تبحث عني وقد ترك مكانه واقترب عدة خطوات، اقترنت نظراتنا هذه المرة بابتسامة متبادلة، شعرت على الفور ولمست شعاعًا يخرج من عينيه وينفذ بقوة إلى روحي وقلبي، وأني أميل إليه وقد وقعت تحت تأثيره، كل هذا بدون أي تعارف سابق بيننا!.

خلال دقائق معدودة قليلة التقت نظراتنا مرات ومرات كأن الدنيا قد ضاقت آفاقها الرحبة ولم يعد فيها مسارات غير تلك التي تجمعنا، دقائق حاولت خلالها إقصاء نظري وأحيد بعيني عنه لكن... بلا جدوى، وبدون جدوى حاولت عبثًا اللحاق بدقات قلبي ولجم نبضاته المتسارعة والسيطرة عليها، إلى هنا انتهى دور التقمص المقتبس من الفيلم.

خرجنا من محلات العائلة السعيدة سيرًا ، متجهات إلى بيوتنا التي لا تبعد كثيرًا ، ولأنني تركت قلبي هناك خلفي أحسست به يتبعنا ، فوجهت أذنيَّ تصغيان لحديث رفيقتي وأشارك أحيانًا بكلمات قليلة حتى لا أجلب الانتباه بين التفاتة وأخرى بين لحظة وأخرى ، لم أكتفِ بشخصه وهو يطاردني إنما جلست القرفصاء على الأرض أكثر من مرة بحجة الاهتمام بهندام ابنتي أو تثبيت قراصة شعرها أو ربط شريط حذائها ، في وقت لم تكن بحاجة إلى كل هذا حتى تبتعد رفيقتي بعض الخطوات عني فأستغلها فرصة ذهبية لأبادله النظرات والابتسامات ، أخيرًا وصلنا بيوتنا ، هن دخلن أولاً وبيتي هو التالي ، تبادلنا العبارة المألوفة ، مع السلامة ، خطوات قليلة وبصوت مرتفع قليلاً حتى يسمعني على حد المثل القائل: "إياك أعني فسمعي يا جارة"..

- سنخرج عند الخامسة مساءً إلى الحديقة العامة المجاورة لمقهى النخيل... أليس كذلك؟

فهزن رؤوسهن بالإيجاب بينما ودعته بابتسامة كبيرة فياضة ، وبإشارة الوداع من يدي. دخلت بيتي وأغلقت الباب خلفي بهدوء كأني أخبره بكل جرأة وصلافة وأقول له هذا هو بيتي وأنا أعيش هنا ، بسهولة فهم إشارتي وعرف قصدي وفحوى الموعد المصطنع مع جارتي إلهام... وهذا ما كان فعلاً.

ما الذي يجري؟ مذا دهاني؟ هل يعقل هذا؟ بالتأكيد إنه أمر لا يمكن تفسيره... كيف يمكن لرجل مجهول لا أعرفه أن يتخذ له محلاً في نفسي وروحي وقلبي وضميري وكياني ووجودي... وكل شيء؟ هكذا... وبهذه السهولة وهذه السرعة؟ لكن ماذا عساي أن أفعل وقد شاءت الأقدار؟!

• • • •

شخصت عيناي وبإلحاح على الساعة الجدارية المعلقة أمامي في الصالة، والتي لا أبالي ولم أهتم قبلاً لوجودها أو أنظر لها إلا نادرًا، شأنها شأن الساعة اليدوية التي حرصت على ربطها بمعصمي، نظرة هنا ونظرة هناك كلي لهفة بانتظار الساعة الخامسة، كان الوقت يمر ثقيلاً بطيئًا، مر دهر حتى دقت الساعة وأعلنت الثالثة ودهر آخر أوصلنا إلى الرابعة مساءً، وفيها اعتذرت جارتي إلهام عن مرافقتي إلى الحديقة العامة وهذا ما كنت أتمناه، سأنفرد به وحدي بعيدًا عن أعين الجارات ومسامع الصديقات، فرصة انتهزتها لتغيير ما كان بسيطًا عاديًا في شكلي وهيئتي، والإسراع لعمل تسريحة شعر خاصة متميزة ومكياج رفيع، وحرصت على ارتداء فستان جديد ضيق من الستان الأحمر الفاتح اللماع، أحاكي به أزياء الممثلة الأمريكية ذائعة الصيت آنذاك مارلين مونرو، لعلمي إنه

يلتصق تمامًا على جسدي ويبرز مفاتنه والضوء المنعكس عنه يضيف لمعانًا وبريقًا إضافي للأجزاء البارزة منه.

أخفيت هذا كله تحت العباءة العراقية لأن المجتمع البغدادي غير متقبل بعد لسفور المرأة بهذا الشكل، عملت بجد ونشاط ولم أتوقف لحظة واحدة لأسأل نفسي، إلى أين ذاهبة أنا؟ وهذا الشاب الذي أسعى لأجله من هو، من يكون حتى أتشبه لأجله بمارلين مونرو؟ مارلين مونرو، هكذا منطلقة دفعة واحدة يا عزيزة؟ وكأنك لا تنتمين إلى ذاك السلف المتخلف ولا إلى تلك الأهوار التي صبغت مياهها الآسنة الراكدة جلدك ومنحتك لون بشرتك ونحتت ريح السموم الشرجي* صورتك وأعطتك ملامح وجهك.

على النقيض من كل هذا وبالاتجاه المعاكس تمامًا، أدهشتني جرأتي، أذهلني إصراري وعجبت لقوة إرادتي وتوقفت كثيرًا لأجيب عن سؤال لا وجود له في ضميري، نعم هذه هي عزيزة الطفلة الفقيرة الفصليّة القادمة من أهوار العمارة، وعندي المزيد... المزيد...

• • • •

*** الشرجي : رياح صيفية موسمية جافة وحارة جدًا ومزعجة جدًا.**

خرجت مع ابنتي بعد الخامسة بربع ساعة حتى ألتقي به، لم أكن بحاجة للوصول إلى شارع أبي نؤاس، بل وجدته ينتظرني عند بداية الزقاق، بهدوء حث خطوات بطيئة أمامي، فهمت قصده فتبعته حتى لحقت به عند مدخل الجناح الخاص للعوائل لمقهى ومطعم الأمير، تبادلنا التحية وصافحته حين وجدته يمد يده ليصافحني، وقع اختيارنا على مائدة قصيّة في ركن منعزل عند طرف الحديقة البعيد عن المدخل، تقابلنا في مجلسنا وجهًا لوجه وابنتي شهيرة في الوسط على كرسي ثالث.

تبادلنا نظرات حارقة، كل واحد منا يريد ملء عينيه من صورة الآخر حتى انتبهت لنظراته تجري على جسدي بنهم وقوة، نظرات انبهار وإعجاب يملأ بها روحه وعقله، لم يضايقني أمرٌ كهذا ولم يزعجني، بل أعجبني وسرني كثيرًا وكنت أبادله بالمثل.

بعد أن وقعت وانتهى كل شيء هل هذه هي الخطوات الأولى في رحلة البحث عن حب جديد فيه البديل عن حال مؤسف أعيشه مع موسى، ومعوض عن حب قديم فقدته، أم اللمسات الأخيرة لسقوطي في الحضيض في قعر الهاوية المظلمة أتذوق الندم وأحصد الخيبة وألبس ثوب العار، لابد من مواصلة المشوار وقد قطّعت خلفي جسور التراجع والعودة، نطق أخيرًا مخترقًا حاجز الصمت وكاسرًا طوق النظرات والابتسامات:

- سيدتي الكريمة؛ شكرًا لتفضلك ومنحي فرصة لقائك الثمينة، سعادتي الآن في هذه الساعة لا أستطيع لها وصفًا، تمامًا مثلما فرحت وتفاءلت خيرًا بك حين التقيتك ضحى اليوم في محلات العائلة السعيدة.

كأنه نطق بلساني، بكلامه القليل قال الكثير مما كنت أرغب في قوله، جلست صامتة أمامه لا أستطيع مثله قولاً، اكتفيت بكلمة شكر.

- لم يقم أحد بالتعارف بيننا حتى الآن، أليس هذا غريبًا؟ لذا اقترح أن يعرف كل منا نفسه للآخر.

- وهو كذلك تفضل وعرفنا بنفسك، ابدأ أنت أولاً.

- اسمي مصطفى محمد علي، أعزب، أعمل خياط في محل ورثته عن والدي الذي استشهد في حرب فلسطين قبل عشر سنوات، بمساعدة والدتي والتي بدورها خياطة ماهرة ممتازة، كان المحل متكاملاً بماكينة خياطة واحدة، تمكنا بجهودنا خلال السنوات العشر من جمع مبلغ مناسب وتحويله إلى معمل خياطة بعشر مكائن ومقص خاص بالقمصان والبيجامات الرجالية، لي ثلاث أخوات واحدة منهن أصغر مني غير متزوجة، والآن جاء دورك أليس كذلك؟.

نعم جاء دوري، باختصار شديد حدثته عن نفسي وما كان لها وعليها، وأكثرت قليلاً عن موسى وحالي معه.

- تأثرت كثيرًا بحكايتك وأطمع بتفاصيل أكثر، يبدو أنكِ تعانين لذا سأقول ما يسرك ويسعدك.

- هات ما عندك يا مصطفى.

- تفاءلت بك كثيرًا هذا اليوم، سأمنح نفسي كل الحق لو قلت لك بصراحة أنا أحبك، أحبك بكل ما أستطيع أن أحب لأنك سببٌ مباشرٌ في فتح باب رزق جديد وإنجاز صفقة لم أتمكن منها بدونك.

- كيف كان ذلك؟ هل لك أن تخبرني بمزيد من التفاصيل؟

- شحذنا الهمم وتوكلنا على الله عاقدين العزم على تشغيل المعمل ليبدأ الإنتاج قبل عيد الأضحى المبارك، وهذا ما لم نتمكن منه، لقد تأخرنا كثيرًا، بدأ الإنتاج بعد العيد مباشرة وكدس القمصان والبيجامات الذي شاهدته في محلات العائلة باكورة الإنتاج وأول وجبة تطرح في الأسواق، رفض صاحب المحل شرائها بحجة أنها جاءت متأخرة بعد موسم العيد والمعمل غير معروف وإنتاجه غير مجرب واعتذارات كثيرة، وكان الاحتمال الأكبر بل من المؤكد إنه سيردها أو يبخس ثمنها على أفضل الأحوال، لكن إعجابك بها ومديحك لها واهتمام رفيقتيك من بعدك كسر طوق التردد عنده وشجعه على شرائها وبالسعر المناسب الذي كنت أرغب، وعندما رجعت من عندك وجدته فد باع ثلاثة قمصان وزوج بيجامات لثلاثة زبائن غيركم، ولم يكتفِ بشرائها وحسب إنما أوصى على

وجبة جديدة... أليس هذا سببًا أكثر من كاف يجعلني أتفاءل بك وأحبك أيضًا.

نفذت كلماته إلى روحي واستولت على أحاسيسي ومشاعري، أخيرًا وجدت من يحبني ويتفاءل بوجودي، إنه يتحدث عن الحب، عن شيء فقدته وفقدت الأمل في استرداده كمن يبحث عن شربة ماء وسط صحراء قاحلة. أسبلت جفوني وقلت له وأنا أشبك أصابعي أمام وجهي بحركة لا إرادية:

- الحمد لله، أبتهل للباري عز وجل أن يوسع في رزقك ويملأ الدنيا عليك أفراح ومسرات.

- شكرًا جزيلاً، لكن أرجو ألا يطول مكوثنا هنا، أخشى أن يتعرف عليك أحد وأنت معي، لا تنسِ أن بيتكم قريب جدًا من هنا، ومادام زوجك مسافر ولن يعود قريبًا، تعالي معي نغير مكاننا.

سرعان ما وافقته لأني وجدت فيه الصواب، فعلاً أبناء محلتنا يرتادون هذا المكان والحدائق المحيطة به بكثافة.

(١٧)

سرحت بخواطري وسبحت في بحر أفكاري دون فطنة ، شعرت بيده فوق كتفي ولسانه يردد تساؤلاً بحذر شديد كأنه يتوقع ردة فعل عكسية مني:

- أنا تحت تصرفك ورهن إشارتك ، أين وكيف تحبين قضاء سهرتك؟

دهشت وترددت ، لم أكن أتوقع غير عودتي بعد هذا اللقاء وقد ارتويت من جرعة الحب ، أكدت عليه وأعدت التأكيد على ضرورة عودتي إلى بيتي الآن ولا أرغب أن أتأخر ، أسرع يقول كأنه يقاطعني:

- أنت هدية القدر لي ، لن أتخلى عنك بهذه السرعة وهذه السهولة ، ألم تقولي إن زوجك مسافر ولن يعود قبل إسبوعين ، لن أتقبل عذرًا منك ، ما زلنا في البداية ومازال الليل في أوله بالتأكيد أنتما جائعتان الآن.

دفع الحساب وأسرع بالخروج يحمل شهيرة على ذراع وسحبني من ذراعي بالأخرى ، كادت عباءتي تسقط من رأسي ، استوقف سيارة أجرة... فاجأني ، فاجأني وكأنه يضعني أمام الأمر الواقع... ونجح ، فتح باب السيارة الخلفي وساعدني

على الصعود واتخاذ مكاني بها ، ثم صعد واتخذ مكانه إلى جانبي وأجلس شهيرة في حجره وقد وضعت رأسها على صدره آمنة مطمئنة وطلب من السائق التوجه إلى الصالحية ، وانطلقت السيارة بنا عند الغروب عبر جسر الملكة عالية "الجمهورية" إلى جانب الكرخ وبانعطافة قصيرة إلى اليمين نحو ساحة الملك فيصل "جمال عبد الناصر" ثم يسارًا في شارع عريض منيف وجدت شهيرة قد خلدت إلى النوم، سألته بتعجب وانبهار:

- آآآآآه... أين نحن الآن، ما هذا البناء الضخم الكبير ، هل هذا قصر الملك فيصل الثاني[١]؟

أجاب بقليل من السخرية وكثير من الاهتمام:

- هههههه أين قصر الملك من هذا ، الملك شخص عادي ليس غنيًا ولا يملك قصرًا كهذا ، إنه المتحف الوطني العراقي، وفي الجهة المقابلة يقع مبنى الإذاعة والتليفزيون ويصدر منه صوت المذيع وهو يقول: هنا بغداد ، نحن الآن في الصالحية من كرخ بغداد وسنصل بيتنا بعد قليل.

---

(١) هذا قبل حركة ١٤تموز ١٩٥٨ العسكريه التي غيرت نظام الحكم في العراق من ملكي إلى جمهوري بشهور قليلة

ما فهمت شيئا فلذت بالصمت، متحف كلمة أسمعها لأول مرة، وليس في خاطري مكان يبث منه صوت يلتقطه المذياع عندنا في البيت، إنه ليس قصر الملك وهذا هو المهم، لكن كيف له أخذي إلى بيته دون موافقتي، لاحظ مصطفى ذهولي وخوفي وارتباكي فعلق يهدئ من روعي:

- لا تتعجلي ستعرفين كل شيء فيما بعد، هل أنت خائفة؟ ليس من سبب للخوف يا عزيزة، أليس كذلك؟.

نعم، نعم أنا خائفة وأشعر بالندم، صحيح أنا هنا بإرادتي، ساقتني قدماي ولم يرغمني أحد، لعلي متهورة ومندفعة أكثر من اللازم، صحيح أنا امرأة شابة في العشرين من عمري وبحاجة ماسة ضرورية مبررة لشيء جديد في حياتي، نعم شيء كهذا، لكن ليس إلى هذا الحد، الخروج مع رجل غريب والذهاب معه إلى مكان بعيد، من البداية كان قصدي بعض التسلية من صداقة عابرة وما كان قصدي الخوض عميقًا في علاقة خاصة مميزة لا مع مصطفى ولا مع غيره... يبدو أنني ركبت موجة كبيرة لا أدري إلى أين ستأخذني، أتعرف على رجل شاب قبل الظهر وبموعد طائش أقابله عند العصر وأدخل بيته عند الغسق، يا إلهي لست أدري ما يدور حولي الآن وما سيحصل بعد حين.

نزلنا من السيارة، بيساره تأبط ذراعي الأيمن، وحمل الطفلة النائمة على كتفه وذراعه الأخرى، أخبرني أن بيته فارغ وليس من أحد غيره هذه الليلة، أمه وأخته الصغرى في زيارة خالته المريضة، وهكذا دخلنا البيت كأننا أسرة واحدة، دخلنا غرفة الضيوف واستأذن قائلاً إنه سيأخذ الطفلة لتنام في غرفة أمه، خرج وتركني مع تأملاتي وعاد بعد دقائق قليلة بقدحي ليمون وبعض المعجنات والحلويات، شرب وطلب مني أن أشرب حتى أطمئن وأرتاح.

وشربت... اقترب مني كثيرًا وسألني كأنه يهمس بأذني:

- هل نحن أصدقاء؟

اهتز رأسي بعلامة الإيجاب، عاد يسألني وبذات الأسلوب وبعذوبة بائنة ويده تدور حول رأسي تعبث بخصلات شعري:

- وهل نحن أحباب أيضًا؟

أطرقت صامتة، لم أجب وهمت في عالم آخر لا أعرف من أنا وأين أنا الآن، أحتاج في هذه اللحظات الحرجة إلى من يعرفني بنفسي ومكاني، وهنا قال برقةٍ متناهية كأنه نسمة ربيع دافئة:

- ما دمنا أصحاب وأحباب، هل تسمحين ليّ أن أقبلك؟

ولم يكن بحاجة إلى رد بالموافقة أو الرفض إنه يدفن إرادتي الممزقة قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، لف يدًا حول خصري وأدار وجهي ناحيته باليد الأخرى، عجل بقبلة على خدي وطبع

أخرى على الثاني وارتشف ثالثة سريعة وقوية من شفتيّ، شاركته برابعة أطال بها أخلت بتوازني وسقط رأسي على كتفه كأنه انفصل عن جسدي.

لم يبق هنا أي مجال للتراجع، للمقاومة، للرفض، للتردد؛ أنا الآن مسيرة لا مخيرة، لقد انتهت عندي إرادة الاختيار وتبددت أوقاتها وحل الرضا والقبول بل الاستسلام التام بدائل عنها، وأنا في بداية المشوار هذه رغباتي صارخة ولم تعد صامتة. آآآآه... إنه يفعل تمامًا تلك الأفعال التي فعلها موسى في أول ليلة قضيتها معه قبل ست سنوات، ذلك يوم كنت فيه طفلة لا أفهم، صغيرة لا علم لي ولا دراية بما يجري ويدور حولي أتلقى أفعاله خائفة بخنوع... اليوم وأنا في العشرين من عمري أقرأ ما خطته يدي ولست أقل رغبة وإرادة، وأقابل فعل الرجل بفعل أشد وأقوى فيما يشبه الهجوم المضاد المقابل!

• • • •

فاز بصراع غير عادي بين رغبتي بالمغادرة وإرادته بالمبيت عنده وأخيرًا اتفقنا على المغادرة والتواجد في بيتي قبل الثامنة صباحًا، يجب عليه فتح معمل الخياطة قبل الثامنة ليسمح للعاملين فيه بالدخول لكننا استيقظنا متأخرين قليلاً، مازلت تحت تأثير الخمر في أول مرة أتناوله، أشعر بدوار خفيف

وبعض الصداع فأسرعت بارتداء ملابسي وترتيب شعري وهندامي ترتيبًا عشوائيًا، وغطيت هذه الفوضى وثوبي الستان اللماع وما تبقى من شخصية مارلين مونرو بالعباءة السوداء ونظرة سخرية سريعة إلى المرآة، هههه.

انطلقت سيارة الأجرة مسرعة بنا إلى الكرادة، في الطريق دس مصطفى بيدي ورقة صغيرة كتب فيها عنوان المعمل ورقم الهاتف لأتصل به عند الحاجة أو الضرورة القصوى، وفي حديثه الكثير من الاعتراف بالجميل مع الشكر والممنونية، طمأنته وهدأت من عواطفه بكلام جميل ووعدته بلقاءات أخرى قريبة، يا ترى هل حقًا هناك لقاءات أخرى مع مصطفى... أو مع غيره؟!

• • • •

عدت إلى بيتي بمزيد من الدوار والصداع وذكريات الليلة الماضية الرائعة كأني كنت في حلم سعيد، لكن هل أستطيع أن أرويه لغيري كما يروي الناس أحلامهم؟ لجارتي وصديقتي هيام مثلاً؟، أخبرهم كيف بدأت وأين ذهبت وماذا فعلت، أو أقصها كواحدة من قصص وحكايات ألف ليلة وليلة؟!.

(١٨)

في اليوم التالي قادني خيالي الخصب لمزيد من المغامرات العاطفية وساقتني رغباتي لمزيد من المتعة، متعة منح الجسد والروح هدية للحبيب... لمزيد من اللذة ، لذة الانصهار والذوبان معه جسد بجسد وروح بروح، اليوم فقط علمت لماذا تبني النساء الصروح العالية وتشيد قصورًا عامرات تجمعها برجل ترغب فيه، وتعيش معه كل ملذات الحب، وكيف تحطم الحواجز وتعبر الموانع هربًا من رجل لا تحبه ولا ترغب فيه. ليس هناك أسهل من الاتصال بمصطفى هو اليوم فارس أحلامي ولا بديل غيره، هذا الهاتف وهذا الرقم المدون على هذه الورقة.

وتم الاتصال... استقبل مكالمتي بالترحاب ولمست عظيم فرحته وبالغ سروره، بعد حديث قصير وكلمات قليلة تغير كل هذا وانقلب إلى بعض الارتباك والتردد، سألته كأني أفاجئه:

- ما بك يا مصطفى، وما معنى هذا الارتباك المفاجئ، هل تواجه مشكلة؟

سارع يقاطعني لعله لا يريدني أن أتم حديثي:

- لا... لا... ليس الأمر كذلك وليس من مشكلة ، لكن أمي وأختي عندنا في البيت لذلك لا أستطيع استقبالك هناك ، وليس من مكان آخر جاهز وآمن نذهب إليه هذا كل شيء...

- لا تبالِ يا مصطفى ولا تهتم ، أنا أيضًا لا أرغب بالذهاب معك إلى بيتكم ولا أي مكان آخر لقد حسبت حسابي واتخذت الاستعدادات اللازمة لأمر كهذا.

- كيف... ؟ لم أفهم شيئًا ، أرجو التوضيح ولا أحب المزاح في حال كهذه.

- أي مزاح، أنا أيضًا لا وقت ولا طاقة عندي للمزاح.

- حسنًا ، قولي ما عندك وأنا رهن إشارتك.

- ألم أخبرك بسفر زوجي إلى لواء العمارة ، أنا الآن وحدي في البيت.

- لكن... لكن كيف أدخل بيتك ، خطوة كهذه تحتاج إلى شجاعة نادرة وجسارة عالية وأنا لست شجاعًا ولا جسورًا إلى هذا الحد.

- وهل ستدخل روما ؟ ما بك خائف هكذا ؟ أشعر بارتعاشتك عبر الهاتف، أريدك أكثر رجولة يا مصطفى.

- أي رجولة وأي روما هذه التي تتحدثين عنها... أنا أخاف عليك أنت ، على حياتك وعلى سمعتك أكثر من خوفي على حياتي وسمعتي ، ماذا لو لمحني أحدهم أو الجيران وأنا أدخل بيتك ، أو زارك بعض معارفك وأقاربك حتى عودة زوجك ، محتملة وغير مستبعدة ، علينا أخذ الحيطة ولا تأخذنا الغفلة.

- اطمئن لا تهتم بكل هذا ولا ببعضه ، رتبت كل شيء والاحتياطات اللازمة لقضاء ليلة عمر ليس لها مثيل.
- من فضلك بعض المعلومات الإضافية ولو باختصار.
- نعم... ستحضر عند التاسعة ليلاً ، وقت لا يمر فيه أحد في الزقاق إلا في صدفة نادرة ، ولم يزرني أي قريب أو صديق منذ وصلت هنا قبل أكثر من ست سنوات ، ولا أتوقع زيارات بعد ست قادمات ، أما زوجي فلا ولن يعود قبل عودة والده من رحلة الحج إلى مكة المكرمة ، لا يهمك لو حصل شيء من هذا فالتدبير تدبيري والمكر مكري... مفهوم؟
- مفهوم... وماذا بعد ذلك؟
- لا تطرق الباب ، سأتركه شبه مغلق ، فقط ادفعه وادخل مباشرةً بسرعة وبلمح البصر ، احسب حسابك إنك ستتعشى هنا وتقضي الليلة عندي.
- حسنًا ، يبدو إنك واثقة من نفسك ومن حسن تدبيرك ، كل شيء واضح الآن ، ماذا أحضر معي ، أي شيء أنت بحاجة له؟
- لا شيء يا مصطفى لا شيء كل شيء عندي وأنا جاهزة ، تعال بشخصك فقط ولا تنسَ بعد العشاء عند التاسعة.
- إذن إلى اللقاء يا عزيزة... مع السلامة.
- مع السلامة.

● ● ● ●

نهضت منتفضة أسابق الزمن، أجد في نفسي همة غير معهودة ونشاط لا سابق له استعدادًا لاستقبال ليلة ثانية من عمري تمنيتها، وسأسعى لها بنفسي من أجل شيء جديد أظنه تغيير جذري في حياتي، غادرت إلى مطعم قريب للمشويات وأوصيت بتشكيلة تكفي لخمسة أشخاص يصل إلى عنواني عند الثامنة، وانتقيت أرقى أنواع الحلويات وأكثرها جودة وأنواع الفاكهة وأغلاها ثمنًا، بعد الظهر أكملت الجوانب الأكثر أهمية حين استأجرت ثوب زفاف أبيض وزرت صالون تجميل السيدات وخرجت بأحدث تسريحة شعر وأجمل مكياج، في بيتنا ليس أكثر من المشروبات الروحية من الخمور التي يخزنها موسى، ما تركت خلفي لا شاردة ولا واردة ولم أهمل صغيرة ولا كبيرة، حتى شهيرة منعتها من النوم في النهار كالعادة كل يوم حتى تنام في وقت مناسب في الليل وتستيقظ في وقت مناسب صباحًا، كل هذا كأنني أعد لحفل زفاف حقيقي لا تكريمًا وترحيبًا بشخص مصطفى فقط، إنما لإطفاء نيران أمنية طالما حلمت بها وتمنيتها لنفسي، ولتأجيج حرائق الثأر والانتقام من أولئك الذين ظلموني وتركوني في محنتي ومعاناتي وحدي.

نقترب الآن من التاسعة مساءً في مواجهة موعدنا المرسوم، لا بأس في ذلك فليكن فكل شيء جاهز وعلى خير ما يرام، أنا في حلة بيضاء كاملة، أرتدي فستان زفاف أبيض مع الحذاء وعلى

رأسي تاج العروس مرصع بالكرستال البراق ، وتجملت بما توفر من مصاغ ذهبي، غارقة برائحة عبقة زكية يفوح أريجها ليملأ البيت كله ، وهذه المائدة عامرة بكل ما لذ وطاب من أصناف الطعام وأنواع الشراب.

ماذا بعد... هل نسيت شيئًا ؟ لا... لا ما نسيت ، لم يبقَ غير حضور فارس الأحلام المنتظر ، مرت ربع ساعة بعد التاسعة، لا أعتقد أنه سيتأخر كثيرًا ، ها هو قادم، أسمع صرير الباب وألمحه يدخل بطوله الفارع بهيّ الطلعة، وسيمًا جذابًا مفتول العضلات ، يبدو خائفًا بعض الشيء ومترددًا قليلاً ، ناديته مشجعة من داخل غرفة النوم:

- ادخل يا مصطفى لا تخف فالمكان آمن.

ثم تابعت متمهلة أطمئنه وأزيده جرأةً وشجاعة:

- لا تخف... اطمئن، أغلق الباب خلفك بهدوء وأدخل مباشرةً إلى الغرفة المواجهة... أمامك...

تقدم بخطوات بطيئة ثابتة على نسق واحد، أراه يجول ببصره على الجانبين يمينًا وشمالاً كأنه يتفحص المكان من حوله حتى دخل الغرفة ، وجدني أمامه وجهًا لوجه وبلحظة واحدة ، فاجأته... أذهلته إلى ما فوق الانبهار ، فتح عينيه على أشدها بكل ما استطاع لها من سعة وصاح مندهشًا من هول المفاجئة:

- مـ... مـ... من... من أنت؟

أطلقتها ضحكة من القلب قوية لها رنين الأجراس ، أردفت أقول:

- ما بالك يا مصطفى أنا عزيزة، أما عرفتني؟!

- لا... لا ما عرفتك من النظرة الأولى ، ماذا... ماذا فعلت بنفسك، ما هذا الذي أراه... أنا مندهش؟

قلت وأنا أطوي ذراعي حول رقبته:

- عروس... أنا اليوم عروس لأجلك، ألا تريد عروسًا يا حسن؟ آآآسفة أقصد يا مصطفى؟

حاول أن يقول شيئًا... منعته... منحته الكثير من الوقت ولن أسمح بالمزيد! انهالت قبلاتي عليه وبنفسي خلعت عنه ما يهم من ملابسه ، وبكامل زينتي وحلتي البيضاء بدأت الجولة الأولى وهكذا استمرت ليلتنا ودامت بلا نوم حتى الصباح. استمر مصطفى بزيارتي بين ليلة وليلة حتى عاد موسى من سفره، بعدها واظب على زيارتي مرتين في الأسبوع على أن تكون ليلة الخميس/ الجمعة ليلة ثابتة يحضر في التاسعة مساء ويبيت معي في غرفتي ويغادر صباح الجمعة وغيرها لا موعد ثابت ولا مدة زمنية لها يحضر ويغادر متى ما شاء وحسب الظروف، كل هذا لا علم لموسى به ولا دراية ولو بوجوده وحياته وما زال بكامل قواه، موسى هذا الذي يتشبه بالرجال يدخل البيت عند منتصف اليل ثمل سكران يدخل غرفته وينام

نسمع صوت شخيره فقط وبغيره كأن لا وجود له، لا يدري أن رجلاً غريبًا مع زوجته في غرفتها وعلى فراشها يطارحها الغرام ويكفيها لذتها ويشبع شهوتها ويكب ماء الزنا في جوفها حتى زرع جنينًا ينمو ويكبر في بطنها، لأجل التعرف على كل هذا لا يحتاج أكثر من دفعة خفيفة على باب خشبي ضعيف غير مقفل يواجه باب غرفته تمامًا...

في يوم من الأيام جاء حادث حبسي له بالحمام وضربه بالقبقاب كما رويتها لكم، لا ينبغي أن يكتب عليّ حب رجل والإخلاص له رغمًا عني، رجل قيدتني به الظروف العائلية والعادات والتقاليد العشائرية، مثلي مثل غيري من الناس لا أستطيع أن أحب إلا بإرادتي ومن أعماق قلبي. سؤال يطرح نفسه... كيف ستنتهي علاقتي بمصطفى، هكذا صدفة كما بدأت أم بمأساة؟ وهل سيحل رجل آخر بديلاً عنه؟ وكم من الرجال سيدخلون حياتي بعد حسن وموسى ومصطفى؟.

(١٩)

الحر شديد... شديد جدًا في بغداد صيف ١٩٥٨ وكل صيف ، درجات الحرارة تتجاوز الخمسين درجة مئوية في الظل أثناء النهار الطويل ، في الليل تعيد الأرض بث ما اختزنته من حرارة إلى الأجواء القريبة ، هذا هو الحال ونحن في صيف العراق القاسي.

أحداث جسام وقعت هذا الصيف كثيرة العدد ، كبيرة الأثر ، عظيمة الأهمية تركت خلفها آثار عميقة لا تمحى ، ما زالت تبعات بعضها قائمة حتى اليوم وستستمر إلى ما شاء الله لها أن تستمر على مستوى الأفراد والعائلة والوطن العراق بأجمعه.

في حزيران تقدم مصطفى لخطبة بنت خالته، لم يفعلها استأذن مني أولاً ونال موافقتي ، لآ أمانع ، لا بديل من الموافقة فهو صديق فقط، على أن يتم الزواج في الأول من آب القادم وهذا ما تم فعلاً، باركت وقدمت التهاني والهدايا الثمينة.

الأول من تموز أصبح عمري ٢٠ عامًا ، مناسبة احتفلت بها لأول وأخر مرة في حياتي ، رفضت دعوته أولاً واستجبت حين وعد بالعودة إلى البيت قبل عودة موسى ، وهكذا تركت شهيرة أمانة مصانة عند جارتي هيام ورافقت مصطفى إلى

مطعم سياحي معروف ، جلسنا مكاننا وبإشارة من يده سارع عمال القاعة إلى إحضار كعكة عيد ميلاد كبيرة تزهو بما زينت به ، في وسطها شمعة كبيرة تدور حولها تسعة عشر شمعة أصغر منها ، بعض الورد على الطاولة وباقة زهور جميلة إضافية تسلمتها باليد زينت بها صدري.

صبيحة ١٤ تموز [١] حركة عسكرية بقيادة تنظيم الضباط الأحرار تطيح بالنظام الملكي الموالي للغرب والمتحالف معهم، والمراد له تخطيطًا وتنفيذًا لعب دور كهذا الذي تلعبه المملكة العربية السعودية ودول الخليج في المنطقة والعالم اليوم، يتمتع العراق بموقع جغرافي وثروات بشرية ونفطية ومعدنية وزراعية كبرى ، أحسن بكثير من دول الخليج مجتمعة تؤهله في لعب دوره وأدائه بنجاح أكبر وأفضل منها.

خذ بنظر الاعتبار الجهد الجديد المبذول والوقت أو الفترة الزمنية الضائعة في إعادة تأهيل وإعداد قادة جُدُد يمتلكون مقومات القيادة ويمتلكون خلفيات ثقافية متعددة الجوانب ، علمية، عسكرية، سياسية، أدبية، اجتماعية، وغير ذلك مما لا ملكه ولا يمكن أن يملكه مشايخ الخليج ، يحلون محل ملوك

---

(١) صفحة مختصرة مقتطفة من الرواية الثالثة من سلسلة روايات "رغبات صامتة" بعنوان (وجدته... ولكن) وجدت ضرورة وجودها هنا.

وقادة العراق منذ ذلك اليوم حتى الربع الأول من القرن الحادي والعشرين.

مفاجأة كبرى لبريطانيا والغرب ، وصفعة قوية لسياستهم أن ينقلب النظام الملكي الموالي لهم إلى نظام جمهوري اتجه اتجاهًا معاكسًا تمامًا في كامل علاقاته السياسية والعسكرية والاقتصادية صوب الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي والحرب الباردة على أشدها ، واحتمال تحولها إلى ساخنة وساخنة جدًا وارد واحتمال كبير ، في ظل منافسة غير شريفة بين المعسكرين للبحث عن حلفاء والتوسع والسيطرة على حساب أمم ودول حديثة الاستقلال وفي طور النشوء...

مازالت مكانة العراق محفوظة لدى الغرب ، مازال الموقع الجغرافي ثابتًا لا يتغير والخيرات لا تزول ولا تنضب وسهولة العثور على منفذ لمخططاتهم ، العملاء على قلتهم لكنهم موجودون ويمكن إيجادهم والتعرف عليهم بسهولة... لا ندري ما إذا كانت حركة تموز انقلاب عسكري كما بدأت بقيادة تنظيم الضباط الأحرار الذين شبهوا أنفسهم وثورتهم بثورة تموز المصرية وقادتها ، أو ثورة شعبية ، كما انتهت بتأييد شعبي واسع... أم هي تقليد لثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا بموجب الأسلوب المتبع في التنفيذ حيث تم قتل الملك الشهيد

فيصل الثاني والعائلة بالأسلوب الذي قتل فيه القيصر والعائلة الملكية هناك ؟![1]

كان من المقرر أن يغادر صادق العراق إلى لندن لإتمام دراسته الجامعية العليا على نفقة الدولة بموجب اتفاقية ثقافية بين البلدين، لكن وقوع حركة تموز تسبب في إلغاء الاتفاقية، فقررت العائلة في اجتماع لها أن يستمر الشاب في مساعيه ويغادر على نفقته الخاصة مستثمرًا ما بحوزته من موافقة جامعية وتصريح دخول "فيزا" نالها قبل أسابيع قليلة على أن أتحمل أنا وحدي نصف كلفة السفر والإقامة.

وافقت على مضض، استجبت دائمًا لمطالب العائلة المادية، ولم أعتد رفضها، متحملة نفقاتهم الشهرية وتكاليف الدراسة وإيجار البيت الشهري على مدى خمس سنوات، حتى بدأت أشعر بالتعب وثقل المسؤولية، وجاء الآن ما يزيدها ثقلاً، لا يمكن التراجع، بل هذا ضرب من الجنون والمهمة على وشك الانتهاء، لكن هذه الأيام جيوب موسى شبه خاوية وخاوية أحيانًا، شكوك تراودني، لعله على علم بما أختلسه من جيبه ومحفظته كل ليلة، وما هذه الشحة إلا احتياطات يتخذها، لأول

---

(١) تفاصيل أكثر وبرؤية جديدة عن حركة تموز ورجالها وأهم أحداثها في الرواية الرابعة من سلسلة روايات "رغبات صامتة" بعنوان (البديل).

مرة أضطر لبيع قطع من مصاغي الذهبي لأتمكن من الوفاء بوعدي لهم بدفع نصف ثمن تذكرة السفر ، وخمسون جنيه إسترليني إضافي كمصرف جيب، وأنا أدفع لهم المبلغ طلبت منهم بصوت مرتفع وعصبية واضحة مساعدتي قليلاً بالتقشف وضغط المصروفات والاعتماد على أنفسهم بعض الشيء ، والسعي لكسب ولو القليل من المال، هل تعتقدون أنني أنام وموسى يحتفظ بكنوزه وأمواله تحت وسادتي، قريبًا سيأتي يوم تعلمون به كيف وبأي طريقة أجمع المساعدات لكم، وجدت منهم تفهمًا للرأي وقبولاً للقول ووعدًا بالتنفيذ وعرفانًا بالجميل وكثيرًا من الامتنان والشكر والتقدير.

لا ولم أندم على تعبي عليهم وتضحياتي من أجلهم بل كلي فخر واعتزاز ، بعض الحق معهم فهم وأمهاتهم لا يعرفون نوع العلاقة التي تربطني بوالدهم، يعتقدون إنها على خير ما يرام وأنا المدللة عنده وكله هو وأمواله طوع أمري. علاقة لا يعرفها غير مصطفى هو وحده وجدت به متنفسًا وحكيت له كل ما مر بحياتي ولم أحجب عنه شيئًا.

(٢٠)

أشعر بأعراض صحية غريبة ، أهملتها ، اعتقدتها أعراضًا عادية ، غفلة ضيعت بها وقتًا ثمينًا حتى أسعفتني ذاكرتي بأعراض مشابهة كانت قبل أكثر من خمس سنوات ونصف علمت منها أنني حامل، على إثرها جاءت ابنتي شهيرة... هل أنا حامل الآن، في رحمي جنين غير شرعي؟ مصيبة كبرى لو ثبت أمر كهذا ، إنها النتيجة الحتمية لشراكة فعلية غير مشروعة بين رجل وامرأة على فراش واحد... ما العمل الآن؟ كل ما جرى ومضى من أحداث قد تهون أو لا تهون في سلبياتها وإيجابيتها إلا أن أنجب طفلاً من رجل وأنسبه إلى رجل آخر، لا أستطيع الاستمرار بلعبتي هذه حتى نهاية كهذه.

انطلقت مسرعة بعلاقتي مع مصطفى، لم أتمهل ألتفت حولي قليلاً إلى الوراء لأتبصر ما يدور حولي ، على الأقل أتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الحمل... ماذا أقول لموسى وهو يعلم جيدًا إنه لم يراودني على فراش واحد منذ الشهر الرابع تقريبًا لحملي بشهيرة؟ ماذا لو انطلق لسانه وتكلم وأخبر الناس بكل ما بيني وبينه؟

الخبر اليقين، الحقيقة أثبتها الفحص الطبي، قال الطبيب : أنتِ حامل في الأسبوع السابع ، ما عساي أن أفعل وأنا أواجه الفضيحة والعار ؟ يجب التخلص من هذا الجنين ، نعم يجب التخلص منه الآن وبأسرع وقت، يجب أولاً الاتصال بمصطفى وإخباره بالتفاصيل.

اتصلت به وأخبرته... فرح فرحًا شديدًا ، تهلل وجهه بأطياف السعادة والسرور ، صفق وطرب وتمايل راقصًا! هه... جاهل ، إنه جاهل وجهله يتجلى في تجاهل الغد القريب وعواقبه!. لم أرضَ عنه وعن سلوكه ربما لأنه مازال شابًا قليل الخبرة لا يدرك معاني الحقيقة ، حقيقة أن تحمل المرأة ، أي مرأة ، وخاصة المرأة الريفية في بطنها جنينًا غير شرعي نتيجة علاقة غير شرعية مع رجل أو رجال غير زوجها ، هذا لأنه ابن المدينة ، بغدادي الأصل والجذور ، وإن بدأ التقارب في العادات والتقاليد يتضح بين أهل المدينة والريف ويزداد وضوحًا وقربًا بمرور الزمن بسبب الهجرة الجماعية الكثيفة من الريف إلى المدينة ، وذوبان الطبقات الاجتماعية وانصهارها في بوتقة ثقافية واحدة بمساهمة إعلامية فعالة ، إذاعة، تلفاز ، صحافة، سينما.

أنبته بغضب على تصرفه وطلبت منه بعصبية غير معهودة بيننا الاهتمام بمعالجة الموضوع ، والحرص على احترام

الموقف والإسراع في إيجاد حلول مناسبة، وأن يتجه بالاتجاه المعاكس تمامًا على ما هو عليه الآن. تساءل بجدية جامعًا بين الرقة والمجاملة:

- فهمت يا عزيزة، ما المشكلة، أنت حامل مسألة عادية ليست بحاجة لضجة وتهليل وتطبيل...

أجبته بغضب شديد، رفعت يدي أمام وجهه كأنني أنوي صفعه:

- لا... لا أنت واهم، مسألة غير عادية لامرأة لم يراودها زوجها منذ خمس سنوات، ما أدراك كيف سيكون رد فعل موسى وكيف سيتصرف، بادر أنت في التحكم بالظروف المحيطة بك ولا تترك المفاجأة تتحكم بك.

- وما الحل؟ ماذا تريدين مني، وما عليّ فعله؟

- إسقاط الجنين...

صعق... مفاجأة غير متوقعة لم تعجبه، انتفض من مكانه كالمجنون:

- ماذا، إسقاط الجنين؟ أمجنونة أنت؟ تريدين إسقاط طفلي؟!

- طفلك ؟! وهل تريد الفضيحة لنا ؟ الفضيحة والعار ؟ لعلك نسيت أنا من أصول ريفية، إذا علم أهلي بالموضوع وبما بيني وبينك، سيتم قتلي غسلاً للعار أمر حتمي لا بديل عنه، ثم قتلك أنت حين لا عاصم يعصمك ولا ملاذ آمن يأويك على طول العراق وعرضه، تأكد مما قلته ولا تتغابى أو تغفل...

لم تهدأ ثورته، أصر على موقفه واستبد برأيه، استمر الحوار سجالاً بيننا ، أخيرًا استمعت له بدهشة وذهول وهو يقترح اقتراحًا جديدًا:

- لا... لا... لا وألف لا... لا لإسقاط الجنين، لن أوافق أبدًا ، وحتى لا تقولي تخليت عنك وغدرت بك وتركتك وحدك في محنتك ، اقترح طلب الطلاق من موسى ، تخلصي منه وسأتزوجك ، وهكذا نمنح الجنين شرعيته ونعيدها له ما دام مني، لو كنت أدري ما تقدمت لخطبة بنت خالتي... أنا أحبك يا عزيزة، آه... آه لو تعلمي كم أحبك، والآن هذا الجنين جعلني أحبك أكثر وسأسعى مخلصًا للزواج منك وأعوضك عن كل ما فات، صحيح لقاءنا الأول كان على خطيئة لكنك كنت العزيزة الغالية وهذا الجنين يجعلك الآن أغلى ما أملك في حياتي، ها ما رأيك؟.

جاش صدري بانفعالات مختلفة جميعها قريبة إلى قلبي وغالية على نفسي وأنا أستمع إلى كلامه الرائع الجميل، كلام معقول ومقنع يشكر عليه عبَّر به خير تعبير عن حبه العظيم واستعداده للتضحية بالغالي والنفيس من أجلي. لسن قليلات تلك المرات التي يسمعني كلمات طيبات، لا أصدق أذني، كلام فرحت له كثيرًا ملأ نفسي سرورًا، من خلاله علمت علم اليقين أن الأيام لا تستطيع قهري وهو معي، وأنا لم أخطئ أبدًا حين اتخذته صديقًا ورفيقًا وحبيبًا ولو من خلف الأبواب المغلقة والشبابيك

المسدلة الستائر، محبوب على استعداد تام للتضحية من أجلي، وينتشلني من واقع أليم أعيش فيه... منذ بدأت علاقتي به تلك الليلة المباركة، الليلة الأولى وجدته إنسان رقيق، لطيف، متواضع، كريم اليد واللسان... علاقتي به ألغت حالة الركود والخمول التي كنت أستشعرها، لقد كان هو التجربة القاسية التي تجاوزتها والامتحان الصعب الذي نجحت به، معه ما زلت نظيفة نقية لم يلحق بي من القذر والدنس شيء، وعشقي الروحي له ليس ذلك العشق الآثم وانغماسي في حبه ليس هو الرذيلة بل هو طهارة الجسد والروح معًا.

ليس فيه شيء كرهته أبدًا، ومعه فقط أدركت لماذا تمكنت من تحطيم كل القيود وعبور كل الحواجز الفاصلة بيني وبين الرجل الذي ينير الدرب أمام عيني، ويقودني مبصرة في طريق الملذات المعبد المحاط بجنائن الحب الغناء، لكن... في ظل هذا التهافت على مصطفى، هل تخليت عن حسن ونسيت حبه وسقط شخصه عن قلبي كما غابت صورته من عيني، وهل يمكن وبدافع اليأس أن يحل شخص محل شخص آخر هكذا بهذه السهولة؟ لا... لا... وألف لا، حسن في مكانه لا يسقط من القلب، وإن غاب عن العين فصورته باقية ترتاد خيالي في صحوي ومنامي، وذكرياته راسخة لا تمحى، وما مصطفى إلا حالة استثنائية طارئة فرضتها ظروف آنيّة خاصة

تذهب وتنتهي يومًا ما، ومعها يتلاشى كل شيء، لذا لا أستطيع الإصغاء إلى طلبه ولا يمكن تنفيذ اقترا حه بأي شكل.

• • • •

تمر الأيام ثقيلة، المبادرة مازالت بيدي ويجب التمسك بها قبل ضياعها وبسرعة، لكن، إلى أين أذهب، كيف أتصرف، وإلى من وماذا أقول؟ بدأ التخبط يلازمني والسير العشوائي في متاهة الأحداث يضيعني، ومصيري إلى هاوية مظلمة بلا قرار بائن بوضوح من الخطوة الأولى حين ذهبت لأطلب المساعدة في إسقاط الجنين من الأمهات مطلقات موسى بشرى وإيمان! كأني سكبت الزيت على النار، ساعات طويلة من الثرثرة وإطلاق أسراب النصائح انتهت بالرفض... الرفض القاطع وبشدة وهن على حق، كل الحق يقف مصطفًا إلى جانبهن حين اعتقدن خطأ أنه من موسى وإسقاطه لا يجوز وحرام، من جانبي وجب السكوت على ما تبقى من أطراف الحديث ولملمة الموضوع، ما العمل الآن هل أخبرهن بالحقيقة؟.

الخطوة الثالثة... مراجعة العيادات الطبية الخاصة، زيارات متلاحقة لأكثر من طبيبة متخصصة، جميعهن طلبن حضور الزوج والتوقيع على الموافقة، أغشاني الرعب والخوف حين طردتني إحداهن من عيادتها لأني عرضت عليها مبلغًا ماليًا

كبيرًا مقابل التخلي عن هذا الشرط، غضبت... اعتبرتها رشوة وهددت بتسليمي إلى الشرطة إذا رجعت لها ثانية.

رجعت إلى مصطفى، طلبت منه راجية متوسلة مرافقتي إلى عيادة طبية وتمثيل دور الزوج ، ضحك ضحكة ضحلة مصطنعة، حاول إخفاء عصبيته خلفها رافقتها بعض الكلمات الطائشة التي لم أفهمها، رفض مساعدتي وكرر اقتراحه الأول ذكرني برغبته في الزواج مني إذا طلبت الطلاق من موسى وأكد أنه الآن يملك فرصة فسخ خطوبته من بنت خالته ولمدة عشرة أيام قبل إبرام عقد الزواج في المحكمة الشرعية، باركت له وهنأته وتمنيت له حياة زوجية سعيدة، كررت رفضي لأني فصليّة بالأصل لا يجوز لها طلب الطلاق تماشيًا مع العادات والأعراف ، ذكرته إنه سيتزوج بالحلال من بنت الحلال وسينجب خلفًا صالحًا بالحلال وليس بحاجة إلى هذا الجنين في بطني ، جنين ليس معه غير المشاكل وسيجلب الفضيحة والخزي والعار لنا جميعًا لهذا يجب ألا يعيش.

خرج من بيتي وما زال رافضًا ، خرج ومعه سر الاحتفاظ بالجنين وبإصرار عجيب، ذهب وتركني مع محنتي وحيدة، عندي حدس أنني لن أراه إلا نزرًا وربما لن أراه أبدًا لذلك لم يعد له لزوم، وجب البحث عن غيره لطلب المساعدة، ومن عنده القدرة ومعه الإرادة في إخراجي من حيرتي ومحنتي،

أجد دائمًا من يقف معي ويساعدني لكن في هذه المحنة أنا وحيدة فعلاً بعد فشل محاولاتي في إقناع من يمكنه مساعدتي.

(٢١)

مات مصطفى...

نعم... مات مصطفى بعد خمسة أسابيع من زواجه ، شاهدته خلالها مرة واحدة فقط كنت في النفاس بعد خلاصي من الجنين دون أن يدري ، لم أكن أريد أن أخبره قبل أن يبوح بسر إصراره العجيب بالاحتفاظ به ، حاولت استدراجه واستنطاقه ، وعدني إنه سيخبرني حين نلتقي في حفل عيد ميلاده القادم بعد ثلاثة أيام ، تلقيت دعوته ووعدته بالحضور والمغادرة السريعة عند الغروب قبل حضور باقي الضيوف.

لم يكن هناك لقاء قادم ولا عيد ميلاد ، إنما كان الحادث المؤسف بالمرصاد ، في مساء السابع من أيلول ، كان يعد لعيد ميلاده السابع والعشرون في مزرعة قريبة تملكها خالته أم زوجته ، علمت بالحادث الجلل فور وصولي إلى مكان الحفل بعد ساعة تقريبًا من وقوعه ، لم أصل متأخرة لكنها ساعة ثمينة ضاعت من عمري ، شاهدت الفوضى تضرب المكان وسمعت جلبة أصوات غير متناغمة هي خليط غير متجانس من صراخ وبكاء ونحيب ، سألت أحدهم فأجاب بالتفاصيل... قال إنه مات بصعقة كهربائية خلال محاولته ربط النشرة الضوئية الرئيسية

المقرر لها إضاءة المكان بين الأشجار ، بددت النشرة الضوئية أنوارها وألغت وجودها وليس من بديل غير الظلام... والموت.

في اليوم التالي حضرت مجلس العزاء الخاص بالنساء في بيتهم في الصالحية، زرت البيت للمرة الثانية، هه... شتان بين الزيارتين، جلست أبكي حزينة مكسورة مكللة بالسواد وعيناي تختلسان النظرات تجولان في أرجاء البيت ، وذاكرتي تقلب أحداث الزيارة الأولى تستذكر وقائعها وأنا أتقمص شخصية مارلين مونرو مرتدية ثوبي الستان الوردي اللماع!

قدَّمتُ كامل التعازي للنساء الحزينات من أهل بيته بدون معرفة سابقة ، خرجت تاركة المكان بلا عودة فليس هناك زيارة ثالثة ، رحل مصطفى من عالمي ومعه ذكريات ستة أشهر متواصلة من بداية آذار حتى بداية أيلول، امتزج حلوها بمُرها كأنها حلم، رحل وترك خلفه حفنة من النساء اللائي ليس لهن غيره في هذه الدنيا ، أمه، شقيقاته الثلاث، زوجته الشابة الصغيرة الحامل في أسبوعها الرابع، هذا ما سمعته في مجلس العزاء والتي أنجبت بعد ثمانية أشهر مولودًا ذكرًا جميلاً حمل اسم مصطفى ليعيد ذكراه.

هنا أرغب في ذكر صدفة فيها كل ما هو عجيب وغريب بشكل لا يمكن أن يصدق، وأنا شخصيًا المعنية بشكل مباشر بها؛ لو لم تقع أمامي وألمسها باليقين ما كنت صدقتها... لقد تزوجت

أرملة مصطفى بعد ثلاث سنوات من وفاته من شقيق جارتي وصديقتي هيام، هو ذاته المقصود بالهدايا، السبب في زيارتنا محلات العائلة السعيدة التجارية بمناسبة زواجة الأول، اقترن بها كزوجة ثانية شريكة معهم لتصبح وتمسي جارتي الجديدة مع ابنها مصطفى الصغير، الذي يحمل ملامح والده تمامًا كأنه نسخة منه، أتحدث إليها متى ما أشاء عبر الجدار المنخفض الفاصل بيننا، أحيانًا تحدثني عن مصطفى رحمه الله عن حياته، أهله، عمله، صفاته، كيف عاش وكيف مات... لا تدري بما كان، مع هذا أصغي لها بشغف وإمعان كأني لا أعرف شيئًا، أحتضن صغيرها وأقبله كل يوم دون أن يعرف السبب أحد غيري... يا للصدف العجيبة الغريبة التي لا نستطيع إيجاد تفسير منطقي معقول لها!.

(٢٢)

يوم بعد آخر تصبح مسألة التخلص من الجنين أكثر إلحاحًا والتأخير يزيدها صعوبة ويدفعها نحو المستحيل ، لا ينفع اللجوء إلى مصطفى مرة ثالثة ، إذن وجب البحث بجدية عن أي شخص يمكنه تقديم المساعدة ، ومن له أن يخرجني من محنتي وحيرتي بهدوء وبدون فضيحة لست أدري ، كيف لي أن أحرر نفسي من سلاسل حدث كهذا ؟ أنا أحاول إخفاء ذلك الأمر ما استطعت ، هل أملك القدرة على المطاولة والصمود على الاحتفاظ به سرًا وإلى متى ، إلى الأبد مثلاً ؟ حقًا... لن أتخلص من ورطتي ومحنتي إلا بمعجزة!

في ظل ثورة عشوائية وتخبط في الفراغ ؛ قررت اتخاذ أمرًا واحدًا من أمرين طرقا باب أفكاري... أولهما السفر إلى البصرة وطلب المساعدة من أمي وأختي سعدية وهذا يقتضي فضح الأمر ، ما المشكلة فليس هناك من يتستر على فضائحي وجنوح رغباتي الصامتة غير أمي وأختي على أن يعد حادث الإسقاط حادثًا عرضيًا ، ثم استبعدت رأيًا كهذا ، ليت الأمر ينتهي معهن، ماذا لو وصل الخبر إلى والدي وإخوتي، هذا إذا نجحنا في تمرير أسبابه المزيفة ، ومنهم إلى موسى الذي لن يصدق أي حكاية ولا يقتنع بأي سبب للحمل وليس للإسقاط ،

وحسب ذلك نعود إلى نقطة البداية من جديد وستذهب جهودي هباء كومة قش تذروها الرياح، وسأضع حتمًا نهاية مأساوية لحياتي كلها...

دفعت في وحدة اليأس، ترددت كثيرًا لأيام طويلة لأوازن وأقارن بين الأمرين فرجحت كفة الطريق الثاني، لم أجد أمامي طريق غيره فقررت سلوكه... سأذهب للمرة الثانية إلى الأمهات بشرى وإيمان لطلب المساعدة، تسلطت هذه الإرادة على فكري ليل نهار ولأيام طويلة حتى قررت تنفيذها، مشيت على الأشواك في المرة الأولى وسأمشي على جمر نار مستعرة هذه المرة! أتساءل... هل أنا على الطريق الصحيح، أم ما زلت أتخبط حتى تزل قدمي وهي سقطة ما بعدها نهوض؟.

• • • •

ذهبت مبكرة إلى بيت العائلة، وصلت قبل الثامنة صباحًا لأضمن وجود الأمهات وحدهن في مثل هذا الوقت، تساءلت بشرى وهي تجلس إلى جانبي تحثني على الحديث:

- ها عزيزة صباحك ألف خير.

- صباحك ألف خير، شكرًا أم صادق الغالية.

- أنت هنا مبكرة هذا اليوم على غير العادة، خير إن شاء الله؟

ردت إيمان مؤكدة ومؤيدة ، ناولتني قدح شاي وجلست على الجانب الآخر:

- نعم صحيح هذه أول مرة تقصدين زيارتنا صباحًا، أكيد هناك أمر مهم جدًا جاء بك ، سأجلس هنا إلى جانبك وأستمع ، هيا قولي ما عندك.

رفعت رأسي قليلاً ، وجدت نفسي بينهن ألتفت على الجانبين أستطلع الوجوه، أحاول قراءة الأفكار من خلال نظرات العيون المشدودة أبصارها نحوي بشغف ولهفة ، تترقب كل ما هو جديد من الأخبار المهمة والمثيرة، سواء كانت سارة أو غير ذلك ، لم أخيب الظن حين سبقت دموعي كلماتي وأجهشت بالبكاء، حاولت أن أتكلم فلم أتمكن من إخراج كلمات واضحة مفهومة ذات معنى ، فوقع الرعب في النفوس ، حيرة واستغراب... تساءلن بأسف واندهاش:

- يا ساتر يا رب... ما بك يا عزيزة، لماذا تبكين؟!

- ما الأمر وما الذي أبكاك، هل وقع مكروه لموسى أو لأهلك في البصرة؟!

- كفى... كُفي عن البكاء، هكذا لا نفهم شيئًا...

قلت وأنا في قمة الانفعال:

- أريد إسقاط الجنين.

بشرى دون أن تفهم المقصود:

- وهل تبكين هكذا بحرارة تذيب الصخر من أجل إسقاط الجنين؟!.

- أي...

زاد فيهن العجب والاستغراب، ردت إيمان بدهشة:

- ما حكاية هذا الجنين وحكاية الإصرار على إسقاطه؟

تابعت بشرى:

- تبكين بمرارة خائفة ومرعوبة كأنك أم لعشرين وليس لطفلة واحدة عمرها خمس سنوات، دعيه، دعيه يرى النور أخ أو أخت لشهيرة.

فقدت السيطرة على دقات قلبي المتسارعة كأنه يريد الخروج من صدري، وازدادت نبرات بكائي وارتفعت أصواته، فجلبت الشبهات وسارع في كشف سري وفضح أمري، خرج الشك من قلوب الأمهات ودخل اليقين بديلاً، واجهت فيض متدفق من الأسئلة والاستفسارات بالتناوب بينهن، بدأت بشرى:

- أقول... هل عندك شك... يا إلهي أين ذهبت بأفكاري، هل يعقل هذا؟!

وتابعت إيمان:

- إلى أين... وبماذا تفكرين؟!

فقالت بشرى:

- هل عندك شك بأبوة الجنين يا عزيزة؟ هل تشكين بتبعيته إلى موسى؟!

صاحت إيمان:

ـ يا إلهي... ماذا تقولين يا بشرى؟!... لا، لا، لا... أعوذ بالله...

ـ هل... هل.. هل هذا الجنين لقيط؟ أجيبي يا عزيزة، هل هذا الجنين لقيط ابن زنا وحرام؟

بلا وعي ملموس مني ودون إدراك ملموس أومأت برأسي بعلامة الإيجاب، وتحول بكائي من شبه الصمت إلى شبه الصراخ، لم تعد هناك فائدة من النكران ولا حاجة للتستر في لحظة لا مفر من لقائها، شعرت بعدها أن حجرًا ثقيلاً أزيح من فوق صدري، لحظة لم أسمع بعدها غير أصوات الصراخ والعويل واللطم على الصدور وضرب الخدود، ولا أدري من المتحدثة منهما ومن الصامتة ومن منهما تصفعني أو تركلني ومن هي التي تسحبني سحلاً من شعر رأسي إلى الباب الخارجي لترمي بي خارج البيت، مصيبة، مصيبة، مصيبة، إلى أين وإلى من سنواري وجوهنا؟ وكلام كثير كهذا لم أستوعبه، تجاوزنا به فترات الصباح والضحى حتى الظهيرة، لم أعد أحتمل، تشجعت قليلاً وجمعت بعض قواي المشتتة والسيطرة ولو جزئيًا على أعصابي وأسترد بعض رشدي وصوابي، رفعت صوتي لأول مرة منذ عرفتهم صارخة بهن:

- لا ، لا ، لن أخرج أبدًا وما جئت إلى هنا لأهان برذيل الكلام وأطرد بفضيحة ، بل جئت لطلب المساعدة والبحث عمن يسترني.

ردت الأمهات بهجوم عنيف مضاد ، كلام مهين مخيب مبطن بسخرية واستهزاء ، لست أقل منهن وكفتي هي الراجحة في جدال سجال مقيت استمر لساعة إضافية، لن أسمح لهن بالمزيد وقفت لهن على طولي، حدجتهن بنظرة خزر وبغضب واضح صحت بصوت مرتفع نوعًا ما:

- ليس هذا وقت هزء وزراية وكلام ملامة يمزقني كالسكاكين ، يجب التصرف بسرعة وحكمة وهدوء ، وهذا أهون الشرين ، بل أهون من كل شر قد يخطر على بال ، ولنترك العتاب والحساب والعقاب إلى ما بعد ذلك.

من أين جاءت هذه الغضبة؟! إنها حقًا ثورة حقيقية طارت على جناحي الجرأة وقوة الإرادة لتأخذني معها إلى واقع أمنياتي الراقصة بين حلم وإرادة وأمل ويأس... ما زالت الأم الأكبر بشرى على إصرارها وما كانت عليه ، ومالت للتشدد ، بينما أبدت إيمان بعض الليونة ومالت للتهدئة حين سحبتني من ذراعي إلى الحمام وقالت بهدوء:

- اغسلي وجهك ويديك ورتبي شعرك وهندامك وتعالي نتفاهم...

وجدت في حركتها هذه بابًا للفرج قد فتح بوجهي ، وكلامها بارقة أمل تدخل منه هذا ما حثني على تغيير لهجتي وأسلوبي بالاتجاه المعاكس تمامًا، ققزت أقبل يدها وأشكرها، دعوت لها دعاءً جميلاً وأسمعتها كلامًا طيبًا.

- علينا أن نفكر بعقل واحد وإرادة واحدة وإلا ستعم الفضيحة علينا جميعًا...

هكذا علقت إيمان وهي تسلم كل واحدة منا فنجان قهوة وقدح ماء بارد ، قاطعتها بشرى رافضة ومازالت غاضبة تمسح دموعها بمنديل:

- لا شأن لي بالموضوع برمته من أوله إلى أخره ، فكري وحدك واعملي بمفردك ، تتخلصي من الفضيحة وارمي بها على ظهري أحملها وحدي.

جلست إيمان إلى جانبي وهمست بأذني:

- اليوم على غير العادة تبدو أمنا بشرى غاضبة بمزاج حاد وهذا ليس من طباعها، تذكري جريرتك فظيعة ليست هينة لا يمكن استيعابها وتقبل أسبابها والسكوت على نتائجها، مع هذا لسانك سليط يجب قطعه وتتصفين بجسارة العاهرات الساقطات بنات الشوارع، أين أنت من خلق بنات العشائر النجيبات وعفة بنات الأرياف الطاهرات، أنا من جانبي لا أسامحك ولن أهب لمساعدتك لولا خوفي على تشرذم العائلة وانسحاب سوء السمعة على بناتنا ، هيا... هيا اذهبي وقبلي قدميها ويديها

ورأسها ، اجلسي إلى جانبها ترجيها ، أطيلي التوسل لها وتعهدي بعدم العودة لجناية مثلها لعلها تقبل مساعدتك مثلي دون أن نرضى عنك ما دمنا أحياء ، بعدها اذهبي إلى جهنم وبئس المصير ولا ترينا وجهك بعد اليوم، هيا انهضي نفذي ما قلته حتى أغير ملابسي...

انطلقت على الفور ، جلست إلى جنبها ، أشاحت بوجهها عني وأدارت لي ظهرها، حاولت أن أقبلها رفضت، دفعتني، هربت مني ودخلت غرفتها مسرعة، بإشارة من إيمان دخلت بإثرها وبلحظة ضعف ما عهدتها بنفسي من قبل ارتميت أقبل أقدامها ويديها ورأسها وأقول بحرقة راجية متوسلة:

- سامحيني أنا مثل بنتك، استري عرضي الله يستر على بناتك ويرجع ابنك صادق ظافرًا بالسلامة والتوفيق ، أنا أخطأت والتوبة على يدك، خطيئة لا ولن أعيدها...

- لو أنتِ ابنتي لذبحتك بيدي هذه، كيف ارتضيتِ لنفسك قبحًا كهذا وأنت بنت العشيرة والأرياف؟

- نعم معك كل الحق ، لكن لو علمت بأوضاعي مع موسى وكيف أعيش معه لـ...

- ليس هذا بمهم ولا حق معك ولا عذر عندك، كل مشكلة لها حل وكل شيء يمكن قبوله أو تجاوزه ورفضه ، إلا بيع الأعراض والتفريط بالشرف الغالي، المرأة الحرة منا وفينا لا تساوي قشرة بصل بدون شرفها وعرضها.

وأخيرًا هزت رأسها بعلامة القبول حين سألتها إيمان:

- هل أذهب إلى أم عامر؟

خرجت إيمان من البيت وأغلقت الباب خلفها وبذلك فتحت بوجهي باب الأمل. دخلتُ والأم بشرى إلى المطبخ نعد وجبة الغداء المتأخرة كثيرًا عن موعدها هذا اليوم، سألتها عن أم عامر من تكون قالت:

- إنها قابلة مأذونة ومجازة من وزارة الصحة العراقية، تساعد النساء ممن لا يرغبن في المستشفيات على الولادة في البيت. خبيرة، ماهرة ممتازة في عملها خفيفة الظل متعاونة، حبها للمال هو عيبها الوحيد وهذا ما يسهل أمرنا معها.

فعلاً تم الإجهاض بعد أقل من يومين بسهولة وسرعة وسرية تامة، لا علم لأحد بها غير الأمهات. زارني مصطفى بعد أيام قليلة، لم أخبره بالإسقاط وتحججت بوعكة صحية، دعاني إلى حفل عيد ميلاده بعد ثلاثة أيام حيث وقع حادث وفاته... بعد كل هذا... هل ستستقيم لي الأمور في قادم أيامي أم ستحملني ما لا طاقة لي عليه؟.

(٢٣)

ما زلنا في أواخر صيف ١٩٥٨، الحالة الجوية تميل للاعتدال. ماذا عن أحوال موسى هذه الأيام؟ تساؤل يقودنا للإجابة عن أهم وأخر حوادث هذا الصيف الحافل بالمفاجآت، من دون كل أعوام روايتنا الممتدة من ٥١ـ ١٩٦٤م... ثمة وقائع وتصرفات غريبة عجيبة مثيرة تقع مع موسى هذه الأيام جلبت انتباهي، بعد شحة تدريجية استمرت لأسابيع؛ فتشت جيوبه ثلاثة أيام متتالية لم أجد فيها فلسًا واحدًا، حتى محفظته المكتنزة بالدنانير وأجزائها اختفت تمامًا لا وجود لها، اعتقدت أنه اكتشف سر ما أختلسه منها وما هذه إلا احتياطات يتخذها، تدني مستوى مشترياته من التجهيزات المنزلية وأهم المواد الغذائية كالفواكه والخضروات، وغابت أنواع أخرى كان يعتبرها من الكماليات مثل الحلويات والكرزات، وتقلص مصروفي اليومي حتى انقطع تمامًا...

أول الأمر اعتقدت أنها سياسة جديدة يتبعها معي لإجباري على تغيير أسلوبي في التعامل معه ومطاوعته، لم أهتم به وتجاهلته، والأهم من كل مهم انخفاض مستوى اهتمامه بنظافته ومظهره الخارجي، فلم يعد يستحم ويحلق لحيته صباح كل يوم كما جرت العادة، وطالت المدة الزمنية بين ممارسة وأخرى

إلى ثلاثة أو أربعة أيام ، وتوقف عن استعمال العطور ، وانحسرت الماركات العالمية الراقية من خزائنه حتى اختفت تمامًا ، وكذلك الحال مع الخمور ، إنه يستبدل الويسكي الأسكتلندي الفاخر بأنواع من العرق المنتج محليًا في البيوت "هب هب" ، وقلّت فترات خروجه من البيت الممتدة من الغروب إلى ما بعد منتصف الليل!

بقيت هادئة بأعصاب باردة، ذهبت ظنوني خطأ إلى أنها حالة نفسية وستزول قريبًا بعد يأس، حتى كادت الفرصة تفلت من يدي ويضيع كل شيء. في يوم عند الغسق وبعد ربع ساعة من خروجه رجع إلى البيت حزينًا ساهمًا منكس الرأس سألني متلعثمًا بتردد:

- هه، هه... هل أأأأجد عندك ربع... رررربع دينار يا عزيزة؟

- ها... ماذا... ماذا تريد؟

- ربع دينار...

تملكني العجب... سألته ساخرة كأني أتحدث إلى طفل صغير:

- وما حاجتك بربع الدينار... ها حبوبي؟ وما ستشتري به، لعبة تلعب بها مع أصحابك في الشارع؟

قال بقلب مكسور يكاد ينفطر حزنًا وغيظًا:

- رفض جارنا بائع الخمور سركيس أن يبيعني عرقًا وطردني من حانوته...

- لماذا؟!

- صار له دين كبير وهو يرفض بيع المزيد من العرق بالدين حتى أسدد ما بذمتي...

ها! ماذا يقول موسى؟! وما هذا الكلام الذي أسمع؟ يا إلهي هل أنا في حلم يقظة أم كابوس منام؟ منذ متى وأحوال موسى المالية في تدهور وهبوط؟ وأين كنت عن متابعة ملاحظة كهذه والتعرف عليها مبكرًا؟ هل فاتني ما فات لأنني كنت معتدة بمقاطعتي له، غارقة بعلاقة مشينة مع رجل غيره، ثم انشغالي بالتخلص من الجنين؟ نسيت زوجي، نسيته بحيث لم أنتبه إلى أي طارئ أو متغير جديد عليه، وبهذا العمق السحيق، وإن كنت لا أحبه وأهتم لوجوده...

أخذتني ظنوني وشكوكي واعتقاداتي بكل الاتجاهات الخاطئة وأهملت الاتجاه الصحيح، لا أملك عذرًا أبرر به غفلتي الطويلة وفطنتي المتأخرة، نلتهي بالتفاهات ونغط في نوم عميق وبالتالي نلوم الدهر الذي يأتينا كل يوم بشيء نكرهه! إذن هي محنة أخرى جديدة أمر بها، لا أكاد أتخلص من محنة وأنفض غبارها حتى تتلقفني محنة أخرى تغمرني بأتربتها ورمال عواصفها، ما العمل الآن... هل فلتت الفرصة وضاع مني كل شيء؟ يجب أن أتصرف وبسرعة، اليوم أنا أحاول النهوض من كبوة طال أمدها، وأتصدى لأخرى لم تطرأ على بالي، يجب أن أسبق الزمن، لا بل يجب أن أسرع أكثر وأكثر لألحق بزمن سبقني كثيرًا.

تصرفت... وبدأ العمل... الليلة لن أنتظر شروق شمس يوم جديد، بل الآن قبل شهقة نفس جديد!

• • • •

اتصلت هاتفيًا بالعائلة وأبلغتهم بالموضوع باختصار وطلبت منهم التحضير لاجتماع طارئ غدًا الخامسة مساءً، وضرورة تواجد واحد منهم على الأقل في مقر الشركة قبل الثامنة صباحًا، استوليت على دفتر الصكوك الخاص بموسى وما تواجد في البيت من أوراق وسجلات وحزمة المفاتيح، وأجاب بوضوح حين سألته عن نسخ مفاتيح أخرى وأماكن تواجدها، ومن ساعتي زرت بيت جارنا حازم أبو حكيم وهذا عسكري متقاعد ومازال بكامل قواه ويبحث باستمرار عن عمل يقضي به على أوقاته الفائضة، ويدعم ماديًا راتبه التقاعدي المتواضع ، رحب وعبر عن سروره حين عرضت عليه مرافقتي والعمل معي في أي مرفق أحتاجه فيه اعتبارًا من صباح الغد.

قبل الثامنة من صباح اليوم التالي وصلت باب الشركة برفقة جاري حازم، وجدت اثنين من أولاد موسى في انتظاري، تحدثت لهم عما كان لموسى بالأمس، وجدت لديهم تأييد واسع لشكوكي وإلى ما أنوي فعله. بدأنا بتفتيش المخازن، وجدناها فارغة، سألنا الأمين عليها وعن السبب ادعى قوة السحب

وباستمرار مع توقف الإيداع، بادرنا إلى سحب نسخ المفاتيح من كل رئيس قسم وعلى ما بحوزته من سجلات وخاصة الحسابات والمخازن، وطلبنا من الموظفين العودة إلى بيوتهم بانتظار تعليمات جديدة.

وضعت حازم حارسًا وأمرته ألا يسمح لأحد أي كان بالدخول ولأي سبب بدون تعليمات مباشرة مني حتى موسى نفسه، وإلى مصرف الرافدين... كم كانت المفاجأة مذهلة حين وجدنا الرصيد المالي قد آل إلى الصفر منذ ثلاثة أشهر! هل أفلس موسى؟ هذا هذيان لا أحد يصدقه!.

الخامسة مساءً انتظم مجلس العائلة، في البداية عرّفتهم كيف أجمع مبالغ الدعم الشهري بوضوح وبكل التفاصيل، لا عن شيء إنما لأحيطهم علمًا بواقع اقتصادي كان يعتمد عليه وآخر قادم يخشى منه، اطلعوا عليها بالتفصيل وعلى غير ما كنت أتوقع أشاع هذا مظاهر البهجة والسرور واستمعت لكلمات الشكر والامتنان وآيات العرفان بالجميل، اتخذت ثلاث قرارات قوية وجريئة في اجتماع العائلة، حلم أن تشهد مثيلاً له لا من قبل ولا من بعد، في واحدة من أهم محاسني معهم وأفضالي عليهم، أنني أحيطهم علمًا ببواطن الأمور وأشركهم في اتخاذ القرار، وبذلك أضعهم في الواجهة وأعرفهم بواجباتهم وحقوقهم وأعيد لهم ما منعه والدهم عنهم، وأشيد

جسور التواصل والتعاون بينه وبينهم... وكانت القرارات على هذا النحو:

١ - سحب كل الدفاتر والسجلات والفواتير من الحسابات والمخازن والمشتريات ، وعرضها على شركة محاسبة متخصصة لتدقيقها ومراجعتها، ورفع تقرير قانوني بالنتائج.

٢- أن يستلم الأولاد مسؤولية العمل بدلاً عن والدهم على النحو التالي: نبيل "يدرس القانون السنة الأخيرة" كمدير للإدارة وتوقيع العقود والاتفاقات التجارية. أمين "يدرس الهندسة المدنية" ؛ مديرًا فنيًا وهو المكلف بالتنفيذ العملي والإشراف على مواقع العمل. زينب "تدرس الرياضيات" ؛ تنظيم الحسابات وسجلاتها. فاضل "طالب إعدادية" شؤون المشتريات والمخازن. جارنا حازم في الحراسة الليلية مؤقتًا قبل استلامه مواقع العمل من أمين. بينما أسندت الإدارة العامة لي شخصيًا ومحور جميع النشاطات وملتقاها... هه! يا لها من دنيا لعوب وعالم متقلب على نفسه، وإلا كيف يمكن لفتاة فلاحة فصليّة متمردة طائشة تعلمت توًا القراءة والكتابة وبصعوبة أن تكون مديرًا عامًا هكذا بدون مقدمات ولا سابق توجيه؟!!

٣ـ القرار الثالث والأخير يقضي بالامتناع والتوقف التام عن البدأ بنشاطات جديدة، وتركيز الاهتمام فقط بمنشآت بدأ العمل بتنفيذها فعلاً، بمجملها بيوت سكنية عادية، والقليل منها متعددة

الطوابق تخص الأهالي وعامة الناس، منحت الأولوية لتلك التي على وشك الإنجاز، ومنها إلى ما هو أدنى، وهكذا نزولاً للخلاص منها أولاً، ولاستيفاء المبلغ المتبقي بذمة أصحابها، ونسبته ٢٠% من قيمة العقد وهذا هو الأهم.

• • • •

بسهولة تم تنفيذ القرارين الأول والثاني مباشرة وسط ذهول وارتباك منتسبي الشركة، وأهمهم كبار الموظفين، كانوا في حيرة وبحاجة قصوى لمن يشرح لهم ما يجري، لكن القرار الثالث بدى صعب المنال إن لم يكن مستحيلاً، نحن بحاجة لأموال كافية تبدو ضخمة لتنفيذ الأعمال المعلقة، فمن أين لنا والخزائن فارغة والرصيد المصرفي صفر ؟! بتردد... أعرف بعض تخوفهم على ما في حوزتهم والكثير من الأنانية في طباعهم... طرحت فكرة أن نبدأ بأنفسنا أولاً، يجب أن يتخلى كل واحد منا عن مدخراته ويتنازل عن فلس أبيض ادخره ليوم أسود، فإن لم يستفد من فلسه اليوم فلن يحتاجه غدًا، فليس من يوم أكثر سوادًا من هذا اليوم، وها أنا ابدأ بنفسي أولاً وهذا كل ما أملك فمن هو الثاني ؟ فتحت حقيبتي اليدوية وقلبت ما بداخلها من أموال نقدية ومصاغ ذهبي ثقيل وثمين على المنضدة أمامهم، وجدتهم يتبادلون نظرات سريعة تنم عن الإحساس بالمفاجأة، أعقبها ابتسامات خفيفة عبرت عن السعادة

والرضا ، رافقها إيماءة بهز الرأس علامة الموافقة والقبول أخيرًا ، للتنفيذ هرول كل إلى مخبأه وعاد بخطوات سريعة تحمل يداه ما استطاع جمعه، والكل يساوي مجموع الأجزاء... لا يكفي، كل هذا لا يكفي لذا يجب البحث عن أموال إضافية، تذكرت أهلي وأولاد عمي شاهر في البصرة، سافرت أقصدهم بعلم العائلة ورجعت بمبلغ لا بأس به من والدي وإخوتي ، ومبلغ آخر كبير نسبيًا من أولاد عمي شاهر وأنا على قمة السعادة وهكذا فعلت الأمهات.

كل واحدة جاءت من أهلها بما تمكنت عليه ، تجمعت في حساباتنا مبالغ جيدة لا يجب إنفاقها بسرعة دفعة واحدة، على هذا اقتصر تعاملنا مع التجار وأصحاب معامل الطابوق وورش الحدادة والنجارة المجهزون للأبواب والشبابيك الذين وافقوا على مبدأ الدفع بالتقسيط ، الربع أولاً عند الاستلام والباقي على ثلاث دفعات لمدة ستة أشهر... توفرت بين أيدينا سيولة نقدية فائضة ومواد أولية كاملة تمكنا من إنجاز كل التزاماتنا ومشاريعنا المعلقة وغيرها ، وبذلك دارت عجلة العمل بثقة وثبات وتحقق نجاح شامل وكامل لم نكن نتوقعه وكنا سنقتنع بأقل منه.

• • • •

أنجز خبراء الحسابات المستقلون تدقيق سجلات الحسابات والمخازن والمشتريات، استلمنا تقارير تحريرية مفصلة عن المخالفات المالية، أخطاء حسابية متعمدة، اختلاسات، سرقات مخزنية، تلاعب بالأسعار، فواتير مزورة... نوقشت التقارير شفهيًا مع الخبراء بحضور محامي العائلة، وبذلك توضحت معالم الحقيقة وابتعدنا تمامًا عن عوالم الشكوك والتوقعات والفرضيات! بدون تأخير إلى القضاء مباشرةً. اطلع قاضي التحقيق على ما بين يديه من أدلة ومستمسكات قانونية، وبناء على طلبنا أصدر أمرًا بإلقاء القبض ومنع سفر وتجميد الأموال المنقولة وغير المنقولة لكل من الأشخاص الخمسة: "أحمد رمزي" زعيم العصابة وهذا هو المساعد الأول لموسى ووكيله داخل الشركة وخارجها، ومحط ثقته وأمانته، بمثابة المدير الفني والتنفيذي في الشركة، وهو العارف بأمورها والمطلع على أسرارها حتى أكثر من موسى، موظفي الحسابات والمشتريات وأمين المخزن ورئيس العمال...

السرقات والاختلاسات ومثيلاتها تقع باستمرار في عالمنا الواسع، أبطالها أشخاص توفرت لديهم الإرادة الكافية مقترنة بالجرأة والشجاعة اللازمتين للتنفيذ، إلا عصابة الخمسة مع موسى الذين ساقتهم الوقاحة وسوء التدبير في الاندفاع العشوائي غير المنتظم إلى سرقته علنًا بوضح النهار، مستخفين بشخصه، مستغلين الحالة الرثة السيئة والشخصية

الضعيفة المتهالكة، وغياب النفس العملي العميق الذي يملكه رجال الأعمال، والصبر والدقة المتناهية التي يتحلون بها، حتى إنه توقف تمامًا عن مزاولة أعماله وتعقب مساراتها، فسبقه الزمن وتراكمت عليه الأعمال غير المنجزة، فهدأ وخمد واعتمد على حفنة لصوص ليستريح، فافترسوه كأنهم ذئاب جائعة، معتقدين أنه وحيد في هذه الدنيا لا يهم أحد، زوجة، أولاد، أخوة، فاطمأنت قلوبهم وشبعت حتى التخمة بطونهم، وامتلأت جيوبهم وعمرت بيوتهم ونامت قريرة هانئة عيونهم، لهذا كله كان ظهورنا بهذا الشكل وبهذه القوة مفاجأة عظمى لهم غير متوقعة، أصابتهم بالارتباك، وضاعوا في متاهاتهم الضيقة، وبسهولة وسرعة وقعوا في شر أعمالهم، وها هم يبحثون عن قشة يتعلقون بها.

• • • •

صار مقر العمل مزارًا مقدسًا أثناء الدوام، والبيت في ما تبقى من النهار حتى الغسق، ذاك مغادر وهذا قادم، هم ذوو عصابة الخمسة ومحاميهم، ليس أمامهم غير منقذ واحد يخرجهم من وحلة طمسوا بها غير إقناعنا بالتنازل عن القضية أمام القضاء مقابل تعويض مناسب. فجأة صرت شخصية اجتماعية مهمة جدًا فوق العادة، أحمل الألقاب الرفيعة وأحظى بعظيم الحب والاحترام، مصدر القرار وأمتلك جميع الصلاحيات. عزيزة

خاتون المحترمة المبجلة أم شهيرة هانم... السيدة المصون ، وغير هذا الكثير ، عزيزة الفصلية لقب قديم ذهب بلا رجعة وفات زمانه ، رفضته الألسن ونبذته القلوب... لا فائدة تجنى من حبس المتهمين ووضعهم في السجن ، والمحاكم حبالها طويلة تأخذ الوقت الطويل والجهد العسير وقد لا نحصل في النهاية منها على كل ما نريد ، ومبلغ التعويضات فيه خير لنا ينقذنا من ضائقة مالية نمر بها بعد نفاذ ما توفر من أموال.

"نحن على استعداد تام لدفع أي مبلغ مالي مطلوب تعويضًا لكم" ، هكذا كانت البداية سهلة للغاية وانتهت بصعوبة على مبلغ مائة وستون ألف دينار عراقي، وهذا يمثل نسبة الثلث مما كنا نرجو ، وبذلك طوينا صفحة صارت قديمة وفتحنا صفحة جديدة وكلنا أمل وتفاؤل.

(٢٤)

في احتفالات الذكرى الأولى لحركة ١٤ تموز العسكرية ؛ أصدر حاكم العراق الجديد والمحبوب عبد الكريم قاسم مرسومًا تقرر فيه العفو عن سجناء الحق العام الذين أنهوا نصف محكوميتهم على الأقل ، وفيهم صفة الانضباط وحسن السيرة والسلوك، قرار شمل ابن عمي حسن بعد أكثر من سبع سنوات من أصل عشرة قضاها في السجن.

كلفت نبيل موسى بمتابعة التنفيذ ، وبذلك تم أول تعارف واتصال مباشر بين أفراد من أهلي وعائلة موسى ، تبعه تعارف شامل وكامل حين رافقتني العائلة إلى البصرة للتهنئة والمشاركة بهذه المناسبة.

شاهدت حسن لأول مرة منذ تلك الأحداث... في لحظة خاطفة التقت نظراتنا لهفة وارتدت حياءً، وجدته محطمًا يائسًا مهزومًا لا أحتاج إلى الكثير من الشجاعة والجرأة لآخذ بيده وأصافحه مهنئةً ومشجعة على أن ينسَ الماضي وينظر إلى مستقبله بعين التفاؤل والرضا، وأنه في السادسة والعشرين من عمره ما زال في أول شبابه، ينتظره الكثير فيما تبقى من عمره المديد، وألا يشعر من الآن باليأس والقنوط.. ووعدته بالمساعدة.

لم أتأخر كثيرًا في مهمة البحث عن عمل مناسب يليق بحسن ويرفع من شأنه ومكانته بين الناس، بل شأنه عندي ومكانته في عيني وروحي وقلبي، فما أنا إلا عاشقة وهذا هو من أعشق... سرعان ما عثرت على ورشة متكاملة لصناعة وإنتاج الأحذية الرجالية ، ملحق بها محل واسع كامل التجهيز لتصريف وتوزيع المنتج، تقع في شارع الرشيد حافظ القاضي، اشتريتها بسعر مناسب جدًا.

استدعيته... عرضت عليه أمر الورشة، رفض بقوة... ألححت عليه ، تردد... أقنعته أنه سيعمل معي بمرتب شهري مناسب ومعقول ، وسيرافقه أخي ماجد وأخوه سالم ، حاول أن يقول شيئًا ، منعته ورميت المفاتيح على الطاولة أمامه وأمرته بالسكوت والطاعة والتنفيذ! سكت الرجل وأطاع ونفذ، واستمر مطيعًا هكذا حتى أخر يوم في عمره ، كأني اشتريت إرادته واشتريته مع الورشة والمحل ، أو لعلي امتهنت حب السيطرة ومصادرة إرادة من هم حولي دون أن أدري!

• • • •

يبدو أن جمرات الحب القديم بيني وبين حسن عادت تستعر من جديد ، وما خروجه من السجن إلا إزاحة لرماد كان يغطيها ، وها أنا بتقريبه مني بهذا الشكل كأني أنفخ الهواء فيها لتشتعل

ولتعطيها ألسنة اللهب بريقًا ولمعانًا ، من قال إن الماضي القريب الموغلة أحداثه في أعماق الضمائر والنفوس يمكن أن ينسى بمرور الأيام ، ولا يعود نجمه للسطوع من جديد بعد زوال أسباب البعد ، وهل هذا كله يعني أني مقبلة بجنون على مغامرة عاطفية جديدة بطلها حسن هذه المرة ؟! وهل يقبل حسن أن يلعب معي دورًا تمثيليًا كذلك الدور الذي كان يلعبه مصطفى على مسرح أيامي؟.

كان مصطفى رجلاً غريبًا عني ، وجدني صيدًا سهلاً وقع بين يديه سريعًا ، ووجدت فيه خير بديل يعوضني عن حب مفقود قد لا يعود ، ينتشلني من حياة يائسة مدغمة ، أما حسن فهو ابن عمي دمًا ولحمًا أعرف جيدًا حُسن أدبه ، فيه رفعة أخلاق الفلاح ابن العشائر الذي يعتبر بنت عمه عرضه وشرفه وهي محرمة عليه كأخته حتى يجمعهما شرع بالحلال ، ماذا أفعل الآن ، وأي طريق أسلك وموسى مازال حيًّا يرزق ومازلت على ذمته؟ كيف أتخلص من قيد موسى؟.

تخليت عن فكرة قتله بالسم أو تسليط قاتل مأجور عليه... نبذت كل الأفكار السيئة وطردتها من عقلي وفكري ونظفت ضميري منها ، وأمرت نفسي بالتحلي بالصبر الجميل ، خصوصًا هو الآن مريض ، جسمه عبارة عن سلة أمراض مزمنة كلها تتسابق على قتله بلحظة خاطفة ، بل على العكس من كل هذا

وذاك بدأت أعطف عليه وأعكف على خدمته والاهتمام بطعامه وعلاجه!.

خدمة جليلة أسديتها إلى موسى والعائلة؛ هي أنني تمكنت بعد أحد عشر عامًا من الفراق والخصام والبغضاء بصعوبة بالغة وجهود استثنائية؛ في إقناع أولاده وبناته بضرورة الصلح مع والدهم، خصوصًا هو مريض جدًا وفي حلقات عمره الأخيرة، حتى أشرفوا على علاجه والمثابرة باستمرار على زيارته طيلة الثلاث سنوات الأخيرة حتى وفاته أوائل ١٩٦٢ بمرض تشمع الكبد، وكان الأسرع في الوصول إليه والنيل منه من الأمراض الأخرى.

غير مرض موسى ووفاته لم نواجه أي مشكلة خلال خمس سنوات تالية حتى أوائل أغسطس /آب ١٩٦٣ ، دارت عجلة العمل بانتظام ونالت الشركة قسطًا وافرًا من الاستقرار المالي والانتعاش الاقتصادي، أرباح هائلة تحققت وسيولة نقدية كبيرة توفرت، ونحن الآن بصدد اتخاذ خطوات عملية كبيرة لأجل توسيع العمل في كل من الشركة والورشة... لا ندري هل ستتعثر خطواتنا أمّ تستقيم لنا الأمور؟.

(٢٥)

(١٩٦٣/٢/٨) انقلاب عسكري دموي يقوده حزب الإرهاب والطغيان والخذلان؛ حزب البعث، المدرسة السياسية الفاسدة التي تخرَّج منها صدام حسين وبطانته وزمرته، وحافظ الأسد وعائلته وحاشيته، وعشرات الأشرار غيرهم، كل منهم أكثر سوءًا من غيره، وبمساهمة رمزية بالاسم فقط من صديق الأمس ورفيق الدرب عبد السلام محمد عارف؛ يطيح بنظام الزعيم الأمين عبد الكريم قاسم النصف مثالي، وينفذون فيه حكم الإعدام علنًا رميًا بالرصاص أمام الأنظار على شاشة التلفاز.

هكذا وبهذه الجريمة كانت البداية، في (١٩٦٣/١١/١٨) انقلب عبد السلام عارف على حلفاء الأمس القريب، وأطاح بسلطانهم، وبين البداية والنهاية وقعت قصة مؤلمة، تحكي صفحاتها فصولاً مأساوية عن ضياع شعب بضياع حقوقه وانتهاك حرماته ومصادرة حرياته على يد مليشيا شبه عسكرية مسلحة أسمها "الحرس القومي"، وانهيار وطن بانهيار مكاسبه ووقف عجلة تطوره.

آنذاك كان قد توسع العمل في ورشة صناعة الأحذية بإضافة بيت آخر في منطقة البتاويين ومحل إضافي في شارع السعدون ، وصرنا نبيع بالجملة والمفرد ونحث الخطى سعيًا لتوسيع العمل في الشركة للمنافسة على مناقصات تعلن عنها دوائر الدولة ، بإضافة قسم جديد مهمته متابعة الإعلانات واختيار المناسب منها ، وتقديم دراسة جدوى قبل تقديم العطاءات ، بعد أن كان عملنا يقتصر على الأهالي من عامة الناس فقط.

الأسبوع الأول من آب/ أغسطس قررنا ولأول مرة المنافسة على مناقصة مطروحة ، للتعرف على مزيد من التفاصيل وشراء نسخة الشروط ، وفي خطوة ليست ضرورية كان بإمكان أي شخص آخر غيري القيام بها لكني فعلتها تفاؤلاً بالخطوة الأولى وتشجيعًا لموظف المناقصات ومساعده ، دخلت معهما ديوان المؤسسة ولم أكن ساعتها أعلم وأنا أعبر عتبة الباب الرئيسية ، أمشي بخطوات ثابتة متوازنة ، أمني النفس بنجاحات جديدة أني أدخل حتفي وأرسم طريق نهايتي.

صباح اليوم التالي رن جرس الهاتف في مكتبي، وكان محدثي السيد رئيس المؤسسة طلب مني أن أتفضل وحدي لا يرافقني أحد لزيارته في دائرته اليوم أو غدًا لأمر مهم، لم أهتم لأمر الدعوة وطلبت من موظف المناقصات تنفيذها بدلاً عني ما

دامت تخص العمل وحده ولا تخصني شخصيًا ، لكن رأي العائلة حين بلغتهم والجهاز الإداري حين استشرتهم قرر أن أذهب بنفسي... وذهبت بنفسي... في اليوم الثالث كنت ضيفًا مرحبًا به ، استقبلني الرجل استقبالاً يليق بالكبار من ذوي المكانة المرموقة والمنزلة الرفيعة، جلست كما أشار بيده على كرسي وثير، شكرته على حسن الاستقبال وهو يسألني:

- شاي أم قهوة؟

- قهوة سكر قليل.

دار الحديث بيننا بإسهاب منه واقتضاب مني عن مصاعب الحياة ومتاعب العمل والأمة العربية، ومشروع الوحدة الثلاثية المقترحة بين العراق ومصر وسوريا، يطيل في الشرح ويكثر في السؤال وألوذ بالصمت أحيانًا وأختصر في آخر حتى بدأت أتعب وأشعر بالملل، وجدت في نفسي بعض الجرأة لأسأله:

- ماذا بعد كل هذا يا أستاذ؟

أسمعه يقول لأحد مساعديه بعنجهية مبالغ بها بطريقة القادر المتمكن:

- ضع القهوة هنا وأغلق الباب خلفك جيدًا ، لا تدع أحد يدخل، عندي اجتماع، حتى الهاتف رد عليه بنفسك.

اجتماع؟ مع من؟ معي أنا بالتأكيد فليس من أحد غيري هنا! لكن... ما المعاني الحقيقية لهذا الاجتماع، وما أسبابه؟

- لا داع للاجتماعات المغلقة يا أستاذ فليس بيننا ما يستحق ، فقط قل ما تريد قوله بسرعة واختصار وسأفهمك بسهولة ، أو دعني أخرج.

- بل لا داعٍ للغضب والعصبية خصوصًا أنا قصدي شريف.

- شـ... شـ... شر... شريف... كـ.. كيف؟!

- سمعت الكثير عنك حتى تشرفنا بزيارتك أول أمس في مفاجأة غير متوقعة لكنها سارة وسعيدة ، أنا شخصيًا كنت مهتمًا بك في الأشهر القليلة الماضية وأبحث عن فرصة مناسبة حتى أتقدم لخطبتك من أهلك والزواج منك.

إنها مفاجأة حقيقية لي أنا ، بعد ارتباك وتلعثم حاولت جاهدة إقناعه بعدم رغبتي بالزواج ، لكنه لم يقتنع ، أخيرًا أشار بما يرضيه:

- أنت شابة جميلة لا شك في ذلك ، لكنك لست بالجمال الأخاذ الذي يدفعني للجري خلفك ولا من قلة النساء حولي ، لكن أنا وأنت نشكل ثنائي فريد من نوعه، اسمعيني جيدًا... أنت تسعين وراء المناقصات تملكين رأس المال وعندك كل الإمكانيات ، والمناقصات عندي أنا ، أنا وحدي في مؤسستي وكل دوائر الدولة الأخرى... هي لك وحدك ، قدمي العطاءات المناسبة وستحصلين على الموافقة المباشرة والسريعة.

صفقت له ساخرة منه:

- الله... الله... كم أنت مقنع وكم أنا مهمة حتى أستحق هذه الرشوة الكبيرة... الآن أفسح المجال لا تعترض طريقي دعني أخرج ، لقد صبرت عليك أكثر مما ينبغي ومنحتك وقتًا أكثر مما تستحق.

- عندي اقتراح آخر لعله يعجبك.

- لا شأن لي باقتراحاتك يا أخي احتفظ بها لنفسك ، اعتقني أرجوك ، أطلق سراحي... هل أنا رهن الاعتقال هنا ولا أستطيع الخروج حتى توقيع وثيقة الزواج من جنابك؟

- لا... ليس الأمر كذلك، لكن ما دمت غير مقتنعة أو رافضة للزواج فأنا أقترح استبداله بصداقة حميمة متينة ، صداقة خاصة أنا وأنت فقط سرية لا يعلم بها أحد، نواجه بها مصاعب الحياة ومتاعب العمل ونعيش في ظلها أسعد الأوقات مع الاحتفاظ بما اعتبرتيه رشوة كبرى فهذا من حقك، ولا...

- اخرس... اخرس... يا لك من نذل حقير تساومني على عرضي وشرفي... ابتعد عن طريقي فلا شيء عندي للبيع.

مازال يسد المنافذ في وجهي ، جاء بحركة سخيفة حين قرص خدي وقبل أنامله بعد محاولة فاشلة لقرص نهدي بيده الأخرى، تمكنت من إزاحتها وإبعادها عن صدري قال وهو يلوذ خلف خيال حالم:

- أنت لي... لي وليس أمامك طريق آخر سواه بالتي هي أحسن أو أسوأ.

يا له من نذل خسيس، إنه يهاجمني بعنف وشراسة وجب الرد عليه بحزم واقتدار، ولم أتردد، فاجأته بصفعة قوية على وجهه أردفتها بضربة سريعة بحقيبتي اليدوية الثقيلة على رأسه أخلت بتوازنه وكاد يسقط، مما مكنني من الوصول إلى مقبض الباب وفتحه، لكنه سحبني وأعادني حيث كنت، التقت الأعين... احتقن وجهه باللون الأحمر، عيناه تتقادحان شررًا:

- أيتها الساااااافلة، أنت من ضربني؟ اسمعي، لست بحاجة لك بعد اليوم وأستطيع الآن أن أفعل بك ما يحلو لي فعله لكني سأجعل من عذابك لذة ما بعدها لذة ومتعة ليس مثلها متعة... ستعودين هنا حتمًا تركعين أمامي تقبلين حذائي تطلبين الرحمة ولن أرحمك... سأرميك عارية لرجال الحرس القومي يعبثون بجسدك على مزاجهم حتى الملل ومنهم إلى الكلاب الجائعة لتنهش جسدك، الآن إلى الدرس الأول... محمووووود... أين أنت يا محمووووود؟

- موجود يا سيدي وجاهز في خدمتك.

دخل محمود، كل الرعب في شكله... أسود البشرة، عكر الملامح، بارز العضلات، ضخم الجثة لعله مرَّ بصعوبة من باب الغرفة، كف يده كالمطرقة ولعله بصفاته الجسدية هذه يعمل جلادًا معهم... سأله بغضب واضح وعصبية طافحة:

- كيف ذراعك يا محمود؟

- ذراع بطل في كامل قوتها يا سيدي.

- وعضلاتك؟.
- حديد وعلى خير ما يرام، بانتظار أوامركم سيدي.
- إليك بها هنا أمامي ، سأجلس وأشاهد... أريدها "بسطة عراقية غسل ولبس".

بدأ محمود يؤدي عمله ، لا أدري ماذا حصل بعدها وكيف وصلت بيت العائلة في الأعظمية ، فتحت عيني عند العشاء والموت أقرب لي من الحياة والعائلة مجتمعة حولي ومعهم أخي ماجد وحسن وأخوه سالم كلهم رغبة في معرفة ما كان عند الضحى.

• • • •

كان السائق الخاص "مهند" ينتظر في موقف السيارات حين رمى بي بعضهم عند قدميه وأنذروه ارحل بها فورًا وإلا سينالك ما نالها ، خاف الرجل وحملني داخل السيارة وإلى الأعظمية مباشرةً ، حظيت برعاية طبية مميزة بإشراف الدكتورة نادية موسى وزوجها ، من جروح وكدمات ورضوض هي آثار ضرب العملاق الأسود محمود. انتظر أفراد العائلة حتى التاسعة صباح اليوم الرابع للتعرف على أحداث ضحى وظهيرة الأمس ، ساد بعدها الهرج والضجيج أرجاء البيت، هذا يهدد وذاك يتوعد وآخر يقول أنا لهذا الوغد،

أخيرًا تدخلت الأم بشرى للتهدئة والسيطرة على انفعالاتهم ، ولتمنع أخي ماجد من الخروج منفردًا ليتصدى بمسدس لهذا الشرير:

- اسمعوني جيدًا... نحن الآن أمام مشكلة عويصة ، ستجر خلفها الصعب الغامض والمبهم من قادم أيامنا ، لا ينفع معها العصبية الجوفاء ، الاندفاع غير المحسوب العواقب فيه ضرر بالغ بنا ، ويزيد الطين من تحتنا بله ، ويعمق جراحنا ، بل يجب علينا التأني والعمل بهدوء وحذر شديدين معًا مجموعة واحدة ونتجنب العمل الانفرادي المتهور ، لا يخفى عليكم أن خصمنا قوي متمكن قادر يعرفنا ونجهله ، مكشوفون أمامه ، يطالنا ويستطيع الوصول إلينا ونحن لا نطاله يصعب ويعز علينا... ماجد يريد أن يذهب بنفسه ويأخذنا معه إلى التهلكة ، كيف يمكن لشخص مثله التصدي له بمسدس وهو محاط بكوكبة من الحرس القومي ، كوكبة من الرجال الأشداء المدججين بالسلاح، يحب علينا أن نعرف ونتأكد أين نضع أقدامنا حتى لا تزل ، ننزلق ونقع في الهاوية... الآن اخرجوا بهدوء فردًا فردًا واحد بعد الآخر بفارق زمني معقول كل إلى عمله وكأن شيء لم يكن...

خطبة قيمّة عصماء... كلمة رائعة روضت بها رجال أشداء ، امتصت غضبهم ووضعتهم على الطريق الصحيح ، نصيحة

نطق بها حكيم عاقل أثبتت بجدارة أنها أم للعائلة بكل أفرادها، أتساءل... كيف استطاع موسى وطاوعه قلبه وارتضى ضميره الزواج عليها مرة وطلاقها في ثانية ورميها في الشارع هي وأطفالها... هكذا هي النزوات تغلب العقل... أحيانًا!.

في هذا الصباح حاصرت قوة مسلحة من الحرس القومي مقر الشركة وفتشت جوانبها وأركانها بحثًا عني، في النهاية جمع الكادر الإداري في الباحة وأمروهم بالإسراع بمغادرة المكان خلال ربع ساعة وأخذ حاجياتهم الخاصة فقط وعدم العودة، لأنها شركة وهمية اتخذ مقرها وكرًا لنشاط جماعات مؤيدة للنظام السابق ومعادية للحزب والثورة، ويتم تمويلهم بسخاء من عائدها الاقتصادي، وتم القبض على المهندس أمين موسى الذي حضر لتوه في الإدارة بدلاً عني، واقتادوه إلى مكان مجهول.

الجميع غادر موقع العمل إلا الرجل المخلص الأمين حازم، جاءنا إلى الأعظمية وأخبرنا بالتفاصيل الكاملة ونصحني بمغادرة الأعظمية وتجنب العودة إلى بيتي... والرجل يهم بالمغادرة حضرتني فطنة اللحظات الأخيرة، ناديته:

- يا عم خذ هذا المبلغ حوالي ثلاثمائة دينار سينفعك ويساعدك على إتمام المنشآت شبه المنجزة، وخذ هذه مفاتيح البيت تستخرج سجل الحسابات الأخضر فيه تفاصيل أنت تعرفها ومطلع عليها، وخذ معك مصاغي الذهبي واحتفظ به كأمانة.

خرج الرجل، ثبت فيما بعد أنه نفذ ما كنت أرجوه بدقة متناهية على خير ما يرام. كمحامي وشقيق المقبوض عليه، ذهب نبيل لمخفر الحرس للاستفسار عن ظروف اعتقال شقيقه أمين، لكنهم اعتقلوه أيضًا وظل كلاهما رهن الاعتقال التعسفي حتى سقطت سلطاتهم، بعد هذا لم نتأخر... بسيارة أجرة انتقلت مع الأم بشرى إلى بيت أختها في "الوشاش"، وهذه من نواحي المنصور في كرخ بغداد، قالت مبتسمة:

- هذه أختي التوأم هههههه تشبهني قلبًا وقالبًا كما ترين بعينيك، حتى بالصفات والعادات هههههه، وهي أمينة سري ومكمن ثقتي يمكنك التعامل معها تمامًا كما تتعاملين معي، ولهذا السبب جئت بك إلى هنا، أنا لا أطمئن عليك في أي مكان آخر، أرجوا الهدوء والتصرف بحكمة ورجاحة عقل... الآن يجب أن أعود إلى البيت فورًا لأطمئن على أولادي والأوضاع هناك.

التفتت إلى أختها ومن معها وأوصتهم بي خيرًا، وقبل المغادرة احتضنتها وطلبت منها ألا تتأخر عني.

تتابعت الأخبار السيئة، ما زال الرجل الشرير يواصل هجماته لا يريد أن يهدأ ولا يريد أن يمنحنا فرصة التقاط الأنفاس، في اليوم الخامس تمت مداهمة بيتي وبيت العائلة، وبعده تم نهب ممتلكات الشركة وإفراغ محتوياتها قبل حرقها وإضرام النار في أقسامها وفي فضلات لا يستفيدون منها، وكانت هذه

الضربة الأقوى والأثقل، حقًا إنها الضربة القاضية... صحت بلهفة الملتاع بوجه الأم بشرى وهي تنقل أخر الأخبار:

- أنقذوا ما تبقى عندنا.

- وماذا بقي عندنا يستحق إنقاذه؟

- رصيدي في مصرف الرافدين، لا أتذكر الرقم النهائي بالضبط، لكن خذي... خذي هذا دفتر الصكوك وهذا توقيعي على بعض أوراقه، أسرعي ولا تتأخري اليوم قبل الغد.

في المصرف ما أن عرف مصدر الصكوك وسؤالها عن درجة القربى بيننا حتى وجدت الأم بشرى من ينتظرها، استولى على الدفتر وصادر المبلغ وطردها خالية الوفاض... هيا اخرجي، انظري إلى الأمام ولا تلتفتي!.

وهكذا في سبعة أيام انتهى معي كل شيء ومحيت من عالم الوجود... سبعة أيام فقط منذ دخلت ديوان المؤسسة، هكذا يجب أن تجري الأمور مع أحدنا أو بعضنا وإلا فلا!.

(٢٦)

هل يعتقد هذا الشرير ومن هم على شاكلته أنهم وحدهم من يكيد ويتعرض للناس بالأذى وليس من قادر على رد كيدهم وإيذائهم بالمثل وأكثر ؟! نغص عيشي ، صادر سعادتي ، زعزع استقراري ، قوض أمني ، نهب أموالي وعرضني للإفلاس وتركني نهبًا للحزن والخوف والمرض... امرأة مكسورة ، مهزومة، ضائعة فقدت كل شيء وليس لها أمل في أي شيء سوى لوعة الهزيمة ومرارة الألم وضائقة اليأس تحت وطأة الإحساس بالذل والهوان... كل هذا بأسبوع واحد فقط، فماذا بعد أسبوع آخر ؟!

ثمة رجال لحقت بهم مآسي الضيم ونفذت إلى النخاع آلام الظلم ويؤرقهم قسوة السلطان والمتسلط باسمه، فشكلوا خلية عمل ظاهرها الإعجاب بشخصية الرجل الشرير وتفانيه في خدمة الوطن والأمة، وباطنها تجسسي غايتها جمع المعلومات الكافية عن الرجل ورصد تحركاته، كل خطوة مرسومة بدقة وتنفذ بصبر وهدوء. دستورهم كلمة الأم بشرى ونصيحتها... وهؤلاء هم فاضل أصغر أولاد موسى، أخي ماجد، أولاد العم حسن وشقيقه سالم، وليد ابن عمي شاهر وهذا عسكري برتبة نائب ضابط ممتاز، وحدته في معسكر سعد قرب مدينة بعقوبة.

علمت الخلية أنه من أهالي مدينة الموصل ، انتقل للعيش في بغداد بعد الانقلاب مباشرةً ، زوجته من بعقوبة وإنه يقضي أخر عطلة نهاية أسبوع من كل شهر في مدينة بعقوبة استجابة لرغبة زوجته في زيارة أهلها مرة واحدة في الشهر ، بينما يقضي إجازاته الطويلة والأعياد الدينية والعطل الرسمية ذات الأيام المتعددة مع أهله في الموصل.

تم استبعاد حي المنصور أرقى أحياء بغداد حيث يقع بيته كونها منطقة محصنة منيعة؛ لوجود أغلب السفارات الأجنبية ودور السفراء وكبار المسؤولين المحليين وأهم الدوائر الأمنية ، واستثناء مدينة الموصل لبعدها وعدم انتظام زياراته لها وتباعد أوقاتها.

باستطلاع مدينة بعقوبة ، وجد بيت صهره يقع في الأطراف خارج مركز المدينة منعزل قليلاً بعيد بمسافة لا بأس بها عن الجوار ، تحيط به بساتين البرتقال والرمان المندسة بين أشجار النخيل العالية ، يصل عصر الخميس عند السابعة إلى مكان قريب يسلكه بعض السابلة يبعد ثلاث مائة إلى أربع مائة متر تقريبًا عن البيت ، يترك موكبه المكون من سيارتين واحدة فيها سائقه الخاص ومرافقه، والأخرى لاثنين من الحراس وسائق، ويترجل ماشيًا مندسًا بين القليل من الناس ليلتقي بهم بنفس المكان عند التاسعة صباح السبت...

هذا كله يسهل عملية التنفيذ ، والصعوبة الوحيدة أن المنطقة محصورة يقتصر التواجد فيها على أهلها ، والغريب مرصود ومعروف ، وهذه مشكلة لا يمكن تجاهلها أو التقليل من شأنها ولا بد من حل لها ، بعد مشاورات عميقة وجهد ذهني صعب توصل الرجال إلى حل غير مقنع لكن لا بد منه فلا بديل غيره؛ وهو أن يدخل المنفذون منطقة التنفيذ بصفة عمال وكسبة ، ويتعاطون بيع وشراء الأثاث القديم والأجهزة المنزلية المستعملة، مع علمهم عدم وجود ما يمكن بيعه وشراءه هناك ، لكن لا بد من ركوب الصعب... وعليه تقرر تنفيذ عملية الاغتيال الساعة التاسعة صباح السبت ٣١ /١٩٦٣/٧.

● ● ● ●

سماء زرقاء تُجملها سحب بيضاء متناثرة هنا وهناك تحلق في رحابها كأنها أسراب طيور مهاجرة ، تضم تحت أفقها البعيد الواسع أرض ندية خضراء تعطرها نسائم الصباح ، عامرة بأشجار الفواكه والنخيل الزاهية بألوان أطيب ثمارها من كل صنف ونوع، تنشد لها الطيور العاشقة أجمل ألحانها، في مثل هذا اليوم تلبس الطبيعة أبهى حللها لتبدو في روعتها كعروس شرقية بهية تعد يومها لليلة زفافها ، لكن الإنسان المتمرد على ذاته المنقلب على نفسه الطامع بأخيه غير القانع برزقه ، العاجز عن حمد وشكر ربه لا بد له من خدش جمال الطبيعة،

هل تعلم هذه العروس الشرقية أن صوت الرصاص المدوي سيبدد هدوئها والدماء الساخنة ستسيل الآن على أديمها الأخضر، والريح ستحمل على أكتافها رائحة الموت النتنة بدلاً من عبق الورد؟!

• • • •

رسمت عملية التنفيذ على النحو التالي : تدخل سيارة حمل صغيرة بيكاب منطقة العمليات، يقودها حسن، وفي حوضها كل من وليد وماجد مسلحين بثلاث مسدسات سهلة الاستعمال خفيفة وسريعة لحمايتهم وتغطية انسحابهم، ينتظرهم على الشارع العام في أقرب نقطة تضع حرَّاس الرجل الشرير تحت أنظارهم ويسيطرون بها عليهم دون جلب انتباههم كل من سالم ونبيل في سيارة فورد صالون سريعة وخفيفة مسلحان بمسدس وبندقية كلاشنكوف. حالف النجاح الخطوات الأولى للتنفيذ، دخلت البيكاب منطقة التنفيذ بسهولة وبالوقت المفضل تمامًا، وخرج المستهدف من بيت صهره بالوقت المناسب، لكنه خرج يرافقه شخصين، وهذه مفاجأة كبرى غير متوقعة وليس لها حساب، أصابت المنفذين بالذهول والارتباك وحدهم سؤال واحد وفرقهم الإجابة عليه... هل ننفذ أمّ ننسحب؟ بحجة وجود أشخاص أبرياء قد يصيبهم الضرر امتنع وليد عن التنفيذ، بينما أصر ماجد بحجة أن فرصة كهذه لن تتكرر، وإن تكررت فمن

يضمن ألا تقع مفاجآت كهذه وأكبر ، بينما تردد حسن ولم يحسم رأيه وترك الخيار لرفيقيه!

بين رافض وموافق ومتردد ضاع الكثير من الوقت وفقد زمام المبادرة وجلب انتباه الرجال الثلاثة ، وجاء بالشك وحدث ما أرغم الشباب على المضي في التنفيذ ، ولم يترك لهم أدنى فرصة للتراجع والانسحاب حين صاح أحدهم : من أنتم؟ ومع صيحته أطلق رصاصتين من مسدسه ، واحدة أصابت ذراع ماجد وكسرت زنده الأيسر ، وكسرت الأخرى ضلعًا له دون أن تدخل القفص الصدري ، ومع ذلك تمكن من استعمال يمينه لمساعدة أولاد العم في تبادل لإطلاق النار لم يدم دقيقة واحدة ، أسفر عنه مقتل الرجلين ونجاة الوغد الشرير ، علم فيما بعد أنهما شقيقا زوجته ، نتائج عكسية ومخيبة تمامًا ربما كتبت له عمرًا جديدًا يعيش به في انتظار محاولة جديدة قد تكون ناجحة أو لا.

وهكذا استمر الأشرار رابضين بشرِّهم على صدر العراق أرضًا وشعبًا منذ ٨ / ٢ حتى أطيح بسلطانهم في (١٩٦٣/١١/١٨) ، ٢٨٧ يومًا وهذا من مضاعفات الرقم سبعة. وما حكايتي إلا واحدة من حكايات لا عد لها سُحقت فيها الحرمات ، وصودرت الحريات ، وزُهقت الأرواح ، وأُنتهكت الأعراض.

رجعت إلى بيتي بعد غيبة وكانت المفاجأة في انتظاري، وجدته غارقًا بالفوضى مقلوبًا رأسًا على عقب، هكذا فعل رجالهم وهم يبحثون عني في كل درج وتحت كل وسادة وبين طيات الفراش، أسعفنا الحظ قليلاً هذه المرة حيث تمكن جارنا الرجل الأمين حازم من الوصول إلى مصاغي الذهبي الثمين وبعض المال وسجلات العمل في الليلة السابقة، بجهود استثنائية تمكن هذا الرجل من إتمام وإنجاز كل المنشآت التي بدأنا بها قبل الأحداث بما توفر بين يديه من أموال كما أوصيته تمامًا.

• • • •

أيام قليلة فقط مرت على عودتي حتى وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام مشكلة جديّة، هي متوقعة لكن التهيت بمشاكلي ونسيتها، جاء من يذكرني بها كأنه يوقظني من سبات عميق! زارني بعضهم يطالب بحق له، وهم من الأهالي وعامة الناس المرتبطين معنا بعقود تشييد منازل سكنية لهم، عددها ثمانية وعشرون عقدًا، وسبعة عقود أخرى لمنشآت متعددة الطوابق، وهؤلاء يدفعون ثلث المبلغ الكلي المتفق عليه كدفعة أولى حال توقيع العقد، يضاف لهم أربعة عشر شخصًا هم تجار مواد البناء ومعامل الحدادة والنجارة.

وهذا هو الرقم سبعة ومضاعفاته يزداد تكراره سلبيًا ، رغبة صامتة في حياتي أتمناه إيجابيًا ولو مرة واحدة! يجب الوفاء بحقوق الناس الذين تفهموا أسباب الانتكاسة وتقبلوا اعتذارنا ووافقوا مجتمعين على قبول تعويضات بنسبة ٧٠% وإسقاط ٣٠% ، كيف سيتم الدفع؟ ومن أين لنا بالمبالغ المطلوبة؟ لم تكن مدخراتنا قليلة على الرغم مما احترق وسلب ونهب لكنها لا تكفي... تقرر بيع قطعة الأرض الباقية من حرق مقر الشركة والبيت الذي أسكن فيه مع أثاثه وسيارتيّ الحمل والصالون ومصاغنا الذهبي أنا والأمهات، ومع ذلك لا تكفي... زحفنا نحو بيع ورشة الأحذية بفرعيها الرشيد والسعدون بالمحلين وبذلك وبشق الأنفس اكتملت المبالغ المطلوبة... كل هذا ماذا يعني؟.

(٢٧)

تغيرت معي الأمور واتجهت عجلة الأحداث والزمن كله بالاتجاه المعاكس تمامًا، كنت صاحبة القرار وأفاجئ الناس من حولي دائمًا بقرارات أتخذها وما عليهم إلا الموافقة والتنفيذ... الآن تُتخذ القرارات وتُنفذ بعيدًا عني، هل هو المال الذي كنت أتحكم به وحين ذهب؛ ذهب معه كل شيء... حتى الوجاهة الاجتماعية والألقاب الرفيعة ذهبتا بلا رجعة وسأعود عزيزة الفصليّة مرة أخرى... ربما من يدري وقد أرجع إلى الريف مخذولة خائبة فلاحة راعية جواميس أعوم وإياهن بمياه الأهوار الآسنة فقيرة يائسة، من يدري... في هذا العالم المادي كل شيء ممكن!.

قبل أن يلفظ علم ١٩٦٣ أيامه الأخيرة؛ توقفت أمام بيتي مساء يوم شديد البرودة حافلة صغيرة ذات أحد عشر راكبًا تسمى عندنا بالصواريخ لقوتها وسرعتها، لاحظت بداخلها كل أفراد العائلة وأخي ماجد وأولاد عمومتي الثلاثة تكدس بعضهم فوق بعض، شيء مثير للدهشة والاستغراب، لماذا وما سر تجمعهم هذا وما الغاية من زيارتهم المفاجأة هكذا حزمة واحدة؟ كان ماجد أسرعهم بمغادرة السيارة وأولهم بدخول البيت والوصول إليّ، كان بهدوئه وحركته البطيئة يبدو غاضبًا حزينًا، حسن

خلفه مباشرةً جاء يحث خطواته مسرعًا وملامحه طافحة بالبشر والسعادة ويمينه تعدل وضعية مسدس بان كعبه فوق الحزام، صورتان فيهما الكثير من الاختلاف لشخصين يجمعهم الكثير من التشابه!.

الجميع التف حولي يهنئ ويبارك وجئناكِ بالخبر السعيد... والرجال أغلبهم بأسلحتهم النارية، هذه التهاني وهذه التبريكات على ماذا؟ وما الخبر السعيد الذي أنتظر؟ بعد كل هذا وذاك، هل بقيت أخبار سارة؟ سألتهم، أجابوا كلهم دفعة واحدة مات الشرير، قتلناه، انتقمنا منه... و... و... و...، إذن مات الشرير، قتلوه، انتقموا منه، نعم هذا خبر سار بالتأكيد وبه جل أمنياتي ومبتغى مرادي، لكن هل سيأتي بمقتله سعدي وهنائي وأعود عزيزة هانم، الخاتون من جديد، لا أظن، وما دمت لا أظن فخبر كهذا قد لا يهمني، وبيتي هذا الذي دخلته أول مرة في ١٩٥٢/٣/٧ حزينة مكسورة أحمل بقجة ثيابي برفقة أمي سأغادره أخر مرة في ١٩٦٤/٣/٧ بعد بيعه بأثاثه الجديد، حزينة مكسورة أحمل حقيبة ثيابي برفقة أمي وابنتي شهيرة، لا أريد أن أكون جزء من الأحداث فيها ما يغثني ويسلب راحتي، ولا أستطيع الانفصال عنها، فمازالت تطاردني وترافقني أين ما ذهبت، لذا ابتسمت لهم وشكرتهم وعبرت لهم عن سروري وسعادتي.

- ولكن لماذا أنت غاضب وحزين يا ماجد؟

- ذهبوا إلى الموصل ونفذوا عملية الاغتيال وتركوني وحدي بحجة أن عددهم كاف وإصابتي خطيرة ولم أتماثل للشفاء.

- نعم يا أخي هذا صحيح ومعهم كل الحق لذا لا يجب أن تغضب وتحزن، هيا انهض، عدل أوضاعك وغير ملامح وجهك وشاركهم فرحتهم، يكفي أنك بطل المحاولة الأولى.

• • • •

في أجواء رحبة التأمت جلسة العائلة السعيدة، لست وحدي من بداخله رغبة لا يريدها تستمر صامتة هكذا، بل هي رغبات جامحة تلف الجميع للتعرف على واقع الأحداث وكيف تمت عملية الاغتيال، ما كانت البيانات التي جمعها حسن قبل محاولة الاغتيال الأولى قليلة أوناقصة بل وافية وكافية لمطاردته في معاقله، لكن بعد الانقلاب المضاد غيّر البعثيوّن وهذا واحد منهم من أماكن تواجدهم وأساليب تنقلاتهم، مما فتح بعض الثغرات وترك فجوات كثيرة احتاج بعض الوقت والجهد حتى تمكن منها أخيرًا.

علم أنه غادر بغداد نهائيًا وعاد ليعيش في الموصل، للتموّيه استأجر بيتًا ليس بعيدًا عن بيت الأسرة يختبئ به ليلاً، يغادره صباحًا قبل شروق الشمس ويعود ليلاً بعد العشاء، وعليه وضعت خطة التصدي له فجرًا وهذا ما تم فعلاً. اعتقد الأولاد

أن المهمة تمت بنجاح والحقيقة إنها انتهت بمأساة ، جريمة حقيقية لا ينفع معها اللوم والعتب ولا الأسى والأسف... المحصلة النهائية رفضت هذه العملية ونتائجها وانفض مجلس العائلة وألغي الحفل قبل أن يبدأ. ادعى الأولاد أن الهدف جاء هذه المرة بمفاجأة جديدة أكبر من مفاجأة بعقوبة في المحاولة الأولى حين خرج معه زوجته الحامل واثنين من أطفاله، ثلاث سنوات للصغير وستة للكبير... قالوا طلبنا منه ونحن نرفع السلاح بوجهه الابتعاد عن زوجته وأطفاله حتى لا يلحقهم الأذى. سأل:

- من أنتم؟

- هل تتذكر عزيزة حميد؟ لعلك نسيتها، نحن أهلها وعشيرتها، الآن جاء دورنا لنذكرك بها.

- وماذا تريدون مني؟

- هذه ساعة القصاص منك في الدنيا ثأرًا لها، ولعلمك قبل أن تموت... نحن من حاول قتلك في بعقوبة يوم قتل صهريّك.

ارتبك واضطرب ودار بنظره في أرجاء المكان كأنه يبحث عن ملاذ آمن أو منفذ للهرب، وحين ضاقت به الدنيا وجد لابد من المواجهة فلجأ إلى حركة سريعة تنم عن خسة وجبن؛ حين سحب مسدسه، وبدلاً من أن يبتعد اعتصم بأسرته جاعلاً منهم درعًا بشريًا وبذلك وضعهم أمام المدفع وعرضهم للموت معه.

تناهى إلى سمعي أن سيدة حامل قتلت مع طفليها ، راودني إحساس أن أبرياء قتلوا بسببي... صرخت بهم غاضبة معنفة:

- لم أطلب منكم... لم أدفعكم وأشجعكم على هذا ، وكل ما كان من تخطيط وتنفيذ كان بالغيب عني ولست على علم ودراية به، ماذا سيحل بي بعد اليوم وقد سال الدم غزيرًا بسببي ؟ أنا السبب... أنا السبب.

الشعور بالراحة لم يدم طويلاً وسرعان ما انقلبت الأمور بدرجات متفاوتة عند كل واحد منا ، لكن كلنا جمعنا الشعور بالأسى والغيظ وخيبة الأمل وعليه انفض جمع العائلة وكل غادر يحمل أحزانه إلى حيث يريد...

● ● ● ●

أبي وأمي في ضيافتي وأيام قليلة تفصلنا عن الموعد النهائي لتسليم البيت للمشتري الجديد في ١٩٦٤/٣/٧ ، وكنت قد أعدت طلاء الجدران وإصلاح الأبواب والشبابيك واستبدال الزجاج والتخلص من الأجهزة الكهربائية والأثاث القديم وشراء أثاث جديد غيره قبل أحداث آب/ أغسطس الماضية ، سألتني ابنتي شهيرة وهي متلهفة لسماع الجواب:

- أين سنذهب يا أمي لو تركنا بيتنا هذا ، وكيف سنعيش؟

- لا أدري يا حبيبتي... لا أدري.

جواب لم يرق لأمي، ضمتني إلى صدرها مع ابنتي وقالت:

ـ كيف، كيف لا تدرين يا ابنتي الغالية، هل ضاقت بك الدنيا؟، أنا وأبوك مازلنا على قيد الحياة ومازلنا بخير وبيتنا الواسع الكبير مفتوح وقلوبنا مفتوحة لاستقبالك والترحيب بك، ولهذا السبب نحن هنا جئنا من البصرة لنأخذك معنا.

رفضت العائلة فكرة رحيلي إلى البصرة وتمسكوا بموقفهم يومها، تمكن أبي بجهود استثنائية ونجح في إقناع الأولاد وأمهاتهم بضرورة تواجدي هناك لأمر مهم يخصني، تركت شهيرة في بغداد مع العائلة لتكمل النصف الثاني من السنة الدراسية وغادرت إلى البصرة لمواجهة الأمر المهم الذي يخصني وعساه خيرًا.

في البصرة كل شيء هادئ وليس من جديد غير الزيارات المتبادلة مع الأقارب والأحباب، لكن جلب انتباهي زيارتين بين يوم وآخر لابنة عمي زهرة أخت حسن الأكبر منه، قادمة من سفان "صفوان" على الحدود مع الكويت البعيدة كثيرًا عن محلة الجمهورية... ليس حب استطلاع بل فضول جارف يدفعني، توقعت أن زيارتها مقصودة تحجب خلفها ذلك الأمر المهم الذي أشار له والدي... هذه المرة لن أدعها تخرج حتى أسمع منها شيء... أي شيء حتى وإن كان تافهًا، أدخلتها الغرفة وأغلقت الباب خلفي، وجدتها مرتبكة ومترددة وخائفة أيضًا، قلت لها مشجعة:

- لا داعٍ للخوف والتردد يا زهرة، قولي ما عندك أنا متأكدة أنك تعرفين الكثير ولسانك ثقيل بما يجب أن يقال.

- لا... لا لست خائفة، لكن أسألك وأريد جوابًا صريحًا مفرحًا.

- تأكدي أنه أكثر من سؤال، سوف تتحدثين كثيرًا ولن تتحدثين عن فراغ... عن لا شيء ولهذا جئت بك إلى هنا.

- هل ما زلتِ تحبين حسن، وما ردك لو تقدم لخطبتك؟ إنه مازال يحبك ومنذ خروجه من السجن وحتى اليوم يرفض الاقتران بغيرك، سمعته أكثر من مرة يقول إما عزيزة أو لا، وإن رفضتني فلن اقترن بغيرها، هذه هي عظمة حبه لك واستماتته من أجلك.

حسن؟ كيف لا أرضى به وهو فارس أحلامي، نبع آمالي، نهر أمنياتي الجاري الذي لا ينضب، ماءه يروي بستان جنتي وحقول أزهاري ويبدد عطش روحي... حسن ملاذي الآمن والنور الذي يضيء ليلي الدامس ويلغي ظلمة أيامي، اهتز رأسي بعلامة الموافقة وقلت بهدوء:

- على بركة لله.

• • • •

لم يتأخر والدي كثيرًا في طرح الموضوع، ذكرني ولم أنسَ بحب حسن وخطبته لي قبل حادث مقتل خلف درويش، ونبهني إلى عمر حسن الذي تجاوز الثلاثين، على خلاف سن الزواج

المبكر عندنا في الأرياف لا يتأخر الرجال عن الزواج حتى هذا العمر ، لكنه ظل ينتظر تحسن الظروف منذ خروجه من السجن طيلة الخمس سنوات الماضية.

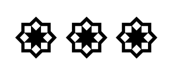
- أنبهك لعلك لا تدرين إلى أنه يعمل الآن مع الوجيه سهيل العطار ، استلم منه إدارة شؤون أرض زراعية واسعة جدًا مزروعة حنطة وشعير ومسورة بأشجار النخيل، واجباته فقط الإشراف على عمل الفلاحين الأجراء في كل ما يخص أمورهم وفي جميع مراحل العمل، بداية من إعداد الأرض للحراثة والبذار وحتى الحصاد والتسويق مقابل ربع ريع الأرض، أي ٢٥% من الناتج النهائي، واحتفاظه بعائدات النخيل من التمور بشكل كامل، كذلك عائدات صيد الأسماك والطيور لأن الأرض ملاصقة للأهوار... والآن يا ابنتي الغالية بعد أن ذكرتك وشرحت لك كل شيء بالتفصيل ما ردك وماذا تقولي؟.

قابلته بابتسامة خجولة خفيفة:

- نعم يا والدي الطيب العزيز، أتذكر كل ما قلته جيدًا وعندي معرفة بالمستجدات منه ، وسأعود فلاحة راعية للأغنام والجاموس، شيء متوقع ولن أتفاجأ به أبدًا، هذه دنيانا حين تدور دورتها، لا أحد يعرف كيف ومتى تتوقف وأين، بالنسبة ليّ استمرت دورتها اثني عشر عامًا بالتمام والكمال وعادت

راجعة إلى محل انطلاقها، اطمئن يا أبي أمنحك موافقتي، على أن تتم خطبتي من العائلة في بغداد ولا تليها أي خطوة قبل موافقة الأمهات بشرى وإيمان والأولاد ، هذا شرط لا أتخلى عنه.

فرح أبي وسره ما سمعه مني ، وأكد على الالتزام بالشرط النبيل على حد وصفه ، في بغداد نقلت للعائلة أخر الأخبار وعلم الجميع بالتفاصيل ، سرعان ما حصلت على موافقتهم الجماعية وعبروا عن رضاهم باسمى آيات التعبير بكل سعادة وسرور ، انصب التأكيد على أهمية الزواج لواحدة مثلي وأنا في السابعة والعشرين ، لكنهم أكدوا على ضرورة أن تكون الزفة من هنا... من بيتهم الأعظمية حتى يشاركوا بها، وتعهدوا في البحث عن عمل مناسب لحسن يليق به حتى أعيش معهم وفي وسطهم كواحدة منهم، كما هو الحال منذ عرفتهم قبل أحد عشر عامًا، وهذا ما كان فعلاً ، فبعد موسمين زراعيين عدت مع حسن أحمل طفلي الصغير شاهر وعمره سنة واحدة ، إذ عمل حسن في تجارة الحبوب، ولنعيش في بغداد إلى الأبد.



المؤلف في سطور

- روائي وكاتب عراقي مقيم حاليًا في السويد.
- تعتبر رواية "الفصلية" خطوته الأولى في عالم النشر وهو في الثالثة والستين من عمره، وهذا التأخر مرده لعدم توافق الأفكار بين القلم وما تريده الأنظمة الحاكمة، حيث انتظر الفرصة المناسبة في العراق أكثر من ثلاثين سنة وفي السويد عشر سنين... ولم تأتِ.
- "الفصلية" الرواية الأولى من سلسلة روايات "رغبات صامتة" صدرت في بداية عام ٢٠١٧، يتبعها في العام نفسه روايتان هما: "ثوب الورد" الرواية الثانية من سلسلة "رغبات صامته"، و"الأسير رقم ١٣" من وقائع الحرب العراقية - الإيرانية.
- يتبعها روايتان عام ٢٠١٨، هما : "لا تعتبي" رواية شعرية بأسلوب متجدد في الأدبين العربي والعالمي ، و"وجدته.. ولكن" وهي الرواية الثالثة من سلسلة "رغبات صامته"، وتصدر كلها بالتعاون مع مؤسسة شمس للنشر والإعلام بالقاهرة.
- له عدة دراسات وأبحاث في طريقها للنشر.
- البريد الإلكتروني : haseb.alkamese123@gmail.com



(+2) 02 27238004 /(+2) 01288890065

www.shams-group.net